سليم بركات

السّيرتان

دار الجديد

سليم بركات

السّيرتان

دَار الجَـديْد

الطبعة الأولى، ١٩٩٨

الجندب الحديدي، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٠.

هكذا عالياً، هاتِ النفير على آخره، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٢.

إنتاج وتنفيذ وتوزيع شركة دار الجديد ش. م. م. • صندوق بريد، ١١/٥٢٢٢ بيروت ـ لبنان • هاتف، ٥٠ ٩٨ ٧٣ ـ ٧١ ٨١ ٧٣ (٠١) • بريد إلكتروني، Aljadeed@cyberia.net.lb • نضد النص، سناء سلامي وجميلة هزيمة • ضبطه بالشكل وعلى أصوله، محمود عساف • انشاه كتاباً، علي حمدان • الخطوط الداخلية بريشة، علي عاصي.

نزيف الطّبعة الثّانية

الوَقْتُ يَضيقُ، والْمَكانُ يَتَّسِعُ: ذلكَ ما يُعَلِّمُكَ تأويلُ طفولَتِكَ. والْوَقْتُ يَتَّسِعُ، والْمَكانُ يَضيقُ: ذلكَ ما يُعَلِّمُكَ الْواقِعُ حالِماً بِتَدْوينِ نَفْسِهِ كَشَقاءٍ عَذْب. وَبَيْنَ هذا التَّلقّينِ الْفائِضِ مِنْ عُمْرِكَ، وذاكَ، بِاْخْتِصاصٍ في عُلومِ الْمَكانِ وعُلومِ الْوَقْتِ، تَنْتَظِرُ أنْ تَفْرَغَ مِنْ نَفْسِكَ إلى عَبَثِها، وَقَدِ اْكْتَمَلْتَ بِغَيْبوبَةٍ كَالْحَصادِ، وأَرَّثْتَ الْقِدَمَ الْحالِمَ صَبْرَ يَقينِكَ الشَّيْخ.

لا طُفولَةَ إلّا في النِّسْيانِ. الْمُعْلَنُ مِنْكَ هُوَ هِبَةُ النِّسْيانِ، الْمُسْتَتِرُ مِنْكَ هُوَ هِبَةُ النِّسْيانِ. ما يَحْدُثُ لَكَ في شَفَقِ عُمْرِكَ الْأَوَّلِ يَحْدُثُ هُناكَ، بَعيداً عَنْ أَمَلِكَ. وما يَحْدُثُ لَكَ في غَسَقِ عُمْرِكَ الثّاني يَحْدُثُ هُنا، بَعيداً عَنِ الْيَقين.

كمالُكَ جَهالَتُكَ، يَقينُكَ ما تَخْتَبِرُ به النّارُ عَذابَها، قَلَقُكَ

فِخاخُكَ ٱلمَقْذوفَةُ مِنْ كُهولَتِكَ إلى ما كُنْتَ تَزِنُ به نَفْسَك طِفْلاً يتهيَّأُ لمُشافَهاتِ ٱلعَبَثِ وإغْماءاتِه.

كَمْ تَتَجَرَّدُ طُفولَتُكَ مِنْ نَفَسِها لِتُؤاخِيَكَ، كَمْ تَعْتَرِضُكَ لتَنْجُوَ من حَماقَةِ ٱلخيالِ، ٱلَّذي يَصِفُ قَلْبَكَ حَكيماً. أنْتَ في جِهَةٍ، طُفولَتُكَ في جِهَةٍ: كِلاكُما مَعْذورانِ لأنَّكُما لَمْ تَلْتَقِيا كَيْ يُوَبِّخَ أحَدُكُما ٱلآخَرَ، أو يُعانِقَه.

طُفولَتُك حُرَّةٌ منْك لأنَّها يَقينُ نَفْسِها، وأنْتَ جَهالةُ ٱلوَقْتِ ٱلمُنْحَدِرِ إلَيْكَ بلا طُفولةٍ. فٱنتظِرْها، طُفولَتَك، قَدْرَ ما تَسْتَطيع. أجِّلْها قَدْرَ ما تَسْتَطيع. مَوِّهِ الطَّريقَ إلَيْكَ كَيْ لا تَصِلَ. أبْقِها في ٱلمَتاهَةِ لأنَّكَ لَنْ تُمْتَحَنَ بإرثِها بَعْدَ ٱلآنَ: لَقَدْ تَقَوَّضَ ٱلأبَدِيُّ.

ثُمَّ ماذا؟ بِكَ، أوْ مِنْ دونِكَ، كُلُّ طُفولةٍ ميثاقٌ مُمَزَّق. كُلُّ طُفولةٍ مِحْنَة.

سليم بركات
نيقوسيا ١٩٩٦

الجُنْدب الحديدي

(السّيرةِ النّاقصة لطفلٍ لمْ يَرَ إلاّ أرضًا هاربة فصاح :
هذه فِخاخي أيُّها القطا)

هيهاتِ أيُّها الطِّفل، هيهات

ما آلَّذي تراه؟ قُلْ لي أيُّها الطِّفْلُ ما آلَّذي تراه؟ هَضَبَتانِ في آلأُفُقِ، وَعِقْدٌ مِنَ آلقُرى وَتُرابٌ يَتَرَنَّحُ بَيْنَ صَيْفٍ طائِشٍ وَبَيْنَ شِتاءٍ أحْمَقَ. وَمَوْعِدُكَ أيُّها الطِّفْلُ مَوْعِدُ نَباتٍ أوْ طَيْرٍ. تُغْمِضُ عَيْنَيْكَ على ضُحىً تَتَساقَطُ مِنْ سِلالِهِ آلأقْنِعَةُ، وَتَقْبُضُ بِكَفَّيْكَ على لِجامٍ غامِضٍ، كأنَّما تَتَهَيَّأُ أنْتَ لِلْكُهولَةِ، أو تَتَهَيَّأُ لكَ آلكُهولَةُ، لِتَخْتَزِلا، مَعاً، ذلكَ السِّحْرَ آلَّذي يَنْبِضُ مَرَّةً واحِدَةً فَتَنْتَحِرُ آلحياةُ شَوْقاً إلى نَبْضَةٍ ثانِيَة.

هيهاتِ أيُّها الطِّفْلُ أنْ تَرى غَيْرَ ما رأيْتَ. وما آلَّذي رَأَيْتَ، قُلْ لي، غَيْرَ عَرَباتٍ تَئِنُّ، وينابيعَ هارِبَةٍ مِنْ ضَرَباتِ آلغُبار؟ كَفاكَ آنْتِحالاً للأشْكالِ لِتَطْمَئِنَّ إليكَ آلأشْكالُ. كَفاكَ دَفْعاً بي إلى نَدامى آحْتَضَنوا آلجُذورَ وناموا. لكِنْ، بآللّهِ، لا تُخَفِّفْ مِن وَطْءِ آلغَمامِ عَلَيَّ وَوَطْءِ الثُّلوجِ، حَيْثُ ألْمَحُكَ بَيْنَهُما تَنْحَرُ آلعصافيرَ وآلوَقْتَ، ناثِراً مِنْ نَشيجِكَ على

ٱلأرْضِ طُفولَةً لِلأرْضِ، ناثِراً شِباكَ دَمِكَ السَّكْرانِ لِتَلْتَقِطَ ٱلمَلْحَمَة.

أنتَ طِفْلٌ، وما ٱلَّذي أرومُهُ مِنْ طِفْلٍ إلّا أنْ يَنْفُضَ عَنْ ثيابِهِ الشِّمالَ كُلَّهُ بَيْتاً بَيْتاً، شَجَرَةً شَجَرَةً، نَهْراً نَهْراً، بَيْدَراً بَيْدَراً، سُنْبُلَةً سُنْبُلَةً، سحابَةً سحابَةً، وأنْ يَكْسِرَ جِرارَ ٱلأُفُقِ لِتَنْدَلِقَ أسْرابُ السُّنونو وٱلقَطا؟... أُرْكُضْ قَدْرَ ما تَحْتَمِلُ ساقاكَ، أُرْكُضْ مِنَ الزَّوابِعِ إلى الزَّوابِعِ، وٱرْفَعْ قَلْبَكَ الصَّغيرَ ٱبْتِهالاً إلى السُّهولِ ٱلَّتي تَتَزاحَمُ مِنْ حَوْلِها ٱلحُروفُ والزَّرازيرُ. أَلَيْسَ في صَوْتِكَ صَوْتُ بناتِ آوى؟ أَلَيْسَ في صَوْتِكَ صَوْتُ شَرْخٍ؟ أَلَيْسَ فيكَ ما في ٱلمَديحِ كُلِّهِ مِنْ تَرَفٍ مَهْزوم؟ أنْتَ طِفْلٌ، وما ٱلَّذي يأسِرُ الرِّياحَ فيكَ غَيْرُ مدىً مُتْرَعٍ بالرِّياحِ؟ دَعْني أنْبَسِطْ تَحْتَ دِرْعِكَ كما تَنْبَسِطُ ٱلفَجيعَةُ، فاتِحاً ذراعَيَّ لِلْبُقولِ وللثَّعالِبِ، كأنَّما أنا هَوى ٱنْدِثارٍ، أو هَوى رَحيلٍ شاهِرٍ فُؤوسَهُ على ٱلخَلائِقِ... وأنْتَ طِفْلٌ، قُلْ لي ما ٱلَّذي رَأَيْتَ مِنْ طِفْلٍ؟ قُلْ رَأَيْتَ صَوْتَكَ عارِياً بَيْنَ ٱلأصْواتِ، لاهِثاً كَرِئَةٍ مَكْسورَةٍ تَتَدافَعُ مِنْ شُقوقِها ٱلحَدَآتُ وَتَنْبَجِسُ ٱلمَناجِلُ. آهِ أيُّها الطِّفْلُ، كَمْ سَمِعْتُكَ يَقْظانَ في ٱلحِكايَةِ

تَسْرُدُ لِلْحِكايَةِ قَلْبَكَ الصَّغيرَ؛ تَسْرُدُ لِلْحكايَةِ لَهْوَ ٱلأُقْحُوانِ، وَتَنْسى كَيْفَ طَعَنْتَ بِخِنْجَرِ النَّدى بُيوتَ بريڤا، وموسيسانا وعامودا، وكيستك وبهارنك وموزان وسيمتك، وحلكو وكوجك، والعنترية، وتربسبي، وعاكولة، وهرم رش، وهرم شيخو، و... إلخ إلخ.

أنْتَ طِفْلٌ، ها، تَجْمَعُ في جُيوبِكَ ٱلباقِلاءَ ٱلبَرِّيَّةَ، وأزاهيرَ ٱلبَشْتارِ السُّكَّرِيَّةَ. هُنا تَتَعَمَّدُ أنْ يَراكَ نواطيرُ ٱلقَمْحِ لِتُضَلِّلَ النَّواطيرَ. تِلْكَ مَلْهاتُكَ، تِلْكَ مَلْهاةُ عُمْرٍ سَكْرانَ كَدَمِكَ السَّكْرانِ. تِلْكَ مَلْهاةٌ نَصَبْتَها بَيْنَ فِخاخِكَ لِلْحُقولِ كُلِّها، وَضَحِكْتَ إذْ عَلِقَتِ ٱلحُقولُ حتّى تَضاحَكَ مِنْ حَوْلِكَ ٱلهواءُ. وَكُنْتَ أنْتَ وَٱلهواءُ عاقِدَيْنِ ٱمْتِداداتِكُما معاً، وَتَنْفُخانِ في بوقٍ واحِدٍ لِتَسْتَنْفِرا طَيْشَ ٱلمَخْلوقاتِ. لَقَدْ عَرَفْنا، يقيناً، بَعْدَ كُلِّ هذا الرَّحيلِ، أنَّكَ أنْتَ مَنْ حَفَرَ طريقَ عَرَباتِ التِّبْنِ وَمَوَّهَها لِيَكْسِرَ قوائِمَ بَغْلِ سمعان، وأنتَ مَنْ أوْصَلَ سِلْكَ ٱلكَهْرَباءِ بِبابِ فُرْنِ مرادو فَما أمْسَكَهُ أحَدٌ إلّا صُعِق. وأنْتَ مَنْ دَحْرَجَ ٱلمِدْحَلَةَ ٱلحَجَرِيَّةَ عَنْ سَطْحِ ٱلبَيْتِ على كَلْبِ فلمز فَشَلَّ نِصْفَهُ. وأنْتَ مَنْ قَتَلَ ديكَ هيلان ذا الرَّقَبَةِ ٱلعارِيَةِ وَٱلعَرْفِ

آلمَقْصوصِ بِحَجَرٍ. وأنْتَ مَنْ رَشَّ آلبَهارَ في بِرْكَةِ إوَزّاتِ سقمور فَصِرْنَ مَشعورات. وأنْتَ مَنْ سَرَقَ عصا كتام آلأعمى. وأنْتَ مَنْ كَسَرَ أحَدَ قَرْنَيْ كَبْشِ مير. وأنْتَ مَنْ نامَ، أخيراً، وَمِلْءُ حُلْمِهِ أنْ يَفْتَحَ مقابِرَ هلاليَّة قَبْراً قبراً ليرى كَيْفَ يَتَسامَرُ آلمَوْتى في مَخابِئِهِم الضَّيِّقَةِ. لكنَّكَ طِفْلٌ، وَمَنْ ذا آلَّذي يُعاقِبُ طِفْلاً ضَرَبَتْهُ صواعِقُ آلأُقْحوانِ فَتَناثَرَ بُرْعُماً بُرْعُماً بَيْنَ نَباتٍ حَديدٍ وَغَيْمٍ حَديد؟ آهِ كَمْ قُلْنا: لا تَقْتَرِبْ أيُّها الطِّفْلُ، لا تَقْتَرِبْ مِنَ آلحُطامِ، بَيْدَ أنَّكَ آقْتَرَبْتَ تَلْتَقِطُ مِنَ آلحُطامِ بقايا خَزَفٍ لِتُزَيِّنَ آلمَراثي.

لَقَدْ عَرَفْنا، يقيناً، أنَّكَ كُنْتَ يَقْظانَ طَوالَ هذا السُّباتِ الضّارِبِ بجذورِهِ في خُطُواتِنا، وآلمُرْتَسِمِ كَخَتْمٍ على آلفُتوحاتِ آلَّتي لَمْ تَكُنْ لنا؛ لكِنْ لِمَ أيْقَظْتَنا آلآنَ وأسْلَمْتَنا للدُّعابَةِ؟ كِبارٌ نَحْنُ أيُّها الطِّفْلُ، كِبارٌ يَلْهونَ بَقَعْقَعَةِ آلحَديدِ أمامَ بابِ آلوَقْتِ، وَيَذْرُفونَ آلفِلْزَ آلبارِدَ. كِبارٌ نَحْنُ، لا نَبْسُطُ أقْدارَنا لِسُنونُوَةٍ عابِرَةٍ أوْ لِمَرَحٍ، ولا نَلْبَسُ إلّا حِكْمَةَ آلبَطْشِ. فإذا هَمَمْتَ، ثانيةً، أن تَخْتَبِىءَ من الأرْضِ وَراءَ فَراشَةٍ فلا تَنْتَظِرْنا، لأنَّنا سَنَقِفُ هُنا، تَحْتَ هذا الصَّليلِ

الصّامِتِ للأدْوارِ الصّامِتَةِ، رافعينَ قُرونَ آلماعِزِ في مَهَبِّ آلمَلْهاة.

كُنْتَ يَقْظانَ فأيْقَظْتَنا لِنَلْمَحَكَ عابِراً بَوّابَةَ النَّباتِ، وَوَراءَكَ نَيْزَكٌ من مياهٍ وريش. لِنَلْمَحَكَ وَسْطَ أسْلِحَةِ الضُّحى دافِعاً سُهولَ كيستك إلى نصيبين، غَيْرَ عابِىءٍ بِحَرَسِ آلمُدُنِ آلَّذين أطْلَقوا على مَرَحِكَ سِهامَ تاريخٍ أبْكَم. كُنْتَ مُمْتَدّاً، آنذاك، مِثْلَ قَلْبٍ سَكْرانَ، وَبَقيتَ مُمْتَدّاً مِثْلَ قَلْبٍ سَكْرانَ، فها أنْتَ تَرانا ـ نَحْنُ آلَّذين آنْحَسَروا ـ راكضينَ مِنْ جُرُفٍ إلى جُرُفٍ لِنوقِفَ آنْحِسارَ آلجِهاتِ عَنّا، خِشْيَةَ أنْ نرى آلحاضِرَ آلَّذي لا جِهاتِ لَهُ. إيهٍ، ظَلَّ مُمْتَدّاً أيُّها الصَّغيرُ، ظَلَّ صَغيراً كَما تَشْتَهيكَ آلجُذورُ، وآكْسِرْ ما شِئْتَ من آلجِرارِ وآلأباريقِ، فأنْتَ حُلْوٌ في طَيْشِكَ، حُلْوٌ في سُلْطانِكَ الطّاغي، حُلْوٌ حينَ تَخْلَعُ سِياجاتِ آلوَرْدِ وَتَبْطُشُ بآلوَرْدِ؛ حُلْوٌ حينَ تَرْكَبُ ظَهْرَ آلكَبْشِ فَيَهيجُ، حُلْوٌ حينَ تَرْمي آلينابيعَ بآلحَجَرِ فَيُجْفِلُ آلبَقَرُ الشّارِبُ، حُلْوٌ حينَ تَسْلَخُ آلحِرْباواتِ أو تَعْبَثُ بأعْشاشِ آلعَصافيرِ؛ حُلْوٌ حينَ تَسْرِقُ آلبُقولَ وَتَنْصُبُ الفِخاخَ لِلْحَمامِ؛ حُلْوٌ حينَ تُحْرِقُ آلقِطَطَ وَآلبَيادِرَ؛ حُلْوٌ حينَ تُطْلِقُ الثّيرانَ مِنَ الزَّرائِبِ فَتَشْرُدُ

الثّيرانُ؛ حُلْوٌ حينَ تَرْبُطُ مَناقيرَ الدِّيَكَةِ الرُّوميَّةِ؛ حُلْوٌ حينَ تَهْذي عَنْ كواكِبَ زاحِفَةٍ ومياهٍ تَرْتَدي جَناحَ الطُّيور؛ حُلْوٌ حينَ تَهْذي عَنْ سائِسٍ يسوقُ ٱلغُيومَ بِسَوْطِهِ، وَعَنْ عَرَباتٍ في قاعِ النَّهْرِ؛ حُلْوٌ حينَ تَهْذي عَنْ ثَعالِبِ الظَّلامِ وتُيوسِهِ، وَعَنْ بِغالٍ ذاتِ شَعْرٍ كَشَعْرِ النِّساءِ. حُلْوٌ حُلْوٌ أنْتَ، فَدَعْنا بِٱللَّهِ عَلَيْك.

غَيْرَ أنَّكَ، أنْتَ ٱليَقْظانَ، تُوْقِظُنا لِنَسْرُدَ ٱلمَهْزَلَة.

(انتهى الدخل، وتليه المُنْفَصِلات
الخمسةُ في السيرة الناقصة).

فاصل أول

العنف الهندسي

كُنّا صِغاراً يا صاحبي، صِغاراً جِدّاً، مِثْلَ فِراخِ ٱلإِوَزِّ، واقِفينَ على طَرَفَيِ الشّارِعِ كَسُطورِ ٱلكِتابَةِ. وكانَ ثَمَّتَ هَرَجٌ كَبيرٌ، هَرَجٌ مَهولٌ. وكانَ ٱلمُعَلِّمونَ، ٱلَّذينَ يَقْفِزونَ بَيْنَ الصُّفوفِ مُلَوِّحينَ بِعِصِيِّهِم، أَشْبَهَ بِقِطَطٍ مَذْعورَةٍ، يَصْرُخونَ: «ٱنْتَبِهوا، لَوِّحوا بأيْديكُم حينَ يَمُرُّ الرَّئيس»... وَمَرَّ الرَّئيسُ، مَرَّ وَسْطَنا مُلَوِّحاً بِيَدَيْهِ، ثُمَّ ٱخْتَلَطَتِ الصُّفوفُ ٱلهَنْدَسِيَّةُ وراءَ ٱلمَوْكِبِ، وَتَحَوَّلَتْ إلى كُتَلٍ سَوْداءَ مُتَدَحْرِجَةٍ، عَنيفةٍ في فَوْضاها.

سَقَطْتُ على ٱلأَرْضِ مِراراً، تَصْطَدِمُ بيَ ٱلأَجْسادُ وٱلأَرْجُلُ، وأنا أُجاهِدُ لِلْخروجِ مِنَ ٱلبُحَيْرَةِ ٱلآدَميَّةِ، وَحينَ وَصَلْتُ إلى ٱلبَيْتِ كانَ وَجْهي أَقْرَبَ إلى التُّرابِ مِنْهُ إلى وَجْهِ طِفْلٍ.

تلكَ كانَتْ بدايَةَ ٱلعُنْفِ يا صاحبي، بدايَةٌ ٱمْتَدَّتْ أُسبوعَيْنِ في مَدينَةٍ صَغيرَةٍ قُرْبَ جِبالِ طوروس؛ بدايَةَ فَرَحٍ رَسْمِيٍّ

«عَنيفٍ». وكانَ عَلَيْنا أنْ نَهْتِفَ طَوالَ ٱلوَقْتِ، داخِلَ حُجُراتِ الدِّراسَةِ وخارِجَها، وأنْ نُزَيِّنَ ٱلجُدْرانَ مَرّاتٍ وَمَرّاتٍ، حَيْثُ يَقْتَضي ٱلأمْرُ ولا يَقْتَضي، وأنْ نُعَلِّقَ أعْلاماً صَغيرةً على صُدورِنا، حَيْثُ يَقْتَضي ٱلأمْرُ ولا يَقْتَضي، وأنْ نَرْسُمَ فَرَحاً غامِضاً على وُجوهِنا، دونَما ٱلْتِفاتٍ إلى أعْماقِنا.

كانَ عُنْفُ ٱلفَرَحِ «الرَّسْمِيِّ» عُنْفاً يَفوقُ طاقَةَ طِفْلٍ لارَسْمِيٍّ، وَمَعَ ذلِكَ كانَ عَلَيَّ أنْ أتَحَمَّلَهُ في خُضوعٍ ساحِقٍ، وأنْ أصيرَ عَنيفاً بِدَوْري، عَنيفاً إلى دَرَجَةٍ تَفوقُ طاقَةَ طِفْلٍ.

تِلْكَ كانَتْ بِدايَةَ ٱلعُنْفِ يا صاحِبي، بِدايَةً دَعَتْني إلى سَرِقَةِ الطَّباشيرِ ٱلمُلَوَّنَةِ مِنَ ٱلمَدْرَسَةِ، لِأَمْلأَ مُرَبَّعاتِ السّورِ ٱلحَجَرِيِّ في ٱلحَديقَةِ ٱلعامَّةِ حُروفاً هِيَ حُروفُ ٱسْمي، وَحُروفاً أُخرى هي حُروفُ صِنْفِ القَلَمِ الرَّصاصِ ٱلَّذي أكْتُبُ بِهِ (H. B.) وكانَ ٱلآسْمانِ مَدْخَلاً إلى كَسْرِ «السُّلوكِ ٱلعامِّ»، سُلوكِ «النَّظيفينَ»، وَسُلوكِ ٱلحِرْصِ على «النَّظافَةِ» ٱلعامَّةِ. لكنَّ ٱلعُنْفَ ٱلَّذي ظَنَنْتُهُ خاصّاً بي تَسَلَّلَ إلى بَيْتِنا مُنْذُ ذلكَ ٱلمُرورِ ٱلعَنيفِ للرَّئيسِ، وٱتَّخَذَ أشْكالاً تَدْريجيَّةً في ظهورِهِ داخِلَ عائِلَةٍ تَبْلُغُ أحَدَ عَشَرَ فَرْداً.

كانَتْ باحَةُ بَيْتِنا يا صاحبي، آلباحَةُ آلواسِعَةُ جِدّاً، وآلمُحاطَةُ بسورٍ عالٍ، تُقْبِلُ رُوَيْداً رُوَيْداً على وَحْشَةٍ لَمْ تَعْهَدْها. فالضُّيوفُ ـ آلغُرَباءُ مِنْهُم وَآلمَعْروفونَ ـ آلَّذين كانوا يَأْتونَ وَيَمْضونَ دُونَما سَبَبٍ لِلْمَجيءِ أو لِلْمُغادَرَةِ، يَتَناقَصونَ يَوْماً بَعْدَ آخَرَ، تَبْعاً لِتَناقُصِ أملاكِنا، وكانَ أبي يَزْدادُ تَجَهُّماً وطَأْطَأَةً، يَزْدادُ عُنْفاً صامِتاً لا يُفْصِحُ عن كُنْهِهِ إلّا داخِلَ آلأَسْواقِ التِّجاريَّةِ في آلمَدينةِ، حَيْثُ يَصْطَدِمُ التُّجّارُ آليائِسونَ، في مُضارباتِهِم على آلحُبوبِ، فَتَرْتَفِعُ أَكْثَرُ مِنْ مائَةِ يَدٍ تَحْمِلُ خُطّافاتٍ حَديديَّةً وَتَهْوي فَيَتَناثَرُ آللَّحْمُ آلعاري.

كانَتْ تِلْكَ بِدايَةَ آلفَرَحِ «الرَّسْميِّ» آلعَنيفِ، وَبدايَةَ آلفَقْرِ الشَّعْبيِّ آلعنيفِ. بِدايَةً خَرَجَتْ مِنَ آلمَدْرَسَةِ إلى آلأَسْواقِ التِّجاريَّةِ، وَدَخَلَتِ آلبُيوتَ وَلَمْ تَخْرُجْ مِنْها.

وَكُنْتُ طِفلاً يا صاحبي، لا أخْرُجُ مِنَ آلبَيْتِ صباحاً إلّا بَعْدَ خُروجِ أبي مِنَ آلبَيْتِ، ليَتَسَنّى لي أنْ أصْرُخَ في وَجْهِ أُمّي: «أنا لا أُحِبُّ الشّاي. لا أُحِبُّ الشّااااي». ثم أَرْكُلُ آلإبْريقَ فَأَدْلُقَهُ كامِلاً، وَأَقْذِفُ بآلكَأْسِ قَدْرَ طاقَتي إلى آلحائِطِ.

ثُمَّ أهْرُبُ إلى آلمَدْرَسَةِ، وأعودُ أهْرُبُ مِنَ آلمَدْرَسَةِ إلى مُسْتَنْقَعِ قاسمو لأُراقِبَ أفاعيَ آلماء.

كانَ ذلكَ دَأْبي كُلَّ صباحٍ، كانَ دَأْبَ إخْوَتي أيْضاً، مُنْذُ أنْ مَلأَ أبي آلبَيْتَ بأشْباحٍ تَحْمِلُ آلخَطاطيفَ آلحَديديَّةَ، بأشْباحٍ هاذِيَةٍ تَلُفُّ رُؤوسَها بِحَطّاتٍ مُرَقَّطَةٍ تَكْثُرُ عَلَيْها لَطَخاتُ دَمٍ جافّ.

وآتَّسَعَتِ آلبِدايَةُ؛ آتَّسَعَتْ كدوائِرِ آلماءِ في بِرْكَةٍ رَمَوْها بِحَجَرٍ. وصارَتِ آلجِرارُ آلخَزَفِيَّةُ، آلمَرْكوزَةُ على قَواعِدَ مِنَ آلخَشَبِ داخِلَ آلبَيْتِ، تَتَساقَطُ واحِدَةً تِلْوَ أُخرى، تَتَساقَطُ وَتَتَناثَرُ. وتَأْتي جِرارٌ جديدةٌ لِتَتَساقَطَ وَتَتَناثَرَ. وَعَرَفْنا، نَحْنُ آلإخْوَةَ، أنَّ ذلكَ لا يَشْفي غَليلَنا، فَصِرْنا نَرْمي زُجاجَ النَّوافِذِ بآلحِجارَةِ، وَنَغيبُ بَعْدَها عَنِ آلبَيْتِ يَوْماً أو يَوْمَيْنِ، حتّى تَهْدَأَ أُمُّنا، فَنَعودُ نَكْسِرُ جَرَّةً أو نَخْلَعُ شُجَيْرَةَ وَرْدٍ مِنْ جُذورِها، وَنَهْرُبُ مِنْ جَديد.

وآتَّسَعَتِ آلبِدايَةُ، وآتَّسَعَتِ آلكَراهيَّةُ، وآسْتَفْحَلَتِ آلعَداوَةُ بَيْنَنا وَبَيْنَ أُمِّنا. نَهْرُبُ مِنَ آلبَيْتِ كَثيراً، وَحينَ يَسْقُطُ أحدُنا في قَبْضَتِها يَغيبُ عَنِ آلوَعْي. أُمّي لَمْ تَكُنْ تَكْتَفي بالضَّرْبِ

بآلعَصا، كانتْ تَضْرِبُ بِكُلِّ ما يَقَعُ في يَدَيْها، أحَجَراً كانَ أم حَديداً. ويَسيلُ دَمُنا، نَحْنُ آلأطْفالَ، وقد قَدَرْتُ أنْ أنْقُذَ مِنْها ذاتَ مَرَّةٍ يا صاحبي، فَرَكَضْتُ إلى رُكْنٍ مِنْ باحَةِ آلبَيْتِ تَحْتَفِظُ فيهِ بِسَرْبٍ مِنَ آلأرانِبِ، خَلَعْتُ الشَّبَكَ آلمَعْدِنِيَّ مِنْ حَوْلِها، وَهَوَيْتُ عَلَيْها بإبْريقٍ نُحاسِيٍّ ذي قاعِدَةٍ مُسْتَديرةٍ حادَّةٍ. صارَتِ آلأرانِبُ تَتَخَبَّطُ. تَمُدُّ قوائِمَها آلخَلْفِيَّةَ ثُمَّ تَرْتَعِشُ لِتَهْدَأَ هُدوءاً لا حُدودَ لَهُ.

إثْنا عَشَرَ أرْنباً حَصيلَةُ آلمَجْزَرَةِ، وَعِشْرونَ يَوْماً مِنَ التَّسَكُّعِ حَوْلَ آلبَيْتِ دونَما جُرْأةٍ على دُخولِهِ. أنامُ بَيْنَ شُجَيْراتِ آلقُطْنِ في حَقْلٍ قريبٍ، وآكُلُ مِمّا يَسْرِقُهُ لي إخْوَتي.

وضاقَتِ آلبدايَةُ لِتَصيرَ كالرَّسَنِ. ضاقَتِ آلمَدينَةُ الصَّغيرةُ آلمُتاخِمَةُ لِجبالِ طوروسَ. يَتَحَدَّثُ النّاسُ بَعْضُهم إلى بَعْضٍ بِما يُشْبِهُ آلهَمْسَ، وأبي يَزْدادُ هَرَماً. وَحْدَهُمُ آلعَتّالونَ آلَّذينَ أغْدَقَ عَلَيْهِم أبي، في مَجْدِهِ، بآلمَؤوناتِ مِنَ آلحِنْطَةِ، يَشُدّونَ أزْرَهُ. وكانوا جَهَلَةً عنيفينَ مِنْ أجْلِ آلخُبْزِ. يَقولونَ: «لِيَكُنْ... لَنْ تَكونَ صَفْقَةٌ إلّا وَلَكَ حِصَّةٌ فيها». وَيُهَدِّدونَ سائِقي الشّاحِناتِ. لكنَّ الدَّوْلَةَ تَوَلَّتْ وَحْدَها تَسْويقَ كُلِّ شَيءٍ،

فٱنْقَسَمَ ٱلعَتّالونَ على أنْفُسِهِم، صاروا فُرادى، يَسْعى واحِدُهُم بِخَطّافِهِ ٱلحديديِّ إلى سَحْبِ لُقْمَةِ ٱلآخَرِ مِنْ فَمِه.

كُنّا نَرى إلى ذلكَ، نَحْنُ ٱلأطفالَ، وَنَقْتَسِمُ ٱلعُنْفَ، نَتَخاطَفُهُ كما نَتَخاطَفُ ٱلحلوى ٱلمُتَّسِخَةَ مِنَ ٱلأيْدي ٱلمُتَّسِخَةِ. وكانَ مَلَكوتُنا هو ٱلمَلكوتَ ٱلأبْعَدَ عَنِ السَّماءِ، كانَ مَلَكوتاً مِنَ ٱلغُبارِ وَمِنْ فَرَحِ السِّباحَةِ في مُسْتَنْقَعِ قاسمو، أوِ الرَّكْضِ بَيْنَ السَّنابِلِ لِنَتْرُكَها وَراءَنا عَصْفاً مأكولاً. وَنَتَبارى في قَنْصِ الدَّجاجاتِ الشّارِدَةِ بَيْنَ ٱلحُقولِ بِمَقاليعِنا: تَتَخَبَّطُ وَتَهْوي. تَرْكُضُ وَتَهْوي. تَفْرُدُ أجْنِحَتَها لِصْقَ ٱلأرْضِ وَتَفْتَحُ مناقيرَها ٱلَّتي تَمْتَلِىءُ بالتُّرابِ، ثُمَّ تَهْدَأُ.

كُنّا أطْفالاً يا صاحبي، أطفالاً يُحِبّونَ وَصْفَ ٱلحَيَواناتِ وهيَ تَموتُ في بُطءٍ. نُحِبُّ وَضْعَ وَرَقِ ٱلخَرْشَنَةِ في أُنوفِنا حتّى يَسيلَ الدَّمُ، ونَتَباهى بِٱلَّذي يَسيلُ دَمُهُ أكْثَرَ، بِٱلَّذي يَحْمِلُ كَدَماتٍ أكْثَرَ، بِٱلَّذي تَزْدادُ ٱلجِراحُ ٱلعميقةُ في وَجْهِهِ أو يَدَيْهِ، ويا ما وَقَفْنا في ٱللَّيْلِ تَحْتَ ٱلمَصابيحِ الشَّحيحةِ في الشَّوارِعِ، نَنْتَظِرُ وصولَ عَرَباتِ ٱلخُضَرِ أوِ ٱلبَطّيخِ ٱلأخْضَرِ مِنَ ٱلقُرى وَٱلحقولِ ٱلمُجاوِرَةِ إلى سوقِ ٱلمدينَةِ. نَتَلَطّى حينَ

نَسْمَعُ حوافِرَ ٱلبِغالِ، وصَريرَ ٱلعَجَلاتِ ٱلخَشَبِيَّةِ. نَتَلَطّى حتّى تَجْتازَنا فَنُهَرْوِلُ، حُفاةً، وَراءَها، حامِلينَ، دائِماً، سكاكينَ صَغيرَةً أو شَفَراتِ حِلاقَةٍ، وَنَقْطَعُ ٱلحِبالَ فَتَتَدَحْرَجُ ٱلحُمولَةُ. نَحْمِلُ ما نَسْتَطيعُ حَمْلَهُ وَنَهْرُبُ، لا أحدَ يَسْتَطيعُ ٱللَّحاقَ بِنا وَنَحْنُ حُفاة. نأكُلُ قليلاً مِمّا خَطِفْناهُ، وَنَتَراشَقُ بٱلباقي.

كُنّا صِغاراً يا صاحِبي، صِغاراً يَسْهَرونَ في ٱللَّيْلِ تَحْتَ مصابيحِ الطُّرُقاتِ. صِغاراً لا يُفَكِّرونَ إلّا في سَرِقَةٍ أوْ خَطْفٍ أوْ تَحْطيمٍ، وَيَكْرهونَ ٱلمَدْرَسَةَ، يَكْرهونَ الدَّفاتِرَ وٱلمُعَلّمينَ، وَيَرْتَجِفونَ في الصَّباحِ حينَ يَمُرُّ عَلَيْهِمُ النّاظِرُ لِيَرى أظافِرَهُم وشُعورَهُم. نَخافُ دائِماً. نَخافُ مِنَ ٱلبَيْتِ، وَمِنَ ٱلمَدْرَسَةِ، وَمِنَ ٱلشُّرْطِيِّ. وَنَتَمَنّى أنْ نُفيقَ ذاتَ صَباحٍ فَنَرى ٱلأرْضَ قَفْراً إلّا منّا.

كُنّا أطفالاً بلا طُفولَةٍ. وكانَ ٱلكِبارُ يَتَباهَوْنَ بِوَحْشِيَّتِنا. إنَّهُم يُحِبّونَ ٱلأطْفالَ ٱلقُساةَ. وَنَحْنُ نُحِبُّ الرِّجالَ ٱلقُساةَ. الرِّياضيّونَ يَفْتِنونَنا، وَنَقْتَدي بٱلقَبَضاياتِ. لا طِفْلَ إلّا وفي جَيْبِهِ سِكّينٌ، أو على وَسْطِهِ سِلْسِلَةُ حديدٍ. وٱلكُلُّ يُتْقِنُ صُنْعَ مِقْلاعٍ مِنَ ٱلقِنَّبِ، أو صُنْعَ كِرْباجٍ مِنْ أشْرِطَةِ ٱلكَهْرَباءِ الرَّفيعَةِ،

وَٱلكُلُّ مَهْووسٌ بِجَمْعِ النُّفاياتِ النُّحاسِيَّةِ لأنَّها تُباعُ. وفي مَقْدورِ ٱلكُلِّ أنْ يُحَطِّمَ سيّارَةً ليأخُذَ مِنْها قِطْعَةً نُحاسيَّةً، يقودُهُ ثَمَنُها إلى السّينَما.

إنَّنا نُحِبُّ كيڤورك لأنَّهُ تَغَلَّبَ على سِتَّةِ رِجالٍ مُسَلَّحينَ. نُحِبُّ كنعانَ لأنَّهُ يَدْخُلُ أيَّةَ دارٍ للسّينَما مَجّاناً. نُحِبُّ شرو العتّالَ، لأنَّهُ يَتَقاضى أتْعابَهُ مِنْ كُلِّ تاجِرِ حُبوبٍ، مِنْ دونِ أنْ يَحْمِلَ كيساً واحِداً على ظَهْرِهِ، وَهُوَ عنيدٌ وسريعٌ في إشهارِ خِنْجَرِهِ. دَخَلَ السِّجْنَ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً. هذهِ رُموزُنا.

... وتضيقُ الطُّفولَةُ، وَتَضيقُ ٱلبِدايَةُ: بَدَأْتُ أعي شَيْئاً جَديداً لَمْ يَكُنْ في ٱلحُسْبانِ، عنيفٌ وصارِخٌ: أنْتَ كُرْدِيٌّ. الأكرادُ خَطِرونَ. مَمْنوعٌ أنْ تَتَحَدَّثَ بِٱلكُرْدِيَّةِ في ٱلمَدْرَسَةِ. هذا جديدٌ، لأنَّكَ تَعْرِفُ أنَّ ثلاثَةَ أرْباعِ هذه ٱلمَدينةِ ٱلمُتاخِمَةِ لِجبالِ طوروسَ هُمْ أكرادٌ. وها أنْتَ تَلْمُسُ ٱلمَسْأَلَةَ: المُعَلِّمونَ يُغالونَ في تَحْقيرِ التَّلامِذَةِ وَضَرْبِهِم. وٱلبُداةُ ٱلَّذينَ يَهْتِفونَ لِكُلِّ نِظامٍ جديدٍ، يَفِدونَ إلى ٱلمَدينةِ، وَيُراقِبونَ ٱلوُجوهَ. أنْتَ طِفْلٌ، لكِنَّكَ لَسْتَ أعْمى. إنَّهُم يَكْرَهونَكَ سَلَفاً، ولا تَدْري لِماذا. المُعَلِّمُ يَكْرَهُكَ ويَكْرَهُكَ مُوَظَّفُ الدَّوْلَةِ والشُّرْطِيُّ. هذا شَرْطٌ

جديدٌ، فَلأَكُنْ عَنيفاً إذاً، عنيفاً أَكْثَرَ مِمّا يَنْبَغي تِجاهَ هذا آلاقْتِحامِ الشَّيْطانيِّ.

تَنْظُرُ، بِدَوْرِكَ، إلى أطْفالِ آلبَدْوِ شَزْراً في آلمَدْرَسَةِ. تَسْخَرُ مِنَ آلحِلاقَةِ آلغريبَةِ لِشَعْرِهِم، وَمِنَ آلوَشْمِ آلأزْرَقِ آلَّذي يُغَطّي أُنوفَهُم وَخُدودَهُم وأَيْديهِم، وَمِنْ بِدائِيَّتِهِمُ آلمُفْرِطَةِ. لكنَّكَ لا تَعْرِفُ لِماذا يُفَضِّلونَهُم عَلَيْكَ. ولِذا تَنْتَظِرُهُم بَعْدَ آلآنْصِرافِ مِنَ آلمَدْرَسَةِ، وَتَخْتَلِقُ أيَّ سَبَبٍ للمُشاجَرَةِ يَوْماً بَعْدَ يَوْم. يَطْلُبُ النّاظِرُ أنْ تَجْلُبَ وَلِيَّ أمْرِكَ فَيَأْتي والِدُكَ إلى آلمَدْرَسَةِ. يَحْتَقِرُهُ النّاظِرُ لِلُكْنَتِهِ آلأعْجَمِيَّةِ، لكنَّ والِدَكَ عنيفٌ ذو كِبْرياءٍ، يَقولُ للنّاظِرِ: «مَنْ أنْتَ لِتُخاطِبَني هكذا؟»، يقولُ النّاظِرُ: «رَبَّ رَبَّك...». يَذْهَبُ أبي غاضِباً. وفي آليَوْمِ ذاتِهِ يَقِفُ عتّالانِ في الشّارِعِ آلَّذي يَضُمُّ بَيْتَ النّاظِرِ، وَيَسْحَلانِهِ على آلأرْضِ مِنْ قَدَمَيْهِ. يَشْتَكي النّاظِرُ إلى الشُّرْطَةِ. تأتي الشُّرْطَةُ فَيَرْفُضُ والدي آلمُضِيَّ مَعَهُم. يَجْتَمِعُ آلقَبَضاياتُ وآلأقْرِباءُ أجْمعينَ في غَضَبٍ كاسِحٍ. يَصِلُ آلأمْرُ إلى مُديرِ آلمِنْطَقَةِ، وَهُوَ بِرُتْبَةِ مُقَدَّم. يأتي آلمُقَدَّمُ في سيّارَةٍ فَخْمَةٍ، فَيَخْرُجُ إليهِ حسين آغا صارِخاً: «سأدوسُ قُبَّعَتَكَ إذا أخَذْتَ هذا الرَّجُلَ»، وَيُسَوّى آلأمْرُ في

هُدوءٍ، وفي هُدوءٍ يَتَخَلّى النّاظِرُ عن عَدائِيَّتِهِ، لكنَّ آلمَسْأَلَةَ لا تَنْتَهي، فَتُصْبِحُ الطُّفولَةُ جَحيماً، وكذلكَ آلبِدايَةُ آلَّتي لَوَّحْتَ فيها بِيَدَيْكَ الصَّغيرَتَيْنِ للرَّئيس.

وَتَتَراكَمُ آلأمورُ، فَتُمْعِنُ في الذَّهابِ، لَيْلاً، إلى حَقْلِ آلقُطْنِ لِتَجْمَعَ جَوْزَه آلأخْضَرَ آلَّذي لَمْ يَتَفَتَّحَ بَعْدُ، وَتُمْعِنُ في آقْتِلاعِ نَباتِ العَجّور وَشُجَيْراتِ آلباذِنْجان، وَتُمْعِنُ في تَسَلُّق السُّطوحِ لِتَهْدِمَ أعْشاشَ آلعصافيرِ وَتَكْسِرَ بَيْضَها. وَيَصِلُ بِكَ آلأمْرُ إلى مُغافَلَةِ حارِسِ آلحَيِّ، النّائِمِ دائِماً، لِتَسْرِقَ مُسَدَّسَهُ آلميريَّ، أنْتَ وَجَمْعٌ من رِفاقِكَ، ثُمَّ تَحْتارونَ فَتُلْقونَهُ في نَهْرِ جغجغ. يَذْهَبُ آلحارِسُ إلى السِّجْنِ ثلاثَةَ أشْهُرٍ، بَيْنَما تَضْحَكُ مِنَ الأمْرِ وَتَتَنَدَّرُ بِهِ. أمّا والِدُكَ فَيَغْرَقُ في لُعْبَةٍ جديدةٍ، هي الصَّيْدُ. إنَّه يُطْلِقُ طَلْقَةَ ١٢ ملّم على عُصْفورٍ واحِدٍ فَيَتَمَزَّقُ آلعُصْفورُ تَماماً. تُدْرِكُ أنَّ هذا لَيْسَ صَيْداً، فَتَبْدَأُ صَيْدَكَ أنْتَ، وَسْطَ الطُّفولَةِ آلَّتي لَمْ تَبْقَ طُفولَةً. تَنْصُبُ آلفِخاخَ هُنا وَهُناك، فَتَصْطادُ آلعصافيرَ والزَّرازيرَ والتّيتي، وَكُلَّما تَمَكَّنْتَ مِنْ طَيْرٍ نَزَعْتَ عَنْه ريشَهُ، وَدَفَنْتَهُ حَيّاً. لكنَّكَ كُنْتَ تُجَنُّ شَوْقاً إلى الظَّفَرِ بِهَزّازِ الذَّيْلِ، آلَّذي لَمْ تَتَمَكَّنْ مِنْه قَطُّ، فَهُوَ

ماكِرٌ جِدّاً، لا يَهْدَأُ في مَكانٍ: إنَّهُ التَّحدّي حَقّاً، التَّحدّي ٱلَّذي يَجْعَلُكَ حانِقاً إلى دَرَجَةٍ لا تُطاقُ، وَتُقْسِمُ أنْ تَسْلُقَهُ حيّاً إذا أمْسَكْتَ بِهِ.

أنْتَ طِفْلٌ بلا طُفولَةٍ، وٱلبِدايَةُ تَضيقُ، وَمَعَ ٱلبِدايَةِ تَأْتي الثُّلوجُ، ثُلوجُ السَّنَةِ ذاتِها ٱلَّتي رَفَعْتَ فيها ذراعَيْكَ تَحِيَّةً عنيفَةً لِمَجيءِ الرَّئيسِ. وَطَوالَ خَمْسَةِ أيّامٍ كُنْتَ تَتَسَلَّقُ سُطوحَ ٱلجيرانِ لِتَسُدَّ مداخِنَ بُيوتِهِم بالثُّلوجِ. كانوا يُطارِدُونَكَ أحْياناً وَكُنْتَ ماهِراً في النَّجاةِ، تَماماً مِثْلَ مهارَتِكَ في صُنْعِ مُثَلَّجاتِكَ ٱلخاصَّةِ، ٱلَّتي هِيَ مزيجٌ مِنَ الثَّلْجِ وَدِبْسِ ٱلعِنَبِ.

أنْتَ تُحِبُّ الثَّلْجَ، تُحِبُّ هذا ٱللَّوْنَ الطّاغيَ ٱلَّذي يَسْطو على ٱلألْوانِ كُلِّها، تُحِبُّ ٱمْتِدادَهُ وَٱمْتِدادَ خُطاكَ فيه، لكنَّهُ يُعَقِّدُ ٱلأمورَ قَليلاً، لأنَّكَ حينَ تَدْخُلُ ٱلبَيْتَ وَقَدِ ٱمْتَلأَ حِذاؤُكَ بالثَّلْجِ، وٱبْتَلَّ جَوْرَبُكَ، تُغافِلُ أُمَّكَ لِتَضَعَ ٱلجَوْرَبَ على ٱلمِدْفَأَةِ تَماماً، ولا تَمْضي دقائِقُ إلّا وَيَحْتَرِقُ. وَهُنا، أيْضاً، تَهْرُبُ مِنَ ٱلبَيْتِ خَوْفَ ٱلقِصاصِ. تَهْرُبُ إلى الثَّلْجِ ٱلبارِدِ وَتَرْتَجِفُ وَتَرْتَجِفُ وَتَرْتَجِفُ، حتّى يَغْدوَ لَوْنُكَ أزْرَقَ مُحْتَقِناً. تَشْتُمُ الثَّلْجَ وَتُحِبُّهُ. تَشْتُمُ ٱلبَيْتَ ولا تُحِبُّهُ. تَضْرِبُ

أُخْوَتَكَ لأنَّهُم يُفْسِدونَ السَّطْحَ الأمْلَسَ لِلثَّلْجِ في باحَةِ ٱلبَيْتِ وَهُمْ يَعْبَثونَ. وأخيراً، تَنْطوي في زاوِيَةٍ ما، حَزيناً جِدّاً، وحينَ لا تَعْرِفُ كَيْفَ تُحَدِّدُ سَبَباً لِحُزْنِكَ تعودُ إلى ٱلبَيْتِ مُسْتَسْلِماً، فَتَتَلَقَّفُكَ ٱلأيْدي، وَيسيلُ مِنْ أنْفِكَ الدَّمُ، أنتَ الطِّفْل.

تَهْدَأُ قليلاً وَقَدِ ٱحْمَرَّتْ عَيْناكَ. تُفَكِّرُ في فِعْلٍ ما، فِعْلٍ صاخِبٍ أوْ مُدَمِّرٍ. تَقْتَرِبُ مِنَ المِدْفَأةِ لِتَفْتَحَ مَسيلَ ٱلمازوتِ على آخِرِهِ، وَتَضُجُّ ٱلمِدْفَأَةُ وَتَحْمَرُّ كَرَأْسِ لُفافَةِ والِدِكَ. وَهُنا تَتَمَنّى أنْ يَزْدادَ ٱلوَهْجُ، أنْ تَنْفَجِرَ ٱلمِدْفَأَةُ وَتُحْرِقَ ٱلبَيْتَ، لكنْ لا شَيْءَ يَحْصُلُ، بَلْ تَتَفَجَّرُ أنْتَ، تَتَفَجَّرُ طُفولَتُكَ طيناً وَطُيوراً عارِيَةً مَيْتَةً. تَتَفَجَّرُ طفولَتُكَ خُطّافاتٍ حديديَّةً وسكاكينَ، وَجِراراً مَكْسورَةً، وثِياباً مُلَوَّثَةً بالدَّمِ، وفِخاخاً، وبنادِقَ صَيْدٍ، وَبَطّيخاً أحْمَرَ مُهَشَّماً على ٱلأرْصِفَة.

فاصل ثان

في ارتطام الجهات

ها نَحْنُ، في قِنْبازاتِنا الصَّغيرةِ، مُتَحَلِّقونَ حَوْلَ ديكَيْنِ رُومِيَّيْنِ. أتَعْرِفونَ الدّيكَ الرُّوميَّ، الدّيكَ ٱلَّذي يَفْرُدُ ذَيْلَهُ كَمِرْوَحَةٍ كَبيرةٍ وَتَتَدَلّى زَوائِدُهُ ٱللَّحْمِيَّةُ مِنْ فَوْقِ مِنْقارِهِ وَمِنْ تَحْتِهِ؟ أتَعْرِفونَ أميرَ الدِّيَكَةِ، ٱلأميرَ الضَّخْمَ، ٱلَّذي تَبيضُ أُنثاهُ بَيْضَةً في حَجْمِ ثلاثَةِ بَيْضاتٍ مِنْ بَيْضِ الدَّجاجِ؟ أتَعْرِفونَ بَيْضَةَ الدَّجاجَةِ الرّوميَّةِ، البَيْضَةَ ٱلمُرَقَّطَةَ ٱلَّتي تَكْفي واحِدَةٌ مِنْها وَجْبَةً لطفلٍ مِثْلي؟... ما أحْلى الدّيكَ الرّوميَّ وأُنثاهُ، ما أحْلى هذا ٱلعِراكَ الصَّعْبَ بَيْنَ ديكَيْنِ روميَّيْنِ.

ها نَحْنُ نَسْمَعُ خَبْطَةَ ٱلأجْنِحَةِ وَخَبْطَةَ ٱلمَناقيرِ. نَسْمَعُ الصَّوْتَ ٱلمُتَوَهِّجَ لِذَكَرَيْنِ مُمْتَلِئَيْنِ ذُكورَةً، يَعْرِفُ أحَدُهُما أنَّ ٱلغَلَبَةَ صِنْوُ ٱلآنْكِسارِ، لكنَّ الصِّراعَ يَجْعَلُ ٱللُّعْبَةَ أكْثَرَ مِنْ لُعْبَةٍ، بَلْ يَجْعَلُها تَوْأَمَ حياةٍ لا تَسْتَوي إلّا بٱللُّعْبَةِ. لذلِكَ تَشْتَدُّ خَبْطَةُ ٱلأجْنِحَةِ، وَيَشْتَدُّ ٱحْمِرارُ

آللَّحْمِ، تَشْتَدُّ الآنْتِفاخاتُ والْهواجِسُ، وَيَعْلو صُراخُنا.

يَقْتَرِبُ الدّيكُ مِنَ آلآخَرِ وَيَعْلوهُ قَبْلَ أنْ يَنْقُرَهُ على الرَّأْسِ. يَتَطايَرُ الرّيشُ، وَتَتَطايَرُ آلعُيونُ. نَقْرَةٌ مِنْ هذا وَنَقْرَةٌ مِنْ ذاك. الذَّيْلُ مَفْرودٌ على آخِرِهِ، وَآلأجْنِحَةُ تُلامِسُ آلأرْضَ كأيْدي آلمُصارِعينَ قَبْلَ آلالْتِحامِ. وَنَصْرُخُ هيّا أيُّها الدّيك... هيّا يا آبْنَ آلكَلْب.

يَبْتَعِدُ الدّيكانِ كأنَّهُما يَتَمَهَّلانِ لآنْقِضاضٍ أخيرٍ. وَنَتَرَقَّبُ: هيّا يا آبْنَ آلكَلْبِ. وَحينَ يَهْدآنِ قَليلاً، نَدْفَعُ أحَدَهُما في آتِّجاهِ آلآخَرِ، بَلْ نَجُرُّهُ جَرّاً، فَيَبْدَأُ آلعِراكُ مِنْ جَديد.

وَهُنا، وَقَبْلَ أنْ يَسْقُطَ أحَدُ آلخَصْمَيْنِ، تَرْكُضُ أُمُّنا صارِخَةً: «يا زَبانِيَة... أنْتُم وُحوش». وَنَرْكُضُ مِنْ ساحَةِ الدّارِ قَبْلَ أنْ ينالَنا حَجَرٌ أو ضَرْبَةُ عَصا.

نَعَمْ يا صاحِبي، كُنّا صِغاراً آنَذاكَ، صِغاراً يَلْهونَ بِصِراعِ الدِّيَكَةِ، أو يَسْحَبونَ آلبَيْضَ مِنْ تَحْتِ الدَّجاجاتِ قَبْلَ أنْ يَفْقُسَ آلبَيْضُ. ويا ما كَسَرْنا آلبَيْضَ فَوَجَدْنا فيهِ الصّيصانَ آلعارِيَةَ، الصّيصانَ الدَّبِقَةَ آلمُبْتَلَّةَ آلَّتي لَمْ تَكْتَمِلْ، ويا ما وَجَدْنا صَفاراً مُغَطّىً بالدَّمِ، أوْ عَلَقاتٍ شَبيهةً بِصِغارِ الضَّفادِع.

نَحْنُ نُحِبُّ آلأشْياءَ قَبْلَ أنْ تَكْتَمِلَ، نُحِبُّ صِراعَ الدِّيَكَةِ حينَ لا يكونُ فيها غَلَبَةٌ لِدِيكٍ، وَنُحِبُّ آلبَيْضَ آلَّذي لَمْ تَكْتَمِلْ فيهِ آلأجِنَّةُ. نُحِبُّ آلمناقِيرَ آلقوِيَّةَ، وَصَخَبَ الرّيشِ. هكذا نَحْنُ يا صاحبي، وهكذا هي حياتُنا. لَمْ نَكُنْ نَحْنُ سَبَباً في صِراعِ آلحَيَواناتِ. إنَّها مُنْدَفِعَةٌ إلى ذلكَ بِغَريزَتِها. لكِنَّنا كُنّا نَزيدُ آلأمْرَ إثارَةً حينَ نَجْعَلُ الصِّراعَ صِراعاً لا بُدَّ مِنْهُ... أتَعْرِفُ كَيْفَ يا صاحِبي؟ سأقولُ لكَ إنّنا كُنّا نَدْفَعُ آلأكْباشَ بَعْضَها صَوْبَ بَعْضٍ نُمْسِكُها مِنْ قُرونِها، وَلَمْ يَكُنِ آلأمرُ يَحْتاجُ إلى جُهْدٍ كبيرٍ. يَكْفينا أنْ نُقَرِّبَ كَبْشاً مِنْ كَبْشٍ فَيَبْدَأُ آلعِراك. وعِراكُ آلأكْباشِ لا يُشْبِهُ عِراكَ الدِّيَكَةِ الرّوميَّةِ. إنَّها عنيفَةٌ، تَرْتَفِعُ وَتَتَصادَمُ في آلهواءِ فَيَنْتَفِضُ بَيْنَ أصْوافِها آلغُبارُ آلحنون.

تَتَشابَكُ آلقُرونُ فَتَهْدَأُ، كأنَّها لَنْ تَتَعارَكَ بَعْدَ ذلِكَ، لكِنَّها تَنْقَضُّ حينَ تُفْلِتُ قُرونَها. الجبينُ على آلجَبينِ، وَصَوْتُ النَّطْحِ كَصَوْتِ الطَّبْل.

تَتَراجَعُ قَليلاً ثُمَّ تَنْقَضُّ ثانِيَةً. تَتَراجَعُ وَتَنْقَضُّ. يَسْقُطُ كَبْشٌ على آلأرْضِ ثُمَّ يَنْهَضُ، يَسْقُطُ ثانِيَةً ثُمَّ يَنْهَضُ لِيَهْرُبَ

بَعيداً. وَلَقَدْ رَأَيْنا أَكْباشاً هارِبَةً مَكْسورَةَ ٱلقُرونِ، تَظَلُّ تَعْوي كَٱلكِلابِ أَيّاماً حتّى يَلْتَئِمَ جُرْحُها.

عادَةً، يَحْتَفِظُ ٱلأَهْلونَ بِكَبْشٍ واحِدٍ، كَبْشٍ مُنْتَصِرٍ يَظَلُّ يَحومُ حَوْلَ نِسائِهِ. وَٱلمُنْتَصِرُ مُدَلَّلٌ، يَضَعونَ على صَدْرِهِ مادَّةً مُلَوَّنَةً لِيَعْرِفوا كَمْ مِنَ ٱلإناثِ مَرَرْنَ مِنْ تَحْتِهِ، وَيُطَوِّقونَ عُنُقَهُ بِجَرَسٍ وَبِبَعْضِ ٱلخَرَزِ: إِنَّهُ يَقْتَرِبُ مِنَ النِّعاجِ وَيَعْلوها في حَرَكَةٍ غريبَةٍ. تَرْكُضُ النَّعْجَةُ أَوَّلَ ٱلأَمْرِ ثُمَّ تَسْتَسْلِمُ في هُدوءٍ لا يُعَكِّرُهُ إِلّا لُهاثُ ٱلكَبْشِ وَحَرَكَةُ أَلْيَتِهِ ٱلَّتي تَتَمايَلُ يَميناً وَيَساراً. نَصْرُخُ: هيّا... هيّا يا ٱبْنَ ٱلكَلْبِ، وَيَنْظُرُ واحِدُنا إِلى ٱلآخَرِ في خُبْثٍ واضِحٍ.

كُلُّ ٱلحَيَواناتِ كِلابٌ، أو شَبيهَةٌ بِٱلكِلابِ: الدَّجاجُ والنِّعاجُ وَٱلعَصافيرُ، هكذا نَفْهَمُها نَحْنُ الصِّغارَ، وهكذا نَشْتُمُها. بَيْدَ أَنّي كُنْتُ مُعْجَباً بِبَغْلَيْ باقي كازمو. وباقي كازمو، سائِسُ عَرَبَةٍ، وَعَرَبَتُهُ، (ٱلحَنْطورُ)، تَنْقُلُ الرُّكّابَ مِنْ أَوَّلِ مَدينةِ ٱلقامِشْلي إلى آخِرِها.

كانَ باقي كازمو يَضَعُ سِياجاً صَغيراً مِنَ ٱلأَسْلاكِ الشّائِكَةِ وَراءَ عَرَبَتِهِ، حتّى لا نَجْلِسَ على ٱلعارِضَةِ ٱلَّتي تَصِلُ ما بَيْنَ

ٱلعَجَلَتَيْنِ ٱلخَلْفِيَّتَيْن. وكانَ مِنْ عادَتِنا أنْ نَجْلِسَ على ٱلعارِضَةِ تِلْكَ، كَيْ نَخْتَصِرَ ٱلمَسافاتِ، وكانَ هذا دَأْبَنا مَعَ كُلِّ عَرَبَةٍ مِنْ عَرَباتِ نَقْلِ الرُّكّابِ. لكنَّ بَعْضَ ٱلأشْقياءِ مِنّا، حينَ لا يَقْدِرُ على الرَّكْضِ وراءَ ٱلعَرَبَةِ، يَصْرُخُ: «سوط... سوط...»، وَتِلْكَ إشارَةٌ يَفْهَمُها ٱلحُوذِيّونَ، وَيَفْهَمُها باقي كازمو، ٱلَّذي يُلْهِبُ بِسَوْطِهِ بَغْلَيهِ لِيَرْكُضا، ثُمَّ يَلْتَفِتُ إلى ٱلوَراءِ وَيَصْرُخُ: «خُذوا»، فَيَلْتَهِبُ ظَهْرُنا مِنْ ضَرْبَةِ سَوْطِهِ، فَنُلْقي بأنْفُسِنا على الرَّصيفِ وَنَتَدَحْرَجُ. وَكُنّا نَتَمَنّى أنْ نَسْلَخَ بَغْلَيْهِ ذاتَ يَوْمٍ. لكِنَّني كُنْتُ مُعْجَباً بِهِما، مُعْجَباً بناصِيَتَيْهِما ٱللَّتَيْنِ يَتَدَلّى عَلَيْهِما ٱلخَرَزُ والشَّناشيل.

وٱلحَقَّ أقولُ يا صاحبي، كانَ في وُسْعِنا أنْ نَسْلَخَ ٱلحَيواناتِ. أتَعْرِفُ كَيْفَ نَسْلَخُ ٱلحيواناتِ ٱلمَيْتَةَ؟ دَعْني أُخْبِرْكَ ما لا تَعْرِفُهُ مِنْ أمْرِ ذلكَ:

كانَ أطْفالُ حارَتِنا فُقَراءَ. كانوا فُقَراءَ حتّى ٱلعَظْمِ، يَأْكُلُ بَعْضُهُم طينَ ٱلجُدْرانِ، وكانوا إذا أكْثَروا مِنْ تناوُلِ الطّينِ يأخُذونَهُم إلى أطِبّاءِ ٱلمَدينَةِ، فَيَقولُ ٱلأطِبّاءُ إنَّها عادَةٌ خبيثَةٌ، (لا أقولُ ذلكَ مِنْ قَبيلِ ٱلمُبالَغَةِ، آسْألوا ٱلأطِبّاءَ عن آكِلي

الطِّينِ)، وكانَ هؤلاءِ ٱلأطْفالُ مُستَعِدّينَ لِفِعْلِ أيِّ شَيْءٍ مِنْ أجْلِ كَسْبِ مَصْروفٍ صَغير.

... وعادَةً، حينَ يُصْبِحُ ٱلبَيْطَرِيّونَ أطِبّاءَ لِلْبَشَرِ، تَزْدادُ ٱلحَيَواناتُ النّافِقَةُ، (وٱلبَشَرُ النّافِقونَ). وكانَ ثَمَّتَ وادٍ قريبٌ مِنَ ٱلمَدينةِ، يَرْمي فيهِ النّاسُ حَيَواناتِهِمُ ٱلمَيْتَةَ، وَحَيْثُ تَكونُ ٱلحَيَواناتُ ٱلمَيْتَةُ يكونُ ٱلأطْفال.

هُناك كانَتْ سكاكينُ ٱلمَطابِخِ ٱلمَسْروقَةُ تَفْعَلُ فِعْلَها، فَتَسْلَخُ ٱلجُلودَ عَنِ ٱللُّحومِ النَّتِنَةِ، لكنَّ رائِحَةَ ٱلكَسْبِ كانَتْ أقْوى مِنْ كُلِّ رائِحَةٍ... وهكذا يَخْرُجُ طِفْلٌ، أوْ طِفْلانِ، بِغَنيمةٍ دَسِمَةٍ، حَيْثُ تُساوِي جَزَّةٌ مِنَ الصّوفِ ليرةً أو ليرتَيْن. نَعَمْ يا صاحِبي، الجَزَّةُ تُساوي ليرتَيْنِ، وٱللّيرَتانِ تُساوِيانِ دُخولَ ٱلمَسْبَحِ الشَّعْبيِّ أوِ السّينما أرْبَعَ مرّات.

كُنّا أطْفالاً نَهْتَمُّ بٱلمَوْتى، وَنَعيشُ بٱلمَوْتى. هذا دَأْبُنا. لكنَّنا نَعيشُ بأشياءَ أُخرى غَيْرِ ٱلخُبْز.

إنَّنا نَعيشُ مِنَ التَّهْريبِ أيْضاً... أتَعْرِفُ كَيْفَ يعيشُ ٱلأطفالُ مِنَ التَّهْريبِ؟ تلك مَسْأَلَةٌ مُعَقَّدَةٌ، لكنْ دَعْني أُفَسِّرْها لَكَ:

مَدينَتُنا على تُخومِ تُرْكيا. بَيْنَنا وَبَيْنَها خَطٌّ مَديدٌ مِنَ

آلأسْلاكِ الشّائِكَةِ، لكِنَّهُ لا يَثْنينا عَنْ عَزْمِنا على دُخولِ بلادٍ لا نَعْرِفُها... وَنَدْخُلُ تُرْكيا عَبْرَ دَغْلٍ صَغيرٍ من أشْجارِ آلكينا وَآلعُلَّيْق. يَقولُ لَنا دَليلُنا الصَّغيرُ مِثْلَنا، (١٢ سنة)، إنَّه يَعْرِفُ مَكانَ آلألْغامِ، وآلأتْراكُ لا يَعْرِفونَ كَيْفَ يَنْصُبونَها جيّداً. ويَقولُ دَليلُنا الصَّغيرُ: إذا وَطِئْتُمْ مَكاناً لَيّناً، وَسَمِعْتُمْ صَوْتَ طَرْطَقَةٍ ضَعيفةٍ فَهُناكَ لُغْمٌ. وإذا وَطِئْتُمْ لُغْماً فلا تَتَحَرَّكوا قَطُّ، وأنا كفيلٌ بآلباقي... وَنَدْخُلُ ماردينَ، مَدينةَ الزَّبيبِ وَمُشْتَقّاتِ آلعِنَبِ. نُبادِلُ النّاسَ هُناكَ التَّمْرَ بالتَّبْغِ. (لا نَخْلَ في تُرْكيا، وَكيلو التَّمْرِ يُساوي خَمْسَ عُلَبٍ مِنَ التَّبْغِ آلفاخِرِ). ونَبيعُ التَّبْغَ، حينَ نَعودُ، إلى آلبقّالينَ بِسِعْرٍ بَخْس.

كُنّا أطْفالاً يا صاحبي، لا نَعْرِفُ أنَّ مَمَرّاتِ آلأدْغالِ هيَ مَمَرّاتٌ تَصِلُ بِلاداً بِبِلادٍ، بَلْ كُنّا نَشْعُرُ أنَّ آلأرْضَ مُسْتَوِيَةٌ تَماماً، وأنَّ آلحُدودَ آلَّتي يَرْسُمُها آلكِبارُ هيَ حُدودُ آلكِبارِ وَحْدَهُم. لذلِكَ، نَصَبْنا فِخاخَنا تَحْتَ آلأسْلاكِ الشّائِكَةِ، تَحْديداً، حَيْثُ تَحُطُّ آليَماماتُ آلبَرِّيَّةُ بِحُرِّيَّةٍ لَمْ نَعْتَدْها في بِلادِنا. وَكُنّا إذا حَظينا بِيَمامَةٍ رَكَضْنا إلَيْها بِفَرَحٍ وَبِرُعْبٍ، خِشْيَةَ أنْ يُطْلِقَ آلجُنودُ آلأتْراكُ النّارَ عَلَيْنا. (لا تَمُرُّ لَيْلَةٌ إلّا نَسْمَعُ فيها طَلَقاتِ

ناريَّةً مُصَوَّبَةً على آلمُهَرِّبينَ)، لكنَّ تُرْكيا قَريبةٌ جِدّاً، قَريبَةٌ إلى دَرَجَةِ آلمُصاهَرَةِ، وما زِلْنا نُحِبُّ الآسِتانة، (يُحِبُّها آباؤنا)، ولا نُحِبُّ أتاتوركَ، بِرَغْمِ أننا نُرَدِّدُ في عَفْوِيَّةٍ عَنْ واحِدٍ من سُلالَتِهِ:

«يـا شـا يـا شـاشـا جَمـال غـورسيـل بـاشـا»

في هذهِ آلأثْناءِ، في أثْناءِ آلأعْوامِ الطَّرِيَّةِ جِدّاً كَفَخْذِ آلبَقَرَةِ، كُنّا نَهْتَمُّ بأشْياءَ أُخْرى، وَنَنْتَظِرُها بِفَرَحٍ لا يُوصَفُ: أَحَدُها مَوْسِمُ آلحَصادِ، والثّاني مَوْسِمُ سَلْقِ آلقَمْحِ لِجَرْشِهِ، وَجَعْلِهِ بُرْغُلاً. كانَتْ هاتانِ مُناسَبَتَين طَرِيَّتَينِ كأعْمارِنا. في آلحَصادِ نَنْتَظِرُ أنْ تَتَهَيَّأَ آلحَصّاداتُ الضَّخْمَةُ ذواتُ آلمَراوِحِ آلخَشَبِيَّةِ وأمْشاطِ آلحَديد. وكانَ يَلْزَمُها ـ مِنْ أجْلِ أنْ تَتَهَيَّأَ ـ وَقْتٌ مِنَ الصِّيانَةِ مَلِيءٌ بآلمَرَحِ: يُغَيِّرونَ آلأمْشاطَ آلحَديدَ، يَفُكّونَ آلمَراوِحَ قِطْعَةً قِطْعَةً، وكذلكَ الدَّرّاساتُ آلَّتي تَفْصِلُ آلقَمْحَ عَنِ التِّبْنِ، (كُلُّ ذلِكَ يَتِمُّ في آلخَلاءِ، حَيْثُ تُنْصَبُ خَيْمَةٌ كَبيرةٌ، وَيَجْتَمِعُ عَدَدٌ هائِلٌ مِنَ آلعامِلينَ).

كانَتِ آلآلاتُ الصَّغيرةُ تَسْتَهْوينا: المَطارِقُ وَمِفَكّاتُ آلبراغي. الكمّاشاتُ وآلأمْشاطُ آلحديدُ الصَّغيرةُ. كُنّا نَسْرِقُها أحْياناً، وَنُوهِمُ أنْفُسَنا أنّنا نُعيدُ صِياغَةَ آلعالَمِ على حيطانِ آللِّبْنِ.

نَقْشُرُ ٱلحيطانَ بٱلآلاتِ، نَقْشُرُ مِساحاتٍ كَبيرةً فَتَبْدو قَوالِبُ الطّينِ مِنْ تَحْتِها مُتَراصَّةً في صَلابَةٍ. نُخَبِّىءُ ٱلآلاتِ في حُفَرِ تَحْتَ ٱلأَرْضِ، وَنُغَطّيها بالتُّرابِ، ثُمَّ نَقْتَرِبُ مَرَّةً ثانِيَةً مِنْ عُمّالِ الصِّيانَةِ. نُغافِلُهُم لِنَضَعَ أيدَينا في الزُّيوتِ والشُّحومِ. نَفْرُكُ أيدَينا بَعْضَها بِبَعْضٍ، فَيَنْتابُنا شُعورُ عُمّالٍ حَقيقيّين.

وَلِلْحَصادِ، بَعْدَ ذلِكَ، نَكْهَةٌ خاصَّةٌ: الحصّاداتُ تُعَرّي ٱلأرْضَ مِنْ ذلكَ النَّباتِ الذَّهبيِّ ٱلهَشِّ، تماماً كَما نَتَعَرّى مِنْ قِنْبازاتنا قَبْلَ ٱلٱنْزلاقة إلى التُّرَع. وٱلحَصّادتُ أشْبَهُ بغيلانٍ أليفةٍ، نَرْكُضُ مِنْ وَرائِها حَيْثُ يَتَناثَرُ ٱلقَشُّ عالِياً بَفِعْلِ ٱلمَراوِحِ، بَعْدَ أنْ تَنْفَصِلَ ٱلحِنْطَةُ عَنْ سَنابِلِها. نَرْكُضُ وَراءَها لِتَلُفَّنا زَوابعُ ٱلقَشِّ. نُبَعْثِرُهُ وَنَتَخَبَّطُ فيهِ فَتَمْتَلِىءُ ذُؤاباتُنا وثِيابُنا بٱلقُشور.

وٱلكبارُ يَرْكُضونَ أيْضاً وَراءَ ٱلحَصّاداتِ. الرِّجالُ والنِّساءُ. إنَّهُم يَجْمَعونَ ٱلقَشَّ في حُزَمٍ كَبيرةٍ وَيَنْقُلونَها على ظُهورِ ٱلحميرِ، لِتُصْبِحَ عَلَفاً في ما بَعْدُ، أو لِتَمْتَزِج بالتُّرابِ ٱلأحْمَرِ ٱلَّذي يَصْنَعونَ مِنْهُ لَبناتِ ٱلبناء... كُلُّ شَيْءٍ، هُنا، مِنْ طينٍ يا صاحِبي، الأرْضُ طينٌ وٱلبُيوتُ طينٌ، وكذلكَ الطُّرُقُ. وَحَيْثُ يَكونُ الطّينُ يَكونُ ٱلقَشُّ. وَنَعْتَقِدُ، بَعْدَ ذلكَ، أنَّنا

وُلِدْنا مِنَ ٱلقَشِّ، وأنَّنا سَنَصيرُ إلى قَشٍّ، وَأنَّ حُدودَ ٱلأرْضِ هيَ حُدودُ الرِّياحِ ٱلَّتي سَتَحْمِلُنا مَعَها. أمّا مَوْسِمُ سَلْقِ ٱلحِنْطَةِ فَهُوَ ٱلمِهْرَجانُ. إنَّنا نَشْتَري الصَّناديقَ ٱلخَشَبَ ٱلفارِغَةَ، وكذلكَ ٱلإطاراتِ ٱلمَطّاطيَّةَ. نَضَعُ الدَّسْتَ ٱلكبيرَ على حِجارَةٍ ضَخْمَةٍ وَنُشْعِلُ النّارَ. تَغْلي ٱلمياهُ رُوَيْداً رُوَيْداً طُولَ النَّهارِ. تَنْتَفِخُ ٱلحُبوبُ وَتَلينُ. تَنْتَفِخُ وَتَنْفَجِرُ مِنْ شِدَّةِ سَلْقِها. حِينَئِذٍ تَنْبَسِطُ ٱلحُصُرُ على السُّطوحِ، وَتَعْلو الدِّلاءُ مُمْتَلِئَةً وَتَهْبِطُ فارِغَةً. تَعْلو وَتَهْبِطُ، وَيَنْبَسِطُ السَّليقُ ٱلأصْفَرُ دَلْواً إلى جانِبِ دَلْوٍ.

أطْفالُ ٱلحارَةِ كُلُّهُم يَجْتَمِعونَ قُرْبَ الدَّسْتِ الضَّخْمِ، كُلٌّ يَحْمِلُ طاسَةً أو صَحْناً. يَنْتَظِرونَ مِنَ الصَّباحِ. يَذْهَبُ ٱلبَعْضُ ويَأْتي ٱلبَعْضُ ٱلآخَرُ، في مُناوَبَةٍ طَويلةٍ، كأنَّما يَخْشَوْنَ فَواتَ ٱلأوانِ. وَحينَ يَتِمُّ السَّلْقُ، يأخُذونَ حِصَصَهُمُ الصَّغيرةَ. يَرُشّونَ على ٱلحِنْطَةِ قَليلاً مِنَ السُّكَّرِ، أوْ يَمْزِجونَها بالسَّمْنِ وٱلمِلْحِ، ويأكُلونَها في شَهِيَّةٍ حَقيقيَّةٍ.

تِلْكَ مَأْدُبَتُنا الصَّغيرةُ يا صاحبي، لكِنَّ ٱلمَأْدُبَةَ ٱلكبيرَةَ، مَأْدُبَةَ الدَّمِ ٱلَّذي يُغَطّي باحاتِ ٱلبيوتِ، فَلَها مَوْسِمُها أيْضاً.

في آخِرِ الصَّيْفِ، وَبَعْدَ ثاني دُفْعَةٍ مِنَ ٱلمَطَرِ ٱلَّذي يَتَساقَطُ

أحْمَرَ كالطّينِ، تَبْدَأُ آلمَجْزَرَةُ، إذْ يَبْدَأُ آلجَزّارونَ بِشَحْذِ بَساطيرِهِم وسكاكينِهِم، فَتَتَساقَطُ آلحَيَواناتُ الصَّغيرَةُ وآلكبيرةُ، فَوْجاً فَوْجاً، وَيَكْثُرُ آللَّحْمُ والثَّريد.

كُلُّ بَيْتٍ يُهَيِّيءُ خِرافَهُ أوْ أبْقارَهُ للذَّبْحِ. على مَدى أشْهُرٍ يَتِمُّ تَعْليفُها حتّى تَمْتَلِىءَ أجْسامُها، لِتصيرَ مَؤونَةَ خريفٍ وَشِتاءٍ كامِلَيْنِ.

وَكُلُّ بَيْتٍ يَتعاقَدُ مَعَ جَزّارٍ، وَآلجَزّارُ لا ينالُ أجْراً نَقْديّاً، بَلْ يَسْتَأْثِرُ لِنَفْسِهِ بِجِلْدِ الضَّحيَّةِ وأمْعائِها: هذا هُوَ بَدَلُ أتْعابِهِ.

كُنّا صِغاراً يا صَاحبي، نَتَحَلَّقُ حَوْلَ هذا الرَّجُلِ آلجَلِفِ، الرَّجُلِ الصّامِتِ آلَّذي يَلْوي عُنُقَ آلبَقَرَةِ مِنْ قُرونِها حتّى تَسْقُطَ أرْضاً، ثُمَّ تَتَحَرَّكُ يَدُهُ حَرَكَةً خفيفَةً جِدّاً، حَرَكَةً حَذِقَةً، وَيَنْفِرُ الدَّمُ عالياً، يَنْفِرُ في خَيْطٍ رَفيعٍ وقَوِيٍّ. وحينَ تَتَّسِعُ مَسافَةُ آلجُرْحِ بَيْنَ الرّأسِ وآلجِذْعِ تَبْدَأُ آلينابيعُ آلحَمْراءُ السّاخِنَةُ آنْدِفاعاتِها، وَتَسيلُ على التُّرابِ فاتِحَةً فيهِ أخاديدَ ضَيِّقَةً، أو تَفيضُ فَتَتْرُكُ على آلأرْضِ بِرْكَةً يَعْلوها بُخارٌ خَفيف.

جَميلٌ هُوَ دَمُ آلحَيَوانِ، قُرْمُزِيٌّ أو قانٍ وَلَهُ رَائِحَةٌ تَجْذُبُ آلقِطَطَ وَآلكِلابَ فَتَلِغُ فيهِ. وَحينَ يُهيلونَ التُّرابَ على الدَّمِ،

يَسْتَلُّ ٱلجزّارُ مِدْيَةً صَغيرَةً حادَّةً كَشَفْرَةِ ٱلحِلاقَةِ. يَنْسَلِتُ ٱلجِلْدُ عَنِ ٱللَّحْمِ كالثَّوْبِ، في تُؤَدَةٍ وَهُدوءٍ. وٱلجَزّارُ حاذِقٌ في فِعْلِ ذلكَ. وَقَدْ يَعْمِدُ إلى وَضْعِ يَدِهِ بَيْنَ ٱلجِلْدِ وَٱللَّحْمِ، بَعْدَ أنْ يَضَعَ ٱلمِدْيَةَ ٱلمُدَمّاةَ في فَمِهِ، وفي ضَرَباتٍ خَفيفَةٍ يَنْحَسِرُ ٱلجِلْدُ، يَنْحَسِرُ في صَوْتٍ أشْبَهَ بِنَزْعِ ٱللَّصقاتِ الصَّمْغيَّةِ عَنْ ظَهْرِ والدي. وَهَكذا، قِطْعَةً قِطْعَةً، تأخُذُ ٱللُّحومُ طَريقَها إلى حَيْثُ يَنْبَغي أنْ تَكونَ: تُجَفَّفُ ٱلأضْلاعُ على حِبالِ ٱلغَسيلِ. يُقَدَّدُ ٱللَّحْمُ ٱلأحْمَرُ، وَتُذابُ الشُّحومُ. ثُمَّ تُوضَعُ كُلُّها في الصَّفائِحِ. يَسْتَهْلِكُ ٱلأهْلُ مُحْتَوياتِ بَعْضِها، وَيَخْتُمونَ ٱلبَعْضَ ٱلآخَرَ بٱلقَصْديرِ لأيّامِ الشِّتاء.

وفي هذا ٱلمَوْسِمِ، حَيْثُ تَتَراكَمُ النُّفاياتُ مِنَ ٱلعِظامِ وٱلهَمْلِ في ٱلحُقولِ، تَكْثُرُ ٱلحَدَآتُ الصَّغيرةُ، والضَّخْمَةُ الشَّبيهَةُ بالدِّيكَةِ الرّوميَّةِ. نُراقِبُها مِنْ بَعيدٍ وَنَخْشاها، نُراقِبُها وَهِيَ تَنْقُرُ ٱلغِرْبانَ كُلَّما ٱقْتَرَبَتْ مِنَ ٱلجِيَفِ. وَحَيْثُ نَسْتَثيرُها في حَرَكَةٍ عَصَبِيَّةٍ، تَفْرُدُ أجْنِحَتَها ٱلكَبيرةَ وَتَعْلو في كِبْرِياءٍ مُدْهِشَةٍ. ولأنَّ ٱلحُقولَ قَريبةٌ مِنَ ٱلبُيوتُ، مُتَشابِكَةٌ مَعَها أو مُتَداخِلَةٌ، يَبْدَأُ طَقْسٌ لَيْليٌّ خاصٌّ، طَقْسٌ مِنْ بناتِ آوى. طَقْسٌ

صاحِبٌ يُخيفُنا، نَحْنُ الصِّغارَ، لكنَّهُ يَنْثُرُ على ٱلأرْضِ الصّامِتَةِ الموحِشَةِ رَنيناً مِنَ ٱلحياة.

وٱبنُ آوى لَيْسَ جَباناً قَطُّ كما يُشيعونَ. إنَّهُ شَرِسٌ حَيْثُ يَتَوَجَّبُ أنْ يَكونَ شَرِساً. أتَعْرِفُ يا صاحبي؟ إسْأَلْ حَسَنَ الصُّوفيَّ ٱلَّذي دَهَمَ حَيَواناً مِنْ هذهِ ٱلفصيلَةِ نَهاراً.

كانَ ٱلحَيَوانُ شارِداً، فٱبنُ آوى أميرٌ في ٱللَّيْلِ فَقَطْ. طارَدَهُ حسن بِحِصانِهِ وَبخَيْزُرانَةٍ طويلةٍ. كانَ يَضْرِبُ ٱلحيوانَ الشّارِدَ كُلّما ٱقْتَرَبَ مِنْهُ، فَيَقْفِزُ ٱبْنُ آوى قَفْزَةً تَصِلُ فيها مَخالِبُهُ إلى عَيْنَيِ ٱلحِصانِ. ويَقولُ حَسَن إنَّ عِرَاكَ ٱبْنِ آوى دامَ ساعتَيْنِ، إلى أنْ سَقَطَ مِنَ ٱلإعْياءِ، فَوَطِئَهُ بحوافِرِ حِصانِهِ حتّى ٱلمَوْت. وحَسَنُ الصّوفيُّ، حينَ يَصِفُ شجاعَةَ ٱبنِ آوى، لا يُبالِغُ. أتَسْأَلُني لِماذا؟ لأنَّ حَسَنَ الصّوفيَّ كانَ يُغَطّي وَجْهَهُ بِحَطَّتِهِ وَيَدْهَمُ ـ مُداهَمَةَ ٱلمَوْتِ ٱلأخيرَةَ ـ قُرى ٱبْنِ عبّاس ٱلبدويّ. يُطْلِقُ النّارَ مِنَ ٱلعراءِ ٱلمَكْشوفِ على ٱلبُيوتِ، وعلى ٱلمُخْتَبِئينَ خَلْفَها بِبَنادِقِهِم، ثُمَّ يَنْجو، سائِقاً أمامَهُ قطيعاً مِنَ ٱلغَنَم.

وكانَ حَسَنُ لا يَبْتَعِدُ بٱلقطيعِ طَويلاً، خِشْيَةَ أنْ يَلْحَقَ بِهِ ٱلمُطارِدونَ، بَلْ يُؤْثِرُ أنْ يَتْرُكَ، بَعْدَ كُلِّ فَرْسَخٍ، قِسْماً مِنْهُ. إلّا

أنَّهُ يَحْتَفِظُ، أخيراً، بِنَعْجَتَيْنِ أو ثلاثٍ، وهذا ما يَكْفيه.

... كانَ زَمَنُ نَهْبٍ، يا صاحبي، في أواخِرِ هذا ٱلقَرْنِ.

وفي أواخِرِ هذا ٱلقَرْنِ، أو أقلِّهِ، كُنّا أطْفالاً مَنْذورينَ للنَّهْبِ.

فاصل ثالث

في الـحريق وفي الصَّيْد

كُنّا نَنْقُلُ آلماءَ في صَفيحَةٍ صَدِئَةٍ، راكِضينَ بَيْنَ النَّهْرِ وَجُحْرِ آلخُلْدِ آلأعْمى. نَصُبُّ آلماءَ في فُتْحَةِ آلجُحْرِ وَنَعودُ فَنَمْلأُ الصَّفيحَةَ، وَنَعْرِفُ أنَّنا لَنْ نَنْتَظِرَ طَويلاً.

بَعْدَ حينٍ يَطْفَحُ آلجُحْرُ بآلماءِ. تَعْلو فُقّاعاتٌ صَغيرةٌ، وَرُوَيداً رُوَيْداً يَخْرُجُ آلخُلدُ آلمُبْتَلُّ. وآلخُلْدُ آلأعْمى أعْمى بالطَّبْعِ، لكِنَّ حاسَّةَ الشَّمِّ آلقَوِيَّةَ لَدَيْهِ تُعْطيهِ بَصيرةً لا يَصْطَدِمُ مَعَها بِشَيْءٍ. إلّا أنَّنا نُحيطُ بِهِ أخيراً. نُمْسِكُه مِنْ ذَنَبِهِ وَنَضَعُهُ في الصَّفيحَةِ.

هذهِ هي طريقَتُنا في آلتِقاطِ آلخُلْدِ، وفي آلتِقاطِ يَرابيعِ آلحُقولِ. وَآللُّعْبَةُ لا تَنْتَهي عِنْدَ هذا آلحَدّ.

يَلْهَثُ آلخُلْدُ مَذْعوراً، وَنَبْتَهِجُ لِذُعْرِهِ. نَحْفِرُ حُفْرَةً واسِعَةً وَنَمْلأُها بِماءِ النَّهْرِ، ثُمَّ نُطْلِقُ آلخُلْدَ فيها فَيَسْبَحُ مِنْ ناحِيَةٍ إلى

ناحِيَةٍ، وَكُلَّما هَمَّ بِٱلْخُروجِ دَفَعْناهُ إلى ٱلماءِ بِعَصا. لا تَمْضي ساعَةٌ إلّا وَيَكونُ قَدِ ٱنْتَفَخَ كَٱلقِرْبَةِ فَتَهْدَأُ حَرَكَتُهُ. يُحاوِلُ ٱلْخُروجَ في يأسٍ، وَحينَ يَعْيا عَنْ ذلكَ يَنْهارُ. ساعَتَئِذٍ تَنْهالُ عَلَيْهِ حِجارَتُنا. يَفْتَحُ فَمَهُ ٱلْمُدَمّى وَيَغوصُ لِيَطْفوَ جُثَّةً هامِدَةً. وهذا ما نَفْعَلُهُ بِٱليرابيعِ أيْضاً. لكنَّ جُحورَ ٱليَرابيعِ مُتَعَدِّدَةُ ٱلمَخارِجِ، وَيَبْعُدُ بَعْضُها عَنْ بَعْضٍ مِقْدارَ مِتْرَيْنِ، وَكُلُّها مُتَّصِلَةٌ مِنْ تَحْتِ ٱلأرْضِ. لذلكَ نَسُدُّ ٱلْجُحورَ جَميعاً، إلّا واحِداً، حَيْثُ نَصُبُّ ٱلماءَ فَتَخْرُجُ ٱلواحِدَةُ تِلْوَ ٱلأُخْرى مُنْتَفِخَةً مِنْ كَثْرَةِ ما ٱبْتَلَعَتْهُ.

كُنّا صِغاراً آنَئِذٍ، صِغاراً يَلْهونَ بِمُراقَبَةِ ٱليَرابيعِ وَهِيَ تَخْرُجُ مِنَ ٱلْجُحورِ رافِعَةً قوائِمَها ٱلأمامِيَّةَ. تَتَلَفَّتُ سريعاً وَتَحُكُّ مناخيرَها في حَرَكَةٍ مُضْحِكَةٍ.

كانَ هَمُّنا أنْ نَتَصَيَّدَها لِنَلْهُوَ بِعذاباتِها حتّى ٱلمَوْتِ، لكنَّ سُكّانَ ٱلقُرى كانوا يَأْكلونَها، يأْكُلونَ يَرابيعَ ٱلحَقْلِ كَما يأْكُلونَ ٱلقَطا وَٱلقنافِذَ.

وَلِلْقنافِذِ عِنْدَنا ـ نَحْنُ ٱلأطْفالَ ـ ساعاتُ لَهْوٍ لا تَخْرُجُ مِنْها إلّا مَسْلوخَةً.

كُنّا نَمْضي، بَعْدَ ٱلمَغيبِ، إلى ٱلعَراءِ. نَتَحَيَّنُ ٱللَّيالي ٱلَّتي يَتَكَوَّرُ فيها ٱلقَمَرُ. وَحَيْثُ يَبْدأُ ٱلقَمَرُ ٱكْتِساحَهُ تَبْدَأُ ٱلقَنافِذُ ٱكْتِساحَها. وَٱلقَنافِذُ بَطيئَةُ ٱلحَرَكَةِ بعامَّةٍ، لكنَّ دُروعَها الشَّوْكيَّةَ تَجْعَلُ ٱلإمْساكَ بها مَسأَلَةً شاقَّةً. بَيْدَ أَنَّنا كُنّا نَحْتاطُ فَنَجْلِبُ مَعَنا ٱلقباقيبَ. نَضَعُها في أرْجُلِنا وندوسُها. وَكُلَّما ٱشْتَدَّ الضَّغْطُ على ٱلقُنْفُذِ نَفَرَ رأسُهُ خارِجَ الدِّرْعِ. حينَئِذٍ لا نَحْتاجُ إلّا إلى سِكّينٍ حادَّةٍ. يَرْتَخي الدِّرْعُ بَعْدَ الذَّبْحِ، فَنَشُقُّهُ مِنْ بَطْنِهِ، وَنُقَشِّرُهُ كَٱلمَوْزَةِ.

لكنَّ ٱلقنافِذَ وٱليَرابيعَ ٱلمَسْلوخَةَ وَٱلمُنْتَفِخَةَ تَعودُ حَيَّةً في أحْلامِنا.تَعودُ مُجَنَّحَةً ولها أذيالُ السَّحالي. وَنَهْذي في اللَّيلِ، نَهْذي فيوقِظُنا أهْلونا، فَلا نَغْفو بَعْدَ ذلِكَ إلّا وقَدْ طَلَعَ الفَجْرُ المُؤْنِسُ. إلّا أنَّ حَيَواتِنا ـ نَحْنُ أطْفالَ الشِّمالِ العاري ـ لا أُنْسَ فيها غَيْرُ صَريرِ الزّيزانِ وخَشْخَشَةِ الزَّواحِفِ بَيْنَ العُشْبِ اليابِس.

ولأنَّنا خُلِقْنا هكذا، كُنّا نُحاوِلُ أنْ نَخْلُقَ، بدَوْرِنا، من هذا ٱليَباسِ غِطاءً لِلْحُلُمِ، فَنَجْتَمِعُ في ٱلخرائِبِ ٱلفَرَنْسِيَّةِ، وَهِيَ بَقايا بيوتٍ أو ثُكُناتٍ مِنْ عَهْدِ ٱلاحْتِلالِ، لِصْقَ نَهْرِ الجغجغ، وَلِصْقَ الطّاحونَةِ ٱلمائِيَّةِ ٱلوحيدَةِ، ٱلَّتي لا تَزالُ حَيَّةً بِفِعْلِ ٱلحَرَكَةِ

ٱلعَمْياءِ لِبَغْلَيْنِ يَطْحَنانِ في دَوَرانِهِما ٱلقَمْحَ وَٱلحَياةَ تَحْتَ الرَّحى. وهناكَ، في ٱلخرائِبِ تِلْكَ، كُنّا نَلُفُّ الشّايَ السّيلانيَّ ٱلَّذي نَسْرِقُهُ في وَرَقِ الدَّفاتِرِ، وَنُشْعِلُ ٱللُّفافاتِ مُقَلّدينَ ٱلكِبارَ. لكنَّ ٱلمُقامِرينَ ٱلمُتَسَكِّعينَ كانوا يُزاحِمونَنا على مَأْوانا. وٱلمُقامِرونَ، أولئِكَ، فِتْيانٌ يَرْئِسُهُم دائِماً أَحَدُ الزُّعرانِ ٱلكِبارِ. يَجْتَمِعونَ في ٱلخرائِبِ لِيَتَقاسَموا ما غَنِموهُ مِنَ ٱلقَرَوِيّينَ السُّذَّجِ بِألاعيبِهِم. وَهُمْ عُتاةٌ، يَطْردونَنا حينَ يَأْتونَ، ولا يَنْقَضي نَهارُهُم في ٱلاقْتِسامِ مِنْ دونِ أَنْ يَنالَ أحدُهُم طَعْنَةً في خاصِرَتِهِ أو ظَهْرِهِ. لكنَّهُم يَنْجونَ دائِماً مِنَ ٱلمَوْتِ، إلّا رشاد الأحول، ٱلَّذي لَمْ يَكْتَفِ زَميلُهُ بِطَعْنِهِ مَرَّةً واحِدَةً، بَلْ شَقَّهُ مِنَ الصَّدْرِ حتّى ٱلبَطْنِ، وَمِنَ ٱلخاصِرَةِ إلى ٱلخاصِرَةِ، ظَلَّ يَصْرُخُ - وَهُوَ مُلْقىً وَقَدِ ٱنْدَلَقَتْ أحشاؤُهُ - خَمْسَ ساعاتٍ فَلَمْ يُنْجِدْهُ أحَدٌ. نَزَفَ آخِرَ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ وماتَ. وَظَلَلْنا نَحْنُ ٱلأَطْفالَ نَسْمَعُ صُراخَهُ مَدى شَهْرٍ في أَحْلامِنا، بَلْ في يَقَظَتِنا أَيْضاً، حينَ يُصْبِحُ الظَّلامُ كَثيفاً كَجِدارٍ في تِلْكَ ٱلأَرْضِ ٱلبَخيلَةِ بِٱلمَصابيحِ.

لكنَّ ٱلخرائِبَ ٱلفَرَنْسِيَّةَ تَظَلُّ مَلاذاً، بِرُغْمِ خَوْفِنا مِنَ ٱلخرائِبِ، بَلْ خَوْفِنا مِنْ كائِناتِ ٱلخرائِبِ، وَهِيَ كائِناتٌ

نَسْتَشْعِرُها هائِمَةً حَوْلَنا، تُلامِسُنا أنفاسُها أحْياناً، أوْ نَكادُ نَجْزُمُ أنَّنا نَسْمَعُ وشْوَشاتِها: إنَّها لامرئيَّةٌ، إنَّها مُسوخُ ماضٍ لا يَعْرِفُهُ إلّا آلكِبارُ، إنَّها غيلانٌ وَمَرَدَةٌ بَيْضاءُ تماماً، لها عُيونٌ مَشْقوقَةٌ حتّى آذانِها، وَتَتَهَيّأُ في أيِّ شَكْلٍ تَخْتارُهُ. لكِنَّ أوسمانو يَقولُ: لا تَخافوها ما دامَ مَعَكُمْ دَبّوسٌ مَعْدِنيٌّ، أو إبْرَةُ خِياطَةٍ. وَنَقولُ: أوسمانو كَيْف؟ فَيُجيبُ: إنَّها تَخْشى آلإبَرَ، أسَرَتْ جَدَّتي أحَدَ هذهِ آلـمُسوخِ آللّامرئيَّةِ حينَ غَرَزَتْ فيهِ إبْرَةَ آلخياطَةِ فأصْبَحَ طَوْعَ بنانِها.

... وأُوسمانو شابٌّ مُحْبَطٌ، طَلَبَ يَدَ آبْنَةِ عَمِّهِ فَرَفَضَهُ عَمُّهُ لأنَّهُ يَعيشُ مِنَ آلحَرامِ. وأمامَ هذا الرَّفْضِ قَرَّرَ أنْ يَعْمَلَ بِعَرَقِ جَبينِهِ فآشْتَغَلَ ماسِحَ أحْذِيَةٍ. وأوسمانو يَنْتَمي إلى فَرْعٍ مِنَ آلأكْرادِ يُلَقَّبونَ بـ«كولي»، وآلكوليّونَ ذَوو بأسٍ، يَنْتَصِرُ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ حتّى آلمَوْت.

كان آلكوليّونَ عتّالينَ جاؤوا مِنْ تُرْكيا. آغْتَنى بَعْضُهُم وَظَلَّ آلبَعْضُ آلآخَرُ على حالِهِ. يَتَمَسّكونَ بآلفَضيلَةِ ولا يُقيمونَ وَزْناً لِلْمالِ أو لِلْجاهِ. وأُوسمانو آلكوليُّ مُحْبَطٌ، لَيْسَ مِنْ فَقْرِهِ، بَلْ مِنْ ماضيه.

وأُوسمانو يَجْمَعُنا ـ نَحْنُ الصِّغارَ ـ مِنْ حَوْلِهِ، فَيَسْرُدُ وقائِعَ حَصَلَتْ وأُخْرى لَمْ تَحْصُل قَطُّ. وحينَ يَجْمَعُنا نَفْتَحُ أفواهَنا دَهِشينَ مِنْ حِكاياتِهِ: تَعَلَّقَتِ ٱلمُسوخُ ٱللاّمَرْئيَّةُ بِدَرّاجَتِهِ في مكانٍ قَفْرٍ بَيْنَ قُرى عامودا. هذا ما يَقولُهُ، ويُضيفُ أنَّ ٱلجُرْأَةَ وَضَبْطَ النَّفْسِ هُما، وَحْدَهُما، سِلاحُ ٱلمَرْءِ في مواجَهَةِ ٱلكائِناتِ ٱللاّمَرْئيَّةِ، وَٱلجبانُ يَسْقُطُ صَريعاً مِنَ الذُّعْرِ. يقولُ أُوسمانو إنَّ جَدَّتَهُ حينَ أسَرَتْ أحَدَ هذهِ ٱلكائناتِ بإبْرَةِ ٱلخِياطَةِ، صارَ ٱلكائِنُ ٱللاّمَرْئيُّ مَرْئيّاً، أليفاً، يَضَعُ يَدَهُ على جِرارِ السَّمْنِ فَتَفيضُ ٱلجِرارُ، وَتَظَلُّ تَفيضُ حتّى تَأْمُرَهُ ٱلجَدَّةُ بالتَّوَقُّفِ فَيَقِفُ. وَيَقولُ أوسمانو إنَّ جَدَّتَهُ أطْلَقَتِ ٱلكائِنَ، بَعْدَ سنينَ، وَبَعْدَما أقْسَمَ ٱليَمينَ على ٱلكَفِّ عَنْ إخافَةِ ٱلبَشَر.

نَعَمْ، أطْلَقَتْهُ. نَزَعَتْ مِنْهُ إبْرَةَ ٱلخِياطَةِ وَأطْلَقَتْهُ، (لَمْ نَسْأَلْهُ قَطُّ أيْنَ غَرَزَتِ ٱلإبْرَةَ، وَكَيْف). وَبَيْنَ ٱلحِكايَةِ وَٱلحِكايَةِ يَضَعُ أُوسمانو يَدَهُ في جَيْبِ سُتْرَتِهِ الدّاخِليِّ وَيَسْحَبُ صورَةً غامِضَةً: فتاةٌ شَقْراءُ تَجْلِسُ على رُكْبَةِ أوسمانو، وأمامَهُ طاوِلَةٌ عَلَيْها بَعْضُ الزُّجاجاتِ وَٱلكُؤوسِ. نَعَمْ، إنَّها صورَةٌ غامِضَةٌ لنا، نَحْنُ ٱلأطْفالَ، لكِنَّ أوسمانو يُوضِحُ ٱلأمْر: «كنتُ في اسطنبولَ، وهذه

صديقتي»، ونصرخ «يا أللّه... أنْتَ بارِعٌ أوسمانو... شَقْراء!» وَيَنْظُرُ بَعْضُنا إلى بَعْضٍ، أو نَسْألُهُ: «أتَعْرِفُ صَديقَتُكَ ٱللُّغَةَ ٱلكُرْدِيَّةَ؟»، وَيَنْظُرُ إلينا أوسمانو في ٱسْتِخْفافٍ: «إنَّها مُتَمَدِّنَةٌ جِدّاً جِدّاً»، وٱلـمَدَنِيَّةُ، كما يَفْهَمُها أوسمانو، هي ثَوْبٌ قَصيرٌ، وَوَجْهٌ سافِرٌ مُتَبَرِّجٌ، وَلُغَةٌ غَريبةٌ. وٱلـحَقُّ مَعَهُ، فَثيابُ أُمَّهاتِنا طَويلَةٌ وَمُعَقَّدَةٌ جِدّاً، وَهُنَّ لا يَسْتَعْمِلْنَ أحْمَرَ الشِّفاهِ، ولا يَفْقَهْنَ أيَّةَ لُغَةٍ في ٱلأرْضِ. «يا لِأوسمانو ٱلعظيمِ» نَهْتِفُ في سَريرَتِنا.

... وَنَنْسى أوسمانو، نَنْسى عَمَّهُ ٱلَّذي جاءَ مِنْ تُرْكيا هارِباً، حينَ وَقَفَ ذاتَ مَساءٍ على بابِ أحمد سالو. وَقَفَ شاهِراً خِنْجَرَهُ ٱلـمَعْقوفَ، فَخَرَجَتْ مِنْ تَحْتِ يَدِهِ ٱثْنَتا عَشْرَةَ جُثَّةً... عَشْرَةُ رِجالٍ وٱمْرأتان. وَنَحْنُ أطْفالٌ، وَٱلأطْفالُ لا يَسْألونَ عَنْ أسْبابِ ٱلـمَجْزَرَةِ، بَلْ يَعْجَبونَ بٱلْيَدِ ٱلـجَسورَةِ ٱلَّتي لا تَخْذُلُ صاحِبَها حينَ تَهْوي بِمِنْجَلٍ أو بِخِنْجَرٍ.

ولأنَّنا مُعْجَبونَ بٱلـخارِقِ، بٱلـجَسورِ وَٱلقَوِيّ، نَسْرِقُ الزَّيْتَ وَنَدْهَنُ بِهِ أجْسادَنا النّاحِلَةَ على ضِفَّةِ النَّهْرِ. نَقومُ بٱسْتِعْراضاتٍ مُضْحِكَةٍ، ٱسْتِعْراضاتٍ رياضيَّةٍ لَيْسَ فيها عَضَلٌ بل عِظام. وَنَنْزِلُ إلى ٱلـماءِ بَعْدَ ٱلاسْتِعْراضِ فلا يَزولُ الزَّيْتُ. نُدَلِّكُ

أجْسادَنا بالطّينِ وبآلأشنيّاتِ آلخَضْراءِ آلقاسِيَةِ ولا يُزالُ الزَّيْتُ. يَتَبَقَّعُ النَّهْرُ ولا يُزالُ الزَّيْتُ. نَرْجِعُ إلى بُيوتِنا وَثيابُنا الدّاخليَّةُ آلبَيْضاءُ تَحَوَّلَتْ إلى ما يُشْبِهُ آلجِلْدَ آلأسْمَرَ آلمَحْروقَ. نَخْلَعُها في مكانٍ مُنْعَزِلٍ لِنُلْقيَ بِها بَعيداً بَعيداً. ثُمَّ نَرْتَدي، على غَفْلَةٍ مِنْ أهْلِنا، ثِياباً داخِليَّةً نَظيفَةً. وَيَمْضي وَقْتٌ طَويلٌ قَبْلَ أنْ يَكْتَشِفوا النَّقْصَ آلحاصِلَ في غِياراتِنا.

لكنَّنا، هُناكَ، على ضِفافِ آلخابورِ، لَسْنا مُجْبَرينَ على مُمارَسَةِ هذا التَّمْويهِ. فَحَيْثُ نَكونُ بَعيدينَ عَنْ أهْلِنا، نَكونُ بَعيدينَ عَنِ الرُّعْبِ أيْضاً، بَعيدينَ عَنْ ذلكَ آلاضْمِحْلالِ الرّاعِبِ لِطُفولَتِنا. ولا يأتي هذا آلمَوْسِمُ آلمُتْرَعُ بآلحُرِّيَّةِ إلّا صَيْفاً، آنَ يَسْتَدْعينا عَمُّنا آلأكْبَرُ إلى آلعِنايَةِ بِمُسْتَوْدعاتِ آلحُبوبِ آلَّتي يَمْلِكُها قُرْبَ آلخابورِ.

وَمُشارَكَتُنا هيَ مُشارَكَةٌ صَغيرةٌ، تُقْتَصَرُ على جَمْعِ آلحُبوبِ آلمُتَسَرِّبَةِ مِنَ آلأكْياسِ آلمَثْقوبَةِ كُلَّما حَمَلَتِ الشّاحِناتُ أطْناناً مِنْها عَنِ آلأرْض. وَيَوْماً يَوْماً نُدْرِكُ أنَّنا جَمَعْنا مِنْ تِلْكَ آلحُبوبِ ما يَكْفي قُوتَ عائِلَةٍ كامِلَةٍ طَوالَ السَّنَة.

كانَتِ الشّاحِناتُ تَأْتي مُمْتَلِئَةً فَتُفْرِغُ حُمولاتِها، أوْ تَأْتي

فارِغَةً فَتَمْتَلِىءُ بِحُمولاتِها، وَبَيْنَ آلمَجيءِ والرَّواحِ يَأْخُذُنا ماءُ آلخابورِ في نُزْهَتِهِ. وآلخابورُ أميرٌ بَيْنَ آلأنْهارِ، عَريضٌ وَمُتَدَفِّقٌ كعاصِفَةٍ. تَتَزاحَمُ على ضِفَّتَيْهِ أشْجارُ الصَّفْصافِ آلمُتَّصِلَةُ بِشَبَكاتٍ مِنَ آلعُلَّيْقِ ذي التّوتِ آلبَرّيِّ الأحْمَرِ، أو يُرْخي شَجَرُ آلغَرَبِ غُصونَهُ، وَيُرْسِلُها على آلمَاءِ كَشَعْرٍ مَحْلولٍ. كُنّا نَخْتارُ لِنُزُهاتِنا آلأماكِنَ آلقريبَةَ مِنَ النَّواعيرِ. نَخْلَعُ ثِيابَنا وَنَنْزِلُ إلى آلماءِ، حامِلينَ حَبّاتٍ مِنَ آلبَطّيخِ الأحْمَرِ. وَحينَ تَبْرُدُ تِلْكَ آلحَبّاتُ نَقْتَسِمُها لِنَبْتَرِدَ نَحْنُ في هاجِراتِ الشِّمالِ آلَّتي يَذوبُ فيها أسْفَلْتُ الطُّرُقِ نَهاراً.

وَهُناكَ قُرْبَ النَّواعيرِ وَأنينِها آلمُتواصِلِ، كانَتْ تَحُطُّ آلقَرَوِيّاتُ كأسْرابٍ مِنَ آلحَجَلِ، هارِباتٍ مِنَ الظَّهيرةِ إلى آلماءِ. وَآلقَرَوِيّاتُ يَعْمَلْنَ في آلحُقولِ كَمُياوِماتٍ. يَقْطُفْنَ مَحاصيلَ آلباذِنْجانِ وَآلفُلْفُلِ وَآليَقْطينِ وَآلخِيارِ، مُقابِلَ جُزْءٍ مِمّا قَطَفْنَ. كُلَّ يَوْمٍ يأتي فَوْجٌ جديدٌ، وَكُلُّ فَوْجٍ يُهَرْوِلُ إلى آلماءِ في الظَّهيرةِ. ذلكَ دَأْبُهُنَّ.

كُنَّ يَنْزِلْنَ إلى آلماءِ بأثوابِهِنَّ الطَّويلَةِ، بَعْدَ أنْ يَتَحَرَّرْنَ مِنَ آلمَناديلِ. وَآلقَرَوِيّاتُ حافياتٌ عادَةً، ولا يَرْتَدينَ ثِياباً داخِلِيَّة.

كنّا أطْفالاً آنئذٍ، لا تَعْنينا أجْسادُهُنَّ ٱلَّتي ٱلْتَصَقَتْ بٱلأثْوابِ فٱتَّخَذَ كُلُّ تَكْويرٍ فيها ٱنْفِلاتاً عَذْباً. ولا تَعْنينا مُداعباتُهُنَّ بَعْضهُنَّ لِبَعْضٍ. أو بَعْضُهُنَّ لنا ـ نَحْنُ ٱلعُراةَ تَماماً. وكانَتْ أثوابُهُنَّ تَطْفو على ٱلماءِ، تَعْلو حتّى أعناقِهِنَّ حينَ يَغْطُسْنَ، وإذْ يَنْهَضْنَ يُرخينَها في رِفْقٍ. وَكُنّا نَسْتَغْرِبُ أنْ يكونَ لِلْمَرْأةِ شَعْرٌ في جَسَدِها، وَنَظُنُّهُ مُقْتَصَراً على الرِّجالِ. لكنَّ ٱلغريبَ حَقّاً هُوَ أنَّهُنَّ كُلَّما ٱكْتَفَيْنَ مِنْ لَهْوِهِنَّ الصّاخِبِ في ٱلماءِ، خَلَعْنَ أثوابَهُنَّ وَنَشَرْنَها على ٱلعُلَّيْقِ لِتَجِفَّ، وَيَبْقَيْنَ عارِياتٍ، يَتَخَفَّيْنَ وَراءَ الشَّجَرِ حيناً، أوْ يَبْرُزْنَ مِنْ دونِ ٱكْتِراثٌ بٱلعُيونِ ٱلَّتي تَسْتَقْرِئُهُنَّ. آنَئِذٍ كُنّا نَتَساءَلُ عَنْ أسْبابِ نُزولِهِنَّ إلى ٱلماءِ بأثْوابِهِنَّ، ما دُمْنَ يُجَفِّفْنَها بَعْدَ ذَلكَ وَهُنَّ عارِيات.

بَيْدَ أنَّ ٱلعَداوَةَ كانَتْ تَسْتَفْحِلُ بَيْنَنا وَبَيْنَهُنَّ، حينَ يَخْتَفي ثَوْبُ إحداهُنَّ أو مِنْديلُها. كُنَّ يَتَّهِمْنَ بَعْضَهُنَّ بَعْضاً وحينَ يَتْعَبْنَ مِنَ ٱلجِدالِ يَتَّهِمْنَنا فَيَجْرُرْنَنا مِنَ النَّواصي فَنَعَضُّهُنَّ، وإذْ نُفْلِتُ وَنَبْتَعِدُ ـ ولا نزالُ عُراةً ـ نُؤدّي حَرَكاتٍ بخواصِرِنا أشَدَّ وَقْعاً عَلَيْهِنَّ مِنَ الشَّتائِمِ. وَنَتَمادَى في حَرَكاتِنا لأنَّ ذلكَ يُغيظُهُنَّ: نُمْسِكُ بأغْصانٍ يابِسَةٍ وَنَضَعُها بَيْنَ أفْخاذِنا صارِخين:

هيّا يا بنات الـ... فَيَقْذِفْننا بٱلحِجارَةِ. وَبَعْدَ زَمَنٍ من هذا ٱللَّهْوِ، زَمَنٍ قَصيرٍ، كَرِهْنا ٱلخابورَ لأنَّه ٱخْتَطَفَ مِنّا عَبْدَ ٱلمجيد جاجان. بَحَثَ أَهْلُهُ عَنْ جُثَّتِهِ أَرْبَعَةَ أيّامٍ، وحينَ وَجدوهُ كانَ مُنْتَفِخاً كالطَّبْلِ، وَقَدْ أكَلَتْ عَيْنَيْهِ ٱلأسْماك.

لكنَّ كُرْهَنا للخابورِ لَمْ يوقِفِ ٱلخابورَ. ظَلَّ أميراً صاخِباً يَجْمَعُ مِنْ حَوْلِهِ قُرىً صاخِبَةً، قُرىً تَتَقاسَمُ ٱلجُغْرافيا وٱلفاكِهَةَ وٱلأعْرافَ، بَدْءاً بالأشوريّينَ، وٱنْتِهاءً بالأكْرادِ وٱليزيديّين.

كانَتِ ٱلقُرى ٱلأشوريَّةُ لا تُبارى في زِراعَةِ ٱلكُرومِ، أمّا ٱلقُرى ٱلكُرْدِيَّةُ وَٱليزيديَّةُ فلا تُبارى في الرَّعْي وَتَرْبيَةِ الدَّواجِنِ، وفي بَعْضِ ٱلمَزْروعاتِ الصَّغيرةِ كٱلقِثّاءِ وَٱلقُطْنِ. وَلَمْ يَكُنْ كُلُّ هذا لافِتاً للنَّظَرِ قِياساً إلى غَرابَةِ ٱليزيديّينَ.

كُنّا أطْفالاً آنَئِذٍ، لا يَعْنينا التّاريخُ ٱلَّذي يُصَنِّفُ ٱليزيديّينَ فِرْقَةً باطِنيَّةً، لا يَعْنينا مَنْشَأُهُم، أو دَوْرُ بريطانيا في صُنْعِهِم أقلِّيَّةً مِنْ أقَلِّيّاتِ الشَّرْقِ كما ٱعْتادَتْ أنْ تَفْعَلَ بِعالَمِنا ٱلغارِقِ في ماضيهِ حتّى ٱلاخْتِناقِ، أوِ الرّاكِنِ إلى الرِّضا حتّى ٱلاخْتِناق. كُنّا ما بَيْنَ مُسْتَغْرِبٍ أو مُنْدَهِشٍ، آنَئِذٍ، بأولئِكَ الرِّجالِ ٱلَّذينَ يَضْفُرونَ جَدائِلَهُم كالنِّساءِ، وَيُرْخونَ شوارِبَهُمُ ٱلكَثَّةَ فلا تَبينُ

شِفاهُهُم. كانوا قَذِرينَ لا يَسْتَحِمّونَ، يُقَدّسونَ ٱلمَلِكَ الطّاووسَ، أيِ الشَّيْطانَ ٱلأكْبَرَ كما يَقولون.

وَلِعمّي، صاحِبِ ٱلمُسْتَوْدعاتِ قُرْبَ ٱلخابورِ، شَريكٌ يزيديٌّ يُدْعى «الحاجّ». لَمْ يَحِجَّ إلى ٱلكَعْبَةِ قَطُّ، لكنَّهُ يُدْعى «الحاجّ»، ولا نَسْأَلُ عن ذلكَ. و«الحاجُّ» تاجِرٌ حَذِقٌ، كُنّا نُحِسُّهُ قائِماً كُلَّ لَيْلَةٍ، يُتَمْتِمُ بِصلاةٍ غَريبةٍ، حينَ نَهْجَعُ جميعاً في قاعَةٍ أشْبَهَ بِثُكْنَةٍ. لكنْ في النَّهارِ، كُنّا نَعْمِدُ إلى ألاعيبِنا مَعَ هذا ٱلكَهْلِ. نَشْتُمُ الشَّيْطانَ، أو نَتَعَوَّذُ مِنْهُ كُلَّما مَرَرْنا بِهِ، فَيَحْمَرُّ وَجْهُهُ، وَيَتَعَوَّذُ مِنّا. نَبْصُقُ على ٱلأرْضِ في تَعَمُّدٍ ظاهِرٍ، لأنَّ الشَّيْطانَ يَسْكُنُ ٱلكثافَةَ، الظَّلامَ وٱلأرْضَ، فَيَتَعَوَّذُ مِنّا. وأخيراً نَرْسُمُ مِنْ حَوْلِهِ دائِرَةً على ٱلأرْضِ التُّرابيَّةِ. وَٱليزيديُّ لا يَخْرُجُ مِنَ الدّائِرَةِ حتّى ٱلمَوْتِ، أو حتّى يَمْحوَها مَنْ رَسَمَها. يَصْرُخُ «الحاجُّ» في فَزَعٍ واضِحٍ: ٱمْحوا الدّائِرَةَ يا أوْلادَ ٱلكَلْبِ. وَنَصْرُخُ فيهِ: أنْتَ ٱبْنُ ٱلكَلْبِ وسَليلُ الشَّيْطانِ. وَيَهُبُّ مِنَ ٱلكبارِ أخيراً مَنْ يُنْجِدُ «الحاجَّ» فَيَمْحو الدّائِرَةَ، وَيُطارِدُنا.

يَوْمَها يُقاصِصُنا عَمُّنا، يُقاصِصُنا في عُنْفٍ يَصِلُ أحْياناً إلى إعادَةِ أحَدِنا إلى أهْلِهِ، وَيَعْتَذِرُ عنّا إلى «الحاجِّ» الرَّهيب.

وَعَوْدَتُنا مِنَ ٱلحُرِّيَّةِ تِلْكَ، مِنْ حُرِّيَّةِ ٱلخابورِ ٱلأميرِ وضِفافِهِ ٱلَّتي تُحاذي جِبالَ عَبْدِ ٱلعزيزِ حَيْثُ تَكْثُرُ مَغاوِرُ ٱلحمامِ ٱلبَرّيِّ، هِيَ عَوْدَةٌ إلى الرُّعْبِ الرَّتيبِ، عَوْدَةٌ إلى ٱلغُبارِ وَٱلقِصاصِ، عَوْدَةٌ إلى طُفولَةٍ مُضَرَّجَةٍ بِخَريفِ ٱلمَدينةِ ومَدارِسِها، وبِٱلمَطَرِ ٱلَّذي يَجْرُفُ غُبارَ الصَّيْفِ مِن ٱلأعالي فلا يَتَساقَطُ إلّا الطّينُ.

بَيْدَ أنَّنا، حينَ الرُّجوعِ ثانِيَةً إلى قَفَصِ ٱلكِبارِ وَسُلْطَتِهِم ٱلعَريقَةِ، نَفْتَحُ مَجْرىً لأهوائِنا، مَجْرىً لِلْخَرابِ وَٱلعذاباتِ. نُحَطِّمُ ما تَبَقّى مِنَ الطُّفولَةِ، وما تَبَقّى لِلْكِبارِ مِنْ حُلُمٍ بِطفولَتِنا. نَرُشُّ ٱلكازَ على قِطَّةٍ وَنُشْعِلُ ذَنَبَها. تَرْكُضُ القِطَّةُ في هِياجٍ مَجْنونٍ. تَصْطَدِمُ بِجُدْرانِ ٱلبُيوتِ وَتَقْفِزُ أمتاراً عَنِ ٱلأرْضِ. يَمْتَدُّ ٱللَّهَبُ مِنْ ذَيْلِها إلى جِسْمِها كُلِّه. تَظَلُّ تَرْكُضُ وَنَرْكُضُ خَلْفَها. تَصِلُ إلى ٱلبيادِرِ لِصْقَ ٱلبُيوتِ قَبْلَ أنْ تَنْفَجِرَ جُمْجُمَتُها كَما يَنْفَجِرُ ٱلبالون. وما أسْهَلَ ٱشْتِعالَ ٱلبيادِرِ بِدَوْرِها. كَوْمَةً كَوْمَةً يَمْتَدُّ ٱلحريقُ، وَمِتْراً مِتْراً يَرْتَفِعُ ٱللَّهبُ.

نَتَراجَعُ لِنُنْذِرَ ٱلكِبارَ وكأنْ لا شَأْنَ لنا بِما جَرى. يَخْرُجُ ٱلكِبارُ بِدِلاءِ ٱلمياهِ، وحينَ لا تَنْفَعُ ٱلمِياهُ تَأْتي الرُّفوشُ لِتُهيلَ التُّرابَ على النّارِ. وَوَقْتَ يَنْشَغِلُ ٱلكِبارُ بِرُفوشِهِم، والنِّساءُ

بآلمُراقَبَةِ، نَتَسَلَّلُ نَحْنُ إلى حَوْشِ عَفْدال. نَرْبُطُ آلمُفَرْقَعاتِ إلى أذْيالِ آلعُجولِ وَنَفْتَحُ آلبَوّابَةَ آلخَشَبِيَّةَ الضَّخْمَةَ. نُشْعِلُ آلفتائِلَ وَنُسْرِعُ خارِجينَ لِنَعُدَّ: واحِدْ، إثْنان... ولا نُكْمِلُ ثَلاثاً إلّا وَيَدُبُّ آلهِياجُ في آلحَوْشِ: تَدورُ آلعُجولُ حَوْلَ نَفْسِها فَتَخْلَعُ آلأوتادَ مِنَ آلأرْضِ، وَتَنْطَلِقُ عَبْرَ آلبَوّابَةِ مَجْنونَةً.

يَقْضي آلُ عَفْدالَ سَحابَةَ نَهارِهِم مُطارِدينَ آلعُجولَ الشّارِدَةَ في آلأزِقَّةِ وفي آلحُقولِ. وحينَ يَظْفَرونَ بِها يَلْعَنونَ الشَّرْقَ وآلغَرْبَ وآلقَمَرَ والنُّجومَ، مِنَ التَّعَب.

وَنَلْعَنُ آلقَمَرَ وَالنُّجومَ، نَلْعَنُها نَحْنُ أيْضاً، صارِخينَ في عُواءٍ خافِتٍ كَحَيواناتٍ مَطْعونَةٍ على أقْدامِ آلهَضَباتِ، مُتَّجِهينَ صَوْبَ الظَّلامِ السّاحِرِ، الظَّلامِ آلَّذي يَمْحو آلمَدينَةَ وَيُحيلُها بُحَيْراتٍ يَتَقَصَّفُ قَصَبُ ضِفافِها مِنَ الرَّكْضِ آلمَجْنونِ لأجْسادٍ نِصْفُها أقْدامُ جواميس، وَنِصْفُها نَباتاتُ آلحَرْشوف. نِصْفُها يرابيعُ، وَنِصْفُها آلآخَرُ شَعْرٌ مَسْدولٌ كَشَعْرِ النِّساءِ... وَنُمْعِنُ في آلاتِّجاهِ ذاتِهِ، كأنَّما أقدامُنا رِياحٌ مَهَبُّها هُوَ آلمَهَبُّ آلخَفِيُّ بَيْنَ عامودا وحلكو: غُبارٌ غُبارٌ، وآلأرْض لا تَتَكَشَّفُ لِصواري طُفولَتِنا إلّا ثَوْراً يَحْمِلُ على قَرْنَيْهِ كُرَةَ آلكِبارِ آلمَوْتى.

فاصل رابع

في انهيار بريفا

أنْتِ ماذا يا بريڤا؟ أنْتِ طَعْنَةٌ مِنَ الطّينِ. أنْتِ خَفَقاتُ الطّينِ وَقَلْبُهُ ٱلغُباريُّ الشّارِدُ. أنْتِ جَناحُ القُرى يا بريڤا، يا سَحابَةً غَبْراءَ ناحِلَةً تَلْمُسُ الأرْضَ في خَجَلٍ، وتَتَكَوَّمُ بَيْتاً بيتاً حَوْلَ نَبْعٍ خَفِيٍّ مِنَ الغُبارِ والتَّعَبِ. أقَرْيَةٌ أنْتِ حَقّاً؟ أمْ صَليلُ الظّلامِ حينَ رَسا أوَّلَ مَرَّةٍ في ٱلأرْضِ فأنْبَتَ ٱلوَحْشَةَ؟ ذاهِلَةٌ أنْتِ يا بريڤا، ذاهِلَةٌ كأنَّما فاجَأْتِ نَفْسَكِ، ذاتَ يَوْمٍ، في مَرايا ٱلقُرى، فَرَأَيْتِ شَبَحاً لا قَدَمَيْنِ لَهُ، شَبَحاً زاحِفاً بَيْنَ ٱلخَرْنوبِ وأوْراقِ ٱلكَمَأِ، يَمُدُّ يَدَيْهِ، في تَوَسُّلٍ أخيرٍ، إلى غَيْبٍ يَقودُ أباطيلَهُ كالثّيرانِ ولا يَلْتَفِتُ. إيه بريڤا، يا شَبَحَ قَرْيَةٍ، ويا نافِذَةَ التُّرابِ على التُّرابِ، لَمْ يَكُنْ لِيَسْمَعَ بِكِ أحَدٌ، لَوْلا بوغي، لولا هذا ٱلمارِدُ الذي خَلَقَتْهُ ٱلأحاديثُ أو خَلَقَ ٱلأحاديثَ. لَمْ نَرَ بوغي ٱلَّذي أُضيفَتْ إلى ٱسْمِهِ كُنْيَةُ بريڤا فصارَ بوغي بريڤا. لَمْ نَرَهُ نَحْنُ ٱلأطْفالَ، لكنَّنا رَأَيْنا قَبْرَهُ على قِمَّةِ هَضْبَةِ موزان.

سَلَكْنا طريقَ ٱلهَضْبَةِ مِنْ قَرْيَةِ موزان ذاتِها، بَيْنَ شُجَيْراتِ ٱلعِنَبِ، خاطِفينَ ٱلعناقيدَ السَّوْداءَ هُنا وَهُناك، ناثِرينَ حَبّاتِها وَرَاءَنا كَمَنْ يَتْرُكُ للقادِمينَ أثَراً لا يقودُ إلّا إلى ٱلعَبَثِ. وكانَتِ ٱلعناقيدُ حُلْوَةً جِدّاً، ذاتَ حبّاتٍ صغيرةٍ يَعْلوها مِنَ ٱلغُبارِ ما يَعْلو ٱلأرْضَ. وَكُنّا نَلْتَهِمُها غَيْرَ عابِئينَ بذلِكَ الطَّعْمِ ٱلمَزيجِ ٱلخاصِّ، أو نَعْتَصِرُها بَيْنَ أيْدينا مِنَ ٱلبَطَرِ فَتَسْتَحيلُ إلى عُصارَةٍ مِنَ الطّينِ الدَّبِقِ ٱلأسْوَدِ، وَمِنْ ثَمَّ نَغْسِلُ أيْدينا بِتُرابِ الطَّريقِ ٱلَّذي لا يَلْبَثُ أنْ يَخْتَفيَ على أطْرافِ ٱلهَضْبَةِ فَنَسْلُكُ أخاديدَ السُّيولِ الضَّيِّقَةَ ٱلَّتي تُوصِلُنا إلى ٱلقِمَّةِ بَعْدَ جُهْدٍ.

وَقِمَّةُ هَضْبَةِ موزان مُنْبَسِطَةٌ، مَلأى بِقُبورٍ لا معالِمَ لَها، وَنَتَجَنَّبُ ـ نَحْنُ ٱلأطْفالَ ـ أنْ نَطَأَ أيّاً مِنْها خِشْيَةَ إيقاظِ ٱلمَوْتى، وكذلك نتجنَّبُ الجحورَ المنتشرةَ هنا وهناك، لأنَّها خاصَّةٌ بِحَيَواناتِ ٱلمَوْتى، ٱلَّتي تَخْرُجُ بِجِرائِها لَيْلاً فَتَأْكُلُ ٱلجُثَثَ وَتَعْبَثُ بٱلعِظامِ. وإذْ تَشْبَعُ، تَرْفَعُ حَناجِرَها بِعُواءٍ مَمْزوجٍ بأنينِ ٱللَّيْلِ ومَخْلوقاتِهِ.

وفي وَسَطِ ٱلقِمَّةِ ٱلمُنْبَسِطَةِ، في وَسَطِ ٱلقُبورِ ٱلَّتي تَساوَتْ بٱلأرْضِ فَما يَبينُ مِنْها إلّا شَواهِدُها، في وَسَطِ ذاكَ السُّكونِ

آلـمُرْهَقِ السَّكْرانِ آلَّذي لا نُدَماء لَهُ، يَتَمَدَّدُ بوغي بريڤا مُغَطّىً برقائِقَ مِنَ آلـخَزَفِ، على طولِ ثلاثَةِ أمتارٍ: إنَّه الأطْوَلُ حقّاً، وآلأعْرَضُ حَقّاً، لكنَّه مُهْمَلٌ إلى دَرَجَةٍ يُرْثى لها، وَكانَ حَرِيّاً بالنَّدّاباتِ آللّائي شَيَّعْنَهُ، ذاتَ يَوْمٍ، أنْ يَبْقَيْنَ صاعِداتٍ هابِطاتٍ عَنِ آلهَضْبَةِ ألْفَ عامٍ، وأنْ يَتَّصِلَ عَوِيلُهُنَّ كما تَتَّصِلُ أقْدامُ آلهَضْبَةِ بِجُذورِ الشِّمالِ. فما هكذا ينتهي بوغي بريڤا، وما هكذا يَتَلاشى صَوْتُهُ آلَّذي يَصْعَدُ، رُوَيْداً رُوَيْداً، مِنْ أعْماقِنا، (نَحْنُ آلواقِفينَ أمامَ عَظَمَةِ آلـخَرابِ بِعيونٍ تَمْلأُها ثلاثَةُ أمتارٍ مِنْ جَسَدٍ مُغَطّىً برقائِقَ مِنَ آلـخَزَفِ). وَصَوْتُهُ واثِقٌ - كما يَشْهَدُ الرُّواةُ - وهادِىءٌ كَجَسَدِهِ آلـهادِىءِ آلـمديدِ. وَيُضيفونَ أنَّه كانَ يَقْطَعُ آلقُرى راجِلاً، إذْ لَمْ يَصْمُدْ تَحْتَ ثِقْلِهِ أيُّ بَغْلٍ، وأشَدُّ آلبِغالِ كانَ يَمْضي بِهِ خُطْوَتَيْنِ قَبْلَ أنْ يَنْحَنيَ عَمودُهُ آلفِقْرِيُّ فَيَلْمُسَ ببطْنِهِ آلأرْضَ.

وأسْهَبَ الرُّواةُ في آلـحديثِ عَنْ شُؤونٍ أُخْرى في حياةِ آلمارِدِ، عَنْ دَلْوِهِ آلـخاصِّ آلَّذي يَسَعُ عِشْرينَ دَلْواً عادِيّاً. يَشُدُّهُ بوغي وَحْدَهُ مِنَ آلبِئْرِ ويَسْقي آلـماشِيَةَ. عَنْ تناوُلِهِ ما يَسَعُ تَنّوراً كامِلاً مِنَ آلأرْغِفَةِ. عَنِ آلأبْوابِ آلعالِيَةِ آلَّتي تَضيقُ بِطولِهِ

فَيَنْحَني لِيَدْخُلَها. عَنْ كَلْبِهِ ٱلَّذي يُعادِلُ بِضَخامَتِهِ ٱلحِمارَ، فما يَظْهرانِ على التُّخومِ إلّا مَعاً، شَكْلَيْنِ خُرافِيَّيْنِ لَمْ تَحْجُبْهُما زَوْبَعَةٌ قَطُّ، وَلَمْ يَطْلَعْ فَجْرٌ إلّا وهُما يَخْرُجانِ مِنَ ٱلأُخْدودِ ٱلكَبيرِ شَرْقَ بريڤا، مِنَ ٱلأُخْدودِ ٱلَّذي كانَ نَهْراً ذاتَ يَوْمٍ، وأمْسى زَريبَةً صَيْفيَّةً لِغَنَمِ بوغي وأكْباشِهِ. وَيَتَحَدَّثونَ عَنْ بقائِهِ أعْزَبَ فلا نَفْقَهُ ٱلمَسْأَلَةَ كما يَنْبَغي، لكنَّ ٱلواضِحَ أنَّه لَمْ يُخْرِجْ أحَداً بِطَلَبِ أُنْثى.

كان بوغي بريڤا هادِئاً إلى حينِ سَرَتْ هَمْهماتٌ خَفيضَةٌ بَيْنَ أهْلِ ٱلقَرْيَةِ: «الأقْوياءُ يَقْتَسِمونَ ٱلأرْضَ». وكانَ جَديداً أنْ يَأْتِيَ أقْوياءُ غامِضونَ على أفْراسِهِم لِيَقولوا: «هذهِ تُخومُنا، وهذهِ تُخومُكُم». كانَتِ ٱلأرْضُ مُنْبَسِطَةً لا حدودَ فيها، مُنْبَسِطَةً واضِحَةً كٱلأسْئِلَةِ، وها هي تُمْسي مُلْتَوِيَةً كأجْوِبَةٍ غَريبَةٍ... وضاقَتِ ٱلأرْضُ مِنْ حَوْل بريڤا، حتّى ما عادَ النّاسُ بِقادِرينَ على ٱلخُروجِ بأغْنامِهِم أكْثَرَ مِنْ فَرْسَخٍ واحِدٍ. آنَئِذٍ خَرَجَ بوغي ٱلواثِقُ على هُدوئِهِ ٱلواثِقِ. حَمَلَ حَجَراً يَبْلُغُ قُطْرُهُ مِتْراً أو يَزيدُ، وسارَ يُواكِبُهُ الرِّجالُ. ويَقولونَ إنَّهُم تَعِبوا مِنَ ٱلمَشْي وما تَعِبَ بوغي. وَيَقولونَ جَلَسوا يَمْسَحونَ عَرَقَهُم في الظَّهيرةِ وَلَمْ

يَتَوَقَّفْ بوغي، ويقولونَ رُئِيَ يَمْضي حتّى ٱخْتَفى عَنِ ٱلعُيونِ. وَيَقولونَ وَصَلَ بوغي إلى مَقْرُبَةٍ مِنْ بُيوتِ أولئِكَ ٱلأقْوياءِ ٱلغامِضينَ، ٱلَّذين أنْذَروا النّاسَ بٱقْتِسامِ ٱلأرْضِ، إذْ ذاكَ رَمى ٱلحَجَرَ عَنْ كَتِفِهِ قائِلاً: «هذهِ حدودُ بريڤا»، وقَفَلَ راجِعاً. ويقولونَ لَحِقَ بِهِ أحَدُ ٱلأقوياءِ على حِصانِهِ، وحينَ حاذاهُ دَفَعَ بوغي ٱلحِصانَ فَسَقَطَ أرْضاً، ثُمَّ أمْسَكَ بإحْدى قوائِمِهِ فَكَسَرَها، هاتِفاً بالرَّجُلِ: «لا تَلْحَقْ بي»، فَلَمْ يَلْحَقْ بِهِ أحَدٌ بَعْدَ ذلِكَ.

لكنْ، لا أحَدَ يقولُ لنا ماذا يَفْعَلُ قَبْرُ بوغي بريڤا على هَضْبَةِ موزان، وَهُما قَرْيَتانِ ثَمَّتَ مَسافَةٌ طَويلَةٌ بَيْنَهُما؟ أو ماذا حَلَّ بِكَلْبِهِ ٱلمارِدِ مِثْلَهُ، ٱلَّذي شوهِدَ مِراراً على قِمَّةِ ٱلهَضْبَةِ، رافِعاً صَوْتَهُ بِعُواءٍ مَريرٍ، مَدى ثلاثِ سنينَ، مُلْتَمِعاً تَحْتَ ضَوْءِ ٱلقَمَرِ أوْ وَمْضِ ٱلبُروقِ؟ ماتَ على ما نَعْتَقِدُ نَحْنُ ٱلأطْفالَ، ماتَ مِثْلَ صاحِبِهِ، دونَما صَخَبٍ أو نذير. أوَتَعْرِفونَ كَيْفَ ماتَ بوغي بريڤا؟

يَقولُ الرُّواةُ إنَّ وباءً أصابَ غَنَم بوغي. بَدَأَ صوفُها يَهُرُّ وأجْسامُها تَتَقَرَّحُ، ثُمَّ هَوَتِ الواحِدَ تِلْوَ الآخَر.

ذاتَ فَجْرٍ لَمْ يَخْرُجْ بوغي مِن الأُخْدودِ النَّهْريِّ. رَأَوْهُ

مُسْنِداً ظَهْرَهُ إلى حافَّةِ آلجُرُفِ وَقَدْ جَمَعَ حَوْلَهُ آلكثيرَ مِنَ آلصّوفِ آلمُتَّسِخِ، بَيْنَما راحَ كَلْبُه يَحومُ وَيَعْوي. وَنَسْأَلُ ـ نَحْنُ آلأطْفالَ ـ أكانَتْ عَيْناهُ مُغْمَضَتَيْنِ أم مُفَتَّحَتَيْنِ فلا يَرُدُّ أحَدٌ.

... وَنَهْبِطُ آلهَضْبَةَ آلغَضارِيَّةَ، آلَّتي تَفَتَّحَتْ مَرّاتٍ عَديدَةً عَنْ جِرارٍ مِنَ آلكَهْرمانِ الثَّمينِ وَآلفِضَّةِ، مُتَّجهينَ عَبْرَ السُّهولِ الشَّرْقيَّةِ آلجَرْداءِ إلى آلمَدينَةِ، لكنَّ آلمدينَةَ لَمْ تَعُدْ ذاتَها، بَلْ هِيَ أشْبَهُ آلآنَ بِثُكْنَةٍ لِخَفَرِ آلبادِيَةِ، أيِ آلهَجّانَةِ كما يُسَمّونَهُم. وَنَحْنُ لَمْ نَسْأَلْ قَطُّ عَنْ سَبَبِ وُجودِ هَؤلاءِ آلعَسْكَرِيّينَ آلبُداةِ، بَيْدَ أنَّهُم أفْصَحوا، بِجَلافَةٍ وَقَسْوَةٍ، عن تَرْتيباتٍ خَفِيَّةٍ هيّأها «الكبارُ» للجَزيرَةِ.

كان زَمَنَ «إصْلاحاتٍ»، زَمَنَ آقْتِسامٍ مُدْهِشٍ لِلأرْضِ بَيْنَ الدَّوْلَةِ والنّاسِ، لكنَّ النّاسَ تَنازَلوا عَنْ حِصَصِهِم للدَّوْلَةِ حينَ لَمْ يَجِدوا آلبِذارَ، وهكذا بَدَأَتِ آلأمْبراطوريّاتُ الصَّغيرةُ في آلأنْهيارِ، أمْبراطوريّاتُ آلأقْوياءِ وكذلكَ أحْلامُ الصِّغارِ الضُّعفاءِ: كُلُّ شَيْءٍ مَضى كالسَّيْلِ يَجْرُفُ آخِرَ معالِمِ آلماضي بِطُفولَتِهِ وَبريقِهِ آلخُرافيِّ آلجميلِ. وحينَ هَدَأَ السَّيْلُ كانَ كُلُّ شَيْءٍ مُغَطّىً بطينٍ أحْمَرَ لا أثَرَ لِلْحياةِ فيه.

إنْقَرَضَ آلقَمْحُ في فِرْدَوْسِ آلقَمْحِ، وَبِتْنا ـ نَحْنُ آلأطْفالَ ـ نَتَزاحَمُ في الصَّباحاتِ على أبْوابِ آلأفْرانِ، وَقَدْ نَقْضي سَحابَةً مِنَ النَّهارِ قَبْلَ أنْ نَطولَ إلى آلأرْغِفَةِ، لأنَّ الهَجّانَةَ ذَوو أوْلَوِيَّةٍ، ويا ما قَذَفَ هؤلاءِ آلعُتاةُ بِطِفْلٍ أوْ بِشَيْخٍ خارِجَ الزِّحامِ، لِيَأْخذوا مَكانَهُ في الصُّفوفِ. ويا ما آجْتازوا الصُّفوفَ وَصَفَعوا الفرّانينَ، أو داسوهُمْ بآلأحْذِيَةِ آلعَسْكَرِيَّةِ حتّى يَنْفُرَ الدَّمُ مِنَ آلآذانِ وآلأفواه.

لَمْ يَعُدْ يَنْفَعُ آلأقوياءَ كَثْرَةُ أنْصارِهِم بَعْدَ مَجِيء آلهَجّانَةِ، وَلَمْ يَنْفَعِ الضُّعفاءَ ضَعْفُهُم بَعْدَ مَجيءِ الهَجّانَةِ، وكانَ آقْتِحامُهُم للمدينةِ آقْتِحاماً ذا تَوْقيتٍ مُواكِبٍ لِتَوْقيتِ آنْقِراضِ آلقَمْحِ، ومُواكِباً لأسْئِلَةِ النّاسِ: «أيْنَ خُبْزُنا»؟

كُنّا أطْفالاً آنئِذٍ، يَأْخُذُنا الدَّهَشُ مِنْ عَنود ـ آلأُنْثى آلَّتي تَرْتَدي حَطَّةً كالرِّجالِ، ودَشْداشَةً كالرِّجالِ، وَسُتْرَةً كالرِّجالِ، وَتَتَمَنْطَقُ بِمُسَدَّسٍ كالرِّجالِ. وَلَها سَيّاراتُها وَمُرافِقوها. لكنَّ عَنود، آبْنَةَ كَبيرِ شُيوخِ آلبادِيَةِ، لَمْ يَدُمْ مَجْدُها طَويلاً بَعْدَ مَجيءِ آلهَجّانَةِ. وَعَرَفْنا، مَعَ تَصْعيدِ مَوْجَةِ «آلإصْلاحاتِ آلجَميلَةِ»، وإذْ صارَ لنا حُكْمُنا على حاضِرٍ خُرافيٍّ، أنَّ كُلَّ

شَيْخ مِنْ شُيوخِ آلبادِيَةِ، وَكُلّ قَوِيٍّ بأتباعِهِ في آلماضي، أُعيدَتْ إلَيْهِ أمْبراطورِيَّتَهُ... أمّا الضُّعفاءُ فَيَئِسوا حتّى آلعَظْمِ، وَمَعَ آليَأْسِ بَدَأَتْ تَتَكَوَّمُ جُثَثُ آلهَجّانَةِ في آلمُنْعَطَفاتِ وَآلأَوْدِيَة.

ضَجَّتِ النّاسُ مِنَ آلبَطْشِ آليَوْمِيِّ، وَمِنْ هَؤلاءِ آلَّذينَ يَرْتَدونَ حَطّاتٍ حَمْراءَ ولاَ يَدْفعونَ إيجاراتِ بُيوتِهِم. ضَجَّتْ مِنَ آلَّذينَ يَأْخذونَ رَغيفَها الصَّباحيَّ، وَيَقْتَحِمونَ آلبُيوتَ إذا تَشاجَرَ طِفْلانِ. وحينَ أدْرَكوا أنَّ هؤلاءِ جاؤوا لِيَمْحوا آلأسْئِلَةَ في آلأفْواهِ، نَصَبوا لَهُمُ آلفِخاخَ آللَّيْليَّةَ، وَنَثَروا بالرُّفوشِ وَآلمناجِلِ أعْضاءَهُم. ولمّا تَفاقَمَ آلأمْرُ، حَمَلَ آلهَجّانَةُ أحْلامَهُمُ الصَّحْراويَّةَ آلمُمْتَزِجَةَ بآلبَعْرِ إلى آلبادِيَةِ ثانِيَةً، وَلَمْ يَعودوا بَعْدَ ذلكَ قَطُّ.

لكنَّ آلأمْبراطوريّاتِ الصَّغيرَةَ، آلَّتي تَداعَتْ، تَداعَتْ. وَمَعَ هذا التَّوافُدِ آلكثيفِ لِلْكآبَةِ السَّماويَّةِ، بَدَأَتِ آلمَقاهي تَنْفِرُ طالِعَةً مِنْ زاوِيَةٍ هُنا وزاوِيَةٍ هُناك. وكانَتْ مقاهيَ مَسْقوفَةً بِحُصُرِ آلقَشِّ، يَجْتَمِعُ الرِّجالُ فيها عَصْراً، أوْ يَقْضونَ أكْثَرَ آللَّيْلِ على ضَوْءِ آلفوانيسِ، صارِخينَ لاعِنينَ وَرَقَ آللَّعِبِ آلَّذي يَجْعَلُ حُظوظَهُم أشَدَّ مَهْزَلَةً، أو يَقْذِفُ بَعْضُهُم بَعْضاً بِكراسي

آلبوصِ، وَمِنْ ثَمَّ يَنْجَلي آلأمْرُ فيَعودون إلى صَخَبٍ وصُراخٍ لا عُنْفَ فيهِما.

بَدَأَ كُرْهُنا صَغيراً وَنَما، يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، لِيَشْمَلَ آلمَقاهيَ، وَقِطارَ آلمَدينَةِ آلوَحيدَ، ومَطاحِنَ آلقَمْحِ آلآليَّةَ، وَمَصْنَعَ آلجَليدِ، وَآلمَطارَ، وَالطّائِراتِ، وَالنَّهْرَ، وَبُيوتَ الضَّواحي الطّينيَّةَ، وَآلمآذِنَ، وَآلفَقْرَ. كَرِهْنا كُلَّ شَيْءٍ لأنَّنا لَمْ نَمْتَلِكْ ـ وَسَطَ أحْلامِنا آلغامِضَةِ بآمْتِلاكِ لُعْبَةٍ ما، أو حَقيبَةٍ جَميلَةٍ ـ إلّا عَبَثَنا الصّارِخَ، فأطْلَقْناهُ كَغَيْمَةٍ مُسْرِعَةٍ، وآنْطَلَقْنا مَعَ عابو آلأعْمى آلَّذي يَعْرِفُ آلأرْضَ خُطْوَةً خُطْوَةً، وَآلمَدينَةَ زُقاقاً زُقاقاً، وَيَعْرِفُ آلمَسالِكَ آلخَطِرَةَ إلى تُرْكيا، وَيُغَنّي كَكَلْبٍ مَبْحوح.

وعابو في الثَّلاثينَ، دَمِثٌ ذو صَوْتٍ خَشِنٍ أبَحَّ. لَمْ يَسْتَعْمِلْ، وَهُوَ آلأعْمى، عَصاً قَطُّ، بَلْ يَقودُهُ طِفْلٌ عادَةً، أو يَتَقَرّى آلحيطانَ، وَيَجْتازُ عَرْضَ الطُّرُقِ آلَّتي يَعْرِفُها عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ. وعابو لا يَخافُ. عابو مَلِكُ النَّهْرِ. وَنَتَسابَقُ رَاكضينَ على الضِّفَّتَيْنِ حينَ يَهْبِطُ عارِياً إلى آلماءِ. يَغوصُ حتّى رَقَبَتِهِ وَهُوَ يَتَحَسَّسُ آلأعْماقَ الضَّحْلَةَ بِيَدَيْهِ. وَبَيْنَ آلفَيْنَةِ وَآلفَيْنَةِ يَرْمي إلينا بِشَبّوطٍ أوْ رعّادٍ نَهْريٍّ. وإذا كانَ الصَّيْدُ ضَئيلاً، يَعْمِدُ إلى

آلـجُـحـورِ. يَـحْـشُـرُ يَـدَهُ فيـهـا وَيُـخْـرِجُـهـا جـاذِبـاً سَـلْـطَـعـونـاً أو حَنْكَليساً. يَرْفَعُ آلغِطاءَ آلعَظْميَّ عَنْ ظَهْرِ السَّلْطعونِ ويَقولُ: «آنْـظـروا، هـذهِ سـاعَـتُـهُ آلـلَّـحْـمـيَّـةَ». أو يـقـولُ: «إحْـذروا ذَيْـلَ آلـحَنْكَليسِ فهو سامٌّ»، وَيَقْطَعُ بأسنانِهِ مِقْدارَ عَشْرَةَ سَنْتِمتراتٍ مِنْ ذيلِهِ. وكان عابو يَلْتَقِطُ آلأفاعي أيْضاً. يَغوصُ بِها تَـحْـتَ آلـمـاءِ لِيُمْسِكَـهـا مِنْ عُنُقِـهـا، وحيـنَ يَـطْـفـو يَـصيـحُ: «هـاتـوا قَميصي». نُعطيهِ آلقَميصَ فَيَضَعُهُ عابو في فَمِ آلأفْعى، ثُمَّ يَشُدُّهُ فَيَخْلَعُ أسْنانَها. بَعْدَئِذٍ يَضَعُها في جَيْبِهِ آمِناً، وَيُخيفُ بِها آلآخرين.

... وَنَـمْـضـي وَراء عـابو لِنَطوفَ بـآلـمقـاهي كُـلِّـهـا. يَقولُ لِلطِّفْلِ آلَّذي يَقودُهُ: «دُلَّني على فُلان» فَيَدُلُّهُ. يَقْتَرِبُ عابو مِنَ الرَّجُلِ وَيَهْمِسُ: «لي دَيْنٌ في ذِمَّتِكَ». يَضْحَكُ الرَّجُلُ وَيُناوِلُهُ نُقوداً. ولا يَنْقَضي النَّهارُ إلّا وَنَجْمَعُ ما يَكْفينا جَميعاً لِدُخولِ السّينَما. يَجْلِسُ عابو في الصّالَةِ وَوَجْهُهُ إلى آلأعلى. يَسْأَلُنا بَيْنَ آلـحينِ وَآلـحيـنِ عَنْ مَجْرى آلأحْداثِ، وإذْ نَسْرُدُها لَهُ تَنْفَرِجُ أساريرُهُ، أو يُقَهْقِهُ فَيُعْدينا بآلقَهْقَهَةِ.

وعابو زَوْجُ شَحّاذَتَيْنِ، جَمَعَهُما معاً في بَيْتِهِ الشَّبيهِ بِزَريبةٍ

ضَيِّقَةٍ في الضَّواحي. إحْداهُما تُدْعى شوشة، في ضَخامَةِ ٱلفيلِ، حافيَةٌ دائِماً، وَلِقَدَمَيْها ٱلمُفَلْطَحَتَيْنِ دَمْدَمَةٌ على ٱلأرْضِ كَدَمْدَمَةِ ٱلجاموس.

وَهِيَ لا تَخرُجُ مِنْ أيِّ بَيْتٍ تَدْخُلُهُ إلّا بِغَنيمَةٍ، رَضِيَ أهْلُ ٱلبَيْتِ أمْ أبَوا. وٱلأُخرى تُدْعى باسي، وديعَةٌ لا يُجاوِزُ ذَكاؤُها ذَكاءَ دَجاجَةٍ، لكنَّ شوشة وباسي تَتَشاجَرانِ أبَداً في الطُّرُقاتِ، وأبَداً تَسْقُطُ باسي بِشَعْرِها ٱلأشْعَثِ أرْضاً، فَتَعْوي.

صِراعٌ أبَدِيٌّ بَيْنَ ضُرَّتَيْنِ، صِراعٌ يَقِفُ فيهِ عابو على ٱلحِيادِ، وَيَسْتَرْضي ٱلأقوى. صِراعٌ نُضْرِمُهُ، أكْثَرَ، نَحْنُ ٱلأطْفالَ، بِهِياجِنا، إذْ نَتَحَلَّقُ مِنْ حَوْلِهِما، وَنُؤَلِّبُ إحداهُما على ٱلأُخرى، فَتَتَناقَرانِ مِثْلَ ديكَيْنِ تَتَطايَرُ مِنْهُما ٱلخِرَقُ بَدَلَ الرّيشِ. وَنَذْكُرُ، بَعْدَئِذٍ، أنَّ باسي ماتَتْ، فَبَقيتْ شوشة سُلْطانَةً على عابو وَبَيْتِهِ.

وعابو لا يفوتُهُ عُرْسٌ، حاضِرٌ أبَداً كما حُضورُ الطُّنْبورِ أوِ الطَّبْلِ. وٱلأعراسُ تَجْري ـ هُناكَ، شِمالاً ـ في الصَّيْفِ. سَبْعَةَ أيّامٍ وَسَبْعَ ليالٍ. يَعْلو ٱلغُبارُ رؤوسَ الرّاقِصينَ، وَيُحيطُ كَغُلالَةٍ أُنْثَوِيَّةٍ بفوانيسِ ٱلكازِ ٱلمُعَلَّقَةِ إلى ٱلأعْمِدَةِ، وكذلكَ بِعَيْنَي عابو

ٱلبَيْضاوَيْنِ ٱللَّتَيْنِ تَرَيانِ ٱلأبْعَدَ، تَرَيانِ الدَّمَ وَدَوْرَتَهُ في ٱلعُروقِ، وَتَرَيانِ ٱلأسْماءَ في لُهاثِ ٱلآخَرين.

يَجْتَمِعُ الرّاقِصونَ في حَلْقَةٍ تَدورُ، وفي وَسَطِهِم الطَّبّالونَ بِطُبولِهِم ٱلَّتي لا إيقاعَ لها غَيْرُ الصَّخَبِ ٱلباسِلِ. وعلى مَبْعَدَةٍ مِنَ ٱلحَلْقَةِ نَجْلِسُ حَوْلَ عابو ٱلَّذي يَسْأَلُنا: «أإبْنَتا عاريف هُنا؟»، وَنُجيبُهُ: «نَعَم». وَيَسْأَلُ: «أأولادُ سَطّام وَمَهْرو هُنا؟»، وَنُجيب: «نعم». يَقولُ عندئذٍ: «هيّا نَتَرَصَّدِ ٱلبيادِرَ».

يَعْرِفُ عابو أنَّ أمْراً ما يَتَجَمَّعُ في ٱلغُبارِ ٱللَّيْليِّ. فٱبْنَتا عاريف ٱلجَميلتانِ مَشْهودٌ لَهُما بالتَّهَتُّكِ. يأخُذُهُما أخوهُما ٱلأكْبَرُ إلى ٱلأعْراسِ. وَيَعْقِدُ الصَّفقاتِ هُناكَ. وأولادُ الآغَيَيْنِ سطّام ومهرو مَشْهودٌ لَهُم بالتَّهَتُّكِ، لا يُخْفونَ أخْبارَ طَيْشِهِم وَلَهْوِهِمْ عَنْ أحَدٍ. يَحْضُرونَ ٱلأعْراسَ في سيّارَةٍ صَغيرةٍ مِنْ نَوْعِ اللاّنْدروڤر، حامِلينَ قناني ٱلجعَةِ، فَيَزْدَريهم رِجالُ الشِّمالِ ٱلمُتَعَفِّفونَ. لكِنَّنا نُدْرِكُ أنَّ لِلنِّساءِ رَأياً آخَرَ، وَنَظْرَةً يَنِمُّ مِنْها إعْجابٌ بٱلجسارَة.

وَنَمْضي مَعَ عابو إلى ما وراءَ ٱلبُيوتِ ٱلمُتناثِرَةِ في الضّاحِيَةِ وَنَتَرَصَّدُ. وإذ يَحْمى وَطيسُ التُّرابِ تَحْتَ ٱلأرْجُلِ،

وَيَنْحَدِرُ عَرَقُ الطبّالينَ على صُدورِهِم حتّى يَصِلَ إلى ٱلأَحْذِيَةِ، يُغافِلُ أوْلادُ سطّام ومهرو النّاسَ لِيَجْلِسوا على كَوْمَةٍ مِنْ أكْوامِ ٱلقَشِّ ٱلكثيرةِ، بَعيداً عَنِ الصَّخَبِ. وَمِنْ بَعْدِهِم، وعلى مَهَلٍ كما يَتَمَهَّلُ ٱلقَطا، تَتَسَلَّلُ ٱبْنتا عاريفَ وأخوهُما، آتينَ أكوامَ ٱلقَشِّ ذاتَها. وَقْتَها يَهْمِسُ «عابو»: «أَأَتَوْا؟»، فَنُجيبُهُ: «هششش».

يَقِفُ ٱبْنُ عاريفَ ٱلقوّادُ بَعيداً عَنْ أُخْتَيْهِ وأوْلادِ سطّامَ ومهرو، ليُراقِبَ ٱلمَسالِكَ. وبالتَّناوُبِ، مَثْنىً مَثْنىً، وعلى أكوامِ ٱلقَشِّ السَّماوِيِّ، نرى أنْصافَ عُراةٍ، مِنَ السُّرَرِ فما دُونَها، وَنَرى أفْخاذاً على أكْتافِ الشُّبّانِ مُلْتَمِعَةً كٱلخَناجِرِ.

يَتَقَصَّفُ ٱلقَشُّ وَيَتَأَوَّهُ. يَهْمِسُ عابو: «أَبَدَأوا»، فَنُجيبُهُ: «هششش».

وَيَرْتَفِعُ النَّشيجُ ٱلمَخْنوقُ، وَيَزْدادُ صَخَبُ ٱلقَشِّ، حتّى لنكادُ نَعْتَقِدُ أنَّ هؤلاءِ غَيْرُ آبِهينَ إلّا لاكْتِمالِ الدَّوْرَةِ في هذهِ ٱلفاكِهَةِ ٱلآدَمِيَّةِ، وأنَّ ألْفَ صَرْخَةٍ أوْ فُجاءَةٍ لَنْ تُزَحْزِحَ ـ في لَحْظَةِ النَّشيجِ ٱلغامِضِ تلكَ ـ نِصْفاً عارِياً عَنْ نِصْفٍ عارٍ، وأنَّ التَّهَتُّكَ ٱلَّذي يُجاهِرُ بِهِ أوْلادُ سطّام ومهرو لَمْ يَعُدْ تَهَتُّكاً ٱلآنَ،

بَلْ بَحْثٌ مُضْنٍ تَنْتَفِخُ فيهِ عُروقُ الرَّقَبَةِ قَبْلَ ٱلعُثورِ على بِدايَةٍ تَنْتَفِخُ فيها عُروقُ الرَّقَبَةِ مِنْ جديدٍ.

بَعْدَئِذٍ يَنْسَحِبُ ٱلجميعُ، أوْلادُ سطّام ومهرو، وٱبْنتا عاريفَ وأخوهما، لكِنَّهُمْ يَتْركونَ خَلْفَهُم ـ على ٱلقَشِّ ـ تِلْكَ ٱللَّهْفَةَ ٱلمُدْهِشَةَ ٱلَّتي أتَوْا بها أوَّلَ ٱلأمْرِ. يَنْسَحِبونَ في ٱنْكِسارٍ. وإذْ يَصِلُ أوْلادُ ٱلآغَيَيْنِ إلى مَقْرُبَةٍ مِنْ حَلْقَةِ الرَّقْصِ يُطْلِقونَ عِباراتٍ نارِيَّةً في ٱلهواءِ، مِنْ مُسَدَّساتِهِم، كأنَّما يُخْفونَ وَجوهَهُم مِنَ ٱلبَحْثِ ٱلَّذي لَنْ يَنْتَهي، في قِناعِ الصَّخَبِ. وَنَنْسَحِبُ ـ نَحْنُ ٱلأطْفالَ ـ بِدَوْرِنا، حاملين أسْئِلَةً جديدةً، أسْئِلَةً تَتَطاوَلُ كَنَشيجِ أوْلادِ سطّام وَمهرو، وَتَلْتَمِعُ كأفْخاذِ بناتِ عاريف.

فاصل خامس

في الثَّلج والخراب

يَتَساقَطُ الثَّلْجُ. سِتَّةَ أيّامٍ يَتَساقَطُ الثَّلْجُ مِنَ ٱلأعالي وَمِنْ أعْماقِنا. يَخْتَلِطُ ٱلأبْيَضُ عَلَيْنا حتّى نَرى الثَّلْجَ حصاداً تَتَلَقَّفُهُ ٱلـمَذاري فَتَنْثُرُهُ على ٱلأشْكالِ. يَخْتَلِطُ عَلَيْنا فَنَرى بَيادِرَ بَيْضاءَ، وَبِغالاً بَيْضاءَ تَدورُ حَوْلَ الدَّريسِ بِنوارِجَ وَحوذِيّينَ مِنَ الثَّلْجِ.

ثَلْجٌ في ٱلـمدافِىءِ. نارٌ مِنَ الثَّلْجِ في ٱلـمَدافِىءِ سِتَّةَ أيّامٍ، وَسِتَّةَ أيّامٍ يَطُنُّ مِنْ حَوْلِنا نَحْلٌ مِنَ الثَّلْجِ، ويَعاسيبُ مِنَ الثَّلْجِ، وَطيورٌ مِنَ الثَّلْجِ، وَبُيوتٌ مِنَ الثَّلْجِ، وَقُرىً مِنَ الثَّلْجِ، وَنباتاتٌ مِنَ الثَّلْجِ تَتَسَلَّقُ ٱلـجُدْرانَ حتّى تُجاوِزَ السُّطوحَ، فَتَمْضي عالياً في ٱلفَراغِ، حامِلَةً أضاميمَ مِنْ أزاهيرِ الثَّلْجِ، ومَدائِحَ بَيْضاءَ لِهذا ٱلـجُنونِ ٱلأبْيَض.

كُنّا نَعْرِفُ كَيْفَ نَتَّقي نَحْلَ الصَّيْفِ، آنَ تَشْتَدُّ ٱلـهاجِرَةُ وَيُمْسي سَكْرانَ مِنَ ٱلغَضَبِ، لكنْ ماذا نَفْعَلُ بِنَحْلِ الثَّلْجِ وإبَرِهِ ٱلـخَفِيَّةِ ٱلَّتي تَخْتَرِقُ ٱللِّحافَ إلى ٱلعِظامِ؟ كُنّا ـ نَحْنُ ٱلأطْفالَ ـ

نَسْتَثيرُ نَحْلَ الصَّيْفِ. نَضَعُ عَصاً في ثَقْبِ ٱلْقَفيرِ فَيَخْرُجُ هائِجاً فَنَضْرِبُهُ بِٱلْمِذَبّاتِ، لكنَّ الثَّلْجَ نَحْلٌ حديديٌّ، فماذا يُمْكِنُ أنْ يَفْعَلَ ٱللَّحْمُ بِٱلحَديد؟ يا لِقَفيرِ ٱلْفَضاءِ ٱلْمَفْتوحِ، ويا لِمَلِكاتِ نَحْلِهِ وعامِلاتِهِ، يا لِجناحِ الثُّلوجِ: سِتَّةَ أيّامٍ وَكُلُّ شَيْءٍ مُوْصَدٌ بِمِزْلاجٍ أبْيَضَ، بَعْدَها تَتَنَفَّسُ ٱلْبُيوتُ رُوَيْداً رُوَيْداً، وَتَتَزَيَّنُ السُّطوحُ بِخُطوطٍ سَوْداءَ مِنَ الزَّرازيرِ كَخُطوطِ ٱلْكِتابَةِ. في وَسَطِ هذا ٱلحِبْرِ ٱلإلهيِّ ٱلأبْيَضِ تَمْتَزِجُ طُفولَتُنا بِطُفولَةِ ٱلْكِبارِ. ٱلْكِبارُ يَسْرُدونَ طُفولَتَهُم، وَنَحْنُ الصِّغارَ نُصْغي، (يا لِلْحَنينِ ٱلَّذي يَتَفَتَّحُ في الثَّلْجِ!).

كانَ ٱلْكِبارُ صِغاراً مِثْلَنا ذاتَ يَوْمٍ. يَقولُ ٱلقائِلونَ ذلِكَ ولا نُصَدِّقُهُم، لكِنَّنا نُصْغي كَمَنْ يَوَدُّ أنْ يَسْمَعَ ٱلأُكْذوبَةَ ٱلْكَبيرةَ كُلَّها مِنْ قَبيلِ الطَّرافَةِ: أحقّاً كانَ لِلْكِبارِ طُفولَةٌ ذاتَ يَوْمٍ؟ أحقّاً كانَ هَؤلاءِ أطْفالاً؟ هؤلاءِ ٱلَّذينَ خُلِقوا لِيُراقِبونا، خُلِقوا كِباراً لِيُزْمِعوا على ٱخْتِصارِنا، وٱخْتَصَروناً، فَها نَحْنُ شَدِهونَ مِنْ أكاذيبِهِم عَنْ طُفولَةٍ لَمْ تَكُنْ، يَسْرُدونَها زاعِمينَ أنَّهم يُفْرِحونَنا بِها، لكِنَّهُم ـ يَقيناً ـ يَسْرُدونَها لِيُقْنِعوا أنْفُسَهُم أنَّهم كانوا كائِناتٍ وَديعَةً في زَمَنٍ ما، زَمَنٍ مُوغِلٍ في ٱلجَحيم.

يَبْدَأُ السَّرْدُ، أوَّلَ آلأمْرِ، عَنْ عاصِفٍ مِنَ الثَّلْجِ أشَدَّ مِمّا رَأيْنا، وَيُسَمّونَهُ «الثَّلْج آلكبير». وَهُنا تَخْتَلِطُ آلوقائِعُ.

يَزْعُمُ آلكثيرونَ ـ مِمَّنْ يَتَمَلَّقونَ طبائِعَ آلبُسطاءِ في تَمَسُّكِهِم بآلأصالَةِ الرَّثَّةِ ـ أنَّ الرّيفيّينَ يَعْرِفونَ التَّواريخَ وَوقائِعِها مِنْ دونِ سِجِلٍّ. والأكيدُ أنَّهُم يُتْقِنونَ شَيْئاً مِنْ ذلكَ، يُتْقِنونَ مَعْرِفَةَ مواعيدِ آللَّيْلِ والنَّهارِ، طُولِهِما وَقِصَرِهِما. وَيَعْرِفونَ مواعيدَ آلمَطَرِ وهُبوبَ الرّياحِ، وكذلكَ دَوْراتِ آلبُذورِ، إنَّهُم يُتْقِنونَ آسْتِقراءَ السَّنَةِ آلَّتي يَعيشونَها تَفْصيلاً، لكنَّهُم، حينَ يُحاوِلونَ آسْتِعادَةَ آلماضي، وآسْتِعادَةَ التَّواريخِ وَوَقائِعِها، فإنَّما يَخْلُطونَ ما حَصَلَ بِما لَم يَحْصُلْ، وَيَخْلُطونَ «سَوْفَ» بـ«كانَ»، وَيُحيلونَ آلحاضِرَ إلى مَصَبٍّ خُرافيٍّ لِجَداوِلَ مِنْ حَصى الذّاكِرَةِ. لذلكَ كُلِّهِ كانَ «الثَّلْجُ آلكَبيرُ» مَرْفَأَ كُلِّ حادِثٍ وَقَعَ قَبْلَ ذلكَ بكثيرٍ، أوْ بَعْدَ ذَلِكَ بكثيرٍ.

يَسْرُدُ آلكبارُ أن آللَّحْمَ كان يَتَساقَطُ مِنْ شِدَّةِ آلبَرْدِ عَنِ آلأقْدامِ حتّى تَبْدو آلأمْشاطُ آلعظمِيَّةُ. كانَتِ آلأقْدامُ تَنْتَفِخُ فَيَلْتَصِقُ آللَّحْمُ بِباطِنِ آلأحْذِيَةِ، وَتَأْكُلُ آلأغْنامُ بَعْضُها صوفَ بَعْضٍ مِنْ قِلَّةِ آلعَلَفِ. وَيَسْرُدونَ أنَّ الصَّيْفَ آلَّذي أعْقَبَ شِتاءَ

«الثَّلْجِ ٱلكبيرِ» كانَ صَيْفاً مُجْدِباً دَفَعَ النّاسَ إلى ٱلبَحْثِ عَنْ بقايا حُبوبٍ في رَوْثِ ٱلماشِيَةِ. وَيَسْرُدونَ أنَّ ثَمَنَ عُضْوِ الثَّوْرِ جاوَزَ ثَمَنَ نَعْجَةٍ مِمّا يُباعُ في أيّامِ الرَّخاءِ. وَنَتَلَقَّفُ ـ نَحْنُ ٱلأطْفالَ ـ ٱلمَسْأَلَةَ بِدَهَشٍ بالِغٍ: «عُضْوُ الثَّوْرِ»؟ وَيَقولونَ: «نَعَمْ، عُضْوُ الثَّوْرِ... يَشْويهِ ٱلمَرْءُ على النّارِ قَليلاً ثُمَّ يَلوكُهُ مُتَوَهِّماً أنَّ في فَمِهِ طَعْمَ شواء». وَيَسْرُدونَ أنَّ النّاسَ أكَلَتِ ٱلغَنَمَ، وحينَ نَفِدَ ٱلغَنَمُ أكَلَتِ ٱلأحْصِنَةَ وٱلبِغالَ، وحينَ نَفِدَتِ ٱلأحْصِنَةُ وٱلبِغالُ أكَلَتِ ٱلحَميرَ، وحينَ نَفِدَتِ ٱلحَميرُ أكَلَتِ ٱلقِطَطَ. بَعْضُ النّاسِ تَوَقَّفَ عَنِ الأكْلِ، ٱنْتَفَخَتْ بُطونُهُم وَنَفَقوا، وَبَعْضُهُمُ ٱلآخَرُ أكْمَلَ ٱلمَسيرةَ فٱسْتَنْفَدَ ٱلكِلابَ والسَّحالي.

... وَيَمْضي ٱلكِبارُ على سَرْدِهِم، فلا نَرى في ما يَسْرُدونَ شَيْئاً مِنْ طُفولَتِنا، فَنَمْضي لِلْبَحْثِ عَنْها في الثَّلْجِ، وفي ما وَراءَ الثَّلْجِ، حَيْثُ تَدورُ مَغازِلُ الرِّياحِ فَتُحيلُ ٱلقُطْنَ السَّماوِيَّ ٱلبارِدَ إلى جَليدٍ صَلْبٍ كٱلخوذَةِ، وَحَيْثُ تَدورُ مغازِلُ ٱلأرْضِ فَتُحيلُ ٱلكائِنَ إلى خُرافَةٍ.

عَقِبَ أيّامِ الثَّلْجِ، وحينَ تَشَقَّقَتِ السُّهولُ فَنَفَرَتِ ٱلحَياةُ مِنَ الشُّقوقِ لابِسَةً قِناعَ بُرْعُمٍ أو فَراشَةٍ، بَدَأَتْ مواكِبُ ٱلمُريدينَ

تَقْصِدُ بَيْتَ الشَّيْخِ أحْمَدَ ٱلخَزْنَوِيّ في الشِّمالِ الشَّرْقيّ. وَمُريدو ٱلخَزْنَوِيِّ مُتَعَصِّبونَ لَهُ، يَعْقِدونَ حَلَقاتِ الذِّكْرِ طَوالَ مَوْسِمِهِم ذاكَ، وإذ يَعودونَ يَسْتَأْنِفونَ حَلَقاتِهِم في ٱلبُيوتِ، يَخْتارونَ بَيْتَ ٱلأكْثَرِ تَقْوى عادَةً، وَهُناكَ كُنّا ـ نَحْنُ ٱلأطْفالَ ـ نَضْحَكُ أوْ نَرْتَعِشُ مِمّا يَجْري.

قَبْلَ عَقْدِ ٱلحَلْقَةِ يَتَوَزَّعُ ٱلمُريدونَ خُبْزَ الشَّعيرِ ٱلَّذي جاؤوا بِهِ مِنْ بَيْتِ ٱلخَزْنَوِيِّ، ويكونُ لنا نَصيبُنا مِنَ التَّبَرُّكِ بِذلِكَ ٱلخُبْزِ ٱلقاسي. يَجيءُ ضارِبُ الدَّفِّ، (يُسَمّونَهُ «العُرْبانَة»)، ذي ٱلحَلَقاتِ النُّحاسِيَّةِ، وَتَبْدَأُ التَّواشيحُ هادِئَةً، ثُمَّ لا تَلْبَثُ أنْ تَكْتَسِحَ قاماتِ شَجَرِ الصَّفْصافِ عُلُوّاً.

يَتَمايَلُ ٱلمُريدونَ. تَتَمايَلُ الرُّؤوسُ. يَخْتَلِطُ ٱلكلامُ فَيُمْسي هَمْهَمَةً وَدَمْدَمَةً. تَتَشَنَّجُ ٱلوُجوهُ وَتُرْغي ٱلأفْواهُ. يَتَساقَطُ ٱلبَعْضُ غائِباً عَنْ وَعْيِهِ فَيَصْرُخُ ٱلآخَرونَ: «جاءَهُمُ السِّرُّ». وَنَتَمَنّى ـ نَحْنُ ٱلأطْفالَ ـ أنْ يَجيئَنا «السِّرُّ» ذاتَ يَوْمٍ، لكنَّ «السِّرَّ» لا يأتي. نُقْنِعُ أنْفُسَنا أنَّ ٱلمَسْأَلَةَ خاصَّةٌ بِٱلكِبارِ.

يَقولُ بَعْضُ ٱلمُريدينَ إنَّ الشَّيْخَ ٱلخَزْنَوِيَّ يَمْتَعِضُ مِنْ هَذِهِ ٱلحَلَقاتِ، لكنْ ماذا يَفْعَلُ ٱلخَزْنَوِيُّ وهَؤلاءِ هُمْ مَجْدُهُ؟ إنَّهُ

يُولِمُ لِلْمُريدينَ طَوالَ أُسْبوعَيْنِ. يُوْلِمُ لِعَشَراتِ ٱلآلافِ مِنَ ٱلقاصِدينَ. السَّكاكينُ مَشْهورَةٌ أبَداً فَوْقَ أعْناقِ ٱلخِرافِ، وَتَنانيرُ ٱلخُبْزِ مُسْجَرَةٌ أبَداً أمامَ أرْغِفَةِ الشَّعيرِ. هذا دَأْبُ ٱلخَزْنَوِيِّ ٱلأعْظَمِ مَجْداً في الشِّمالِ كُلّه، والأعْظَمِ هَيْبَةً. تَسْتَرضيهِ الحُكوماتُ المُتَعاقِبَةُ كالجَرادِ، وتَسْتَرْضيهِ العَشَائِرُ... وكذلكَ يَسْتَرْضيهِ ٱلأطْفالُ ٱلَّذينَ إذا أقْسَموا لَمْ يَحْنِثوا في ٱلقَسَمِ قَطُّ، لأنَّ ٱلخَزْنويَّ يَتَهَيّأُ في الأحلامِ فَيَأخُذُ بِتلابيبِ ٱلكاذبينَ أو يَضْغَطُ ٱلأعْناقَ حتّى تَجْحَظَ ٱلعيونُ. ويا ما سَمِعْنا أنَّ فُلاناً مِن النّاسِ هَبَّ مِنْ نَوْمِهِ صارِخاً: «التَّوْبَة، التَّوْبَة يا شَيْخ أحمد».

... وَمُريدو الشَّيْخِ ٱلخَزْنَوِيِّ تَقْليديُّونَ. نَحْفَظُهُم عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ. نَحْفَظُ حَرَكاتِهِم وَسُلوكَهُم. نَعْرِفُ النِّساءَ ٱلأكْثَرَ صُراخاً في ٱلحَلَقاتِ، وٱلأكْثَرَ تَطَرُّفاً في تَصَرُّفاتِهِنَّ إذا جاءَهُنَّ «السِّرُّ». لكنَّ شكرو مُريدٌ غَريبٌ، مُريدٌ مُتَقَلِّبٌ طَريفٌ لِلْغايَةِ. يَقْطَعُ تِسْعينَ كيلومتراً مِنَ ٱلمَدينَةِ إلى بَيْتِ ٱلخَزْنَوِيِّ على قَدَمَيْهِ، زاعِماً أنَّ ٱلبَرَكَةَ تكونُ أكْبَرَ إذا كَبُرَتِ ٱلمَشَقَّةُ. وشكرو مُتَوَسِّطُ الطُّولِ، عَريضٌ جِدّاً. يَلْبَسُ ثَلاثَةَ أثْوابٍ بعْضُها فَوْقَ

بَعْضٍ، وَيَرْتَدي تَحْتَها سِرْوالاً مِنَ الصّوفِ، وَفَوْقَها عَباءَةٌ سَميكَةٌ مِنْ شَعْرِ ٱلماعِزِ. يَرْتَدي كُلَّ تِلْكَ الثِّيابِ صَيْفاً شِتاءً، وَيَحْمِلُ في يَدِهِ هِراوَةً طَويلَةً مَرْبوطَةً إلى مِعْصَمِهِ بِخَيْطٍ مِنَ ٱلقُنَّبِ خِشْيَةَ أنْ تَضيعَ. وَلَهُ ـ فَوْقَ هذا ـ هَوَسٌ بِجَمْعِ ٱلخُيوطِ مِنَ الطُّرُقِ. كُلُّ جُيوبِهِ مَلأى بِٱلخيطانِ، وَحينَ تَفيضُ عَنْ جُيوبِهِ يَضَعُها في عمامَتِهِ.

لا عَمَلَ لشكرو غَيْرُ ٱلبَحْثِ عَنِ ٱلولائِمِ، وَلائِمِ ٱلأَعْراسِ أوِ ٱلوِلاداتِ أو ٱلخِتانِ أو ٱلمَوْتِ. وَتَنْتابُهُ نَوْباتُ صَرَعٍ يُرْغي وَيُزْبِدُ فيها كَثَوْرٍ، ثُمَّ يُفيقُ مَنْهوكاً فَيَشْرَبُ سَطْلاً مِنَ ٱلماءِ يَنْدَلِقُ على لِحْيَتِهِ الطَّويلَةِ ٱلكَثَّةِ فَتَسْتَحيلُ إلى مِزْرابٍ. وَلَيْسَ لشكرو بَيْتٌ. يَنامُ كَيْفَما ٱتَّفَقَ لَيْلاً، في زَريبَةٍ أو في خِرْبَةٍ.

كُنّا نَخافُهُ، نَحْنُ ٱلأَطْفالَ، نَخافُ عَيْنَيْهِ ٱلجاحِظَتَيْنِ وَنَوْباتِ صَرَعِهِ، على ٱلعَكْسِ مِنَ النِّساءِ ٱللّائي كُنَّ يَسْمَحْنَ له ـ وَهُوَ الذَّكَرُ ـ بِحضورِ ٱلحَلَقاتِ ٱلخاصَّةِ بِهِنَّ، مُتَعَلِّلاتٍ بقُصورِهِ ٱلعَقْلِيِّ. وكانَ شكرو يَتَحَيَّنُ ذلكَ، بَلْ يَزيدُ في بلاهَتِهِ لِيَنْعَمَ بِٱللُّعْبَةِ، فإذا ٱهْتاجَتْ إحْداهُنَّ وٱدَّعَتِ ٱلإغْماءَ في حَضْرَةِ ٱلإِلَهِ، يَنْهَضُ شكرو إلَيْها فَيَحْمِلُها خارِجَ ٱلحَلْقَةِ. وَقَدْ ضُبِطَ مِراراً

وَهُوَ يَضَعُ آلـمُغْمى عَلَيْها في حِجْرِهِ على صورَةٍ تُنْبِىءُ لا بآلـمُساعَدَةِ، بَلْ بِشَيْءٍ آخَرَ. وَرَأَيْنا مِراراً ـ نَحْنُ آلأطْفالَ ـ أنَّ آلـمُغْمى عَلَيْهِنَّ كُنَّ يَثُبْنَ إلى رُشْدِهِنَّ، لا مِنْ إسْعافاتِ شكرو، بَلْ مِنْ شِدَّةِ آلْتِصاقِهِ بِهِنَّ، كُنَّ يَحْدُجْنَهُ شَزَراً حَدْجاً مُمْتَزِجاً بِشَهْوَةٍ خَفِيَّةٍ، وَيَشْتُمْنَهُ مُشيراتٍ بأبْصارِهِنَّ إلى مَكانٍ مُتَأَهِّبٍ في جَسَدِهِ، فَيَضْحَكُ ضِحْكاً كالنَّشيجِ وَيَسْتَلْقي.

كانَ شكرو مَرِحاً عادَةً، لكنَّ «يَوْمَ الظَّلامِ» أحالَهُ إلى كائِنٍ مُتَجَهِّمٍ مَذْعورٍ. أتَعْرِفونَ «يَوْمَ الظَّلامِ»؟ أفَقْنا ذَاتَ صباحٍ على ظَلامٍ غَريبٍ، ظَلامٍ أسْمَرَ، وكانَ آلـهَوْلُ مُرْتَسِماً على وُجوهِ آلكِبارِ. إنَّهُ الصَّباحُ حقّاً، لكنَّهُ صَباحٌ لا يرى فيهِ آلـمَرْءُ أبْعَدَ مِنْ مِتْرٍ واحِدٍ. خَرَجْنا إلى باحَةِ آلبَيْتِ فَكِدْنا نَضِلُّ الطَّريقَ إلى آلبابِ. الغُبارُ آلـمَلَكِيُّ، آلغُبارُ آلـجَسورُ آقْتَحَمَ آلأرْضَ كُلَّها، كانَ يَنْدَلِقُ مِنَ الزُّجاجِ. يَتَسَرَّبُ مِنَ الزُّجاجِ كما يَتَسَرَّبُ شُعاعُ الشَّمْسِ. كانَ يَنامُ مَعَنا في آلأسِرَّةِ حينَ أفَقْنا. كانَ داخِلَ ثيابِنا.

سَرَتِ آلـهَمْهَماتُ: «إنَّها آلعَلامَةُ». تَوَضَّأَ آلكِبارُ وساروا إلى آلـمَسْجِدِ فَسِرْنا وَراءَهُم نَتَقَرّى آلـحيطانَ كَما يَتَقَرّونَ، عُمْيانٌ

يَجُرُّهُمُ ٱلعُمْيانُ. وعلى بابِ ٱلمَسْجِدِ الضَّخْمِ ٱجْتَمَعَ رِجالُ ٱلحَيِّ كُلُّهُم. تَمْتَماتٌ وَتَعاوِيذُ. يَنْظُرونَ في ٱتِّجاهِ ٱلغَرْبِ ويَقولونَ: «سَتُشْرِقُ مِنْ هُنا».

كانَتْ لُعْبَةً غَريبَةً عَلَيْنا، لُعْبَةً بَدَأَتْ بِقَلَقٍ صَغيرٍ ما لَبِثَ أنْ باتَ تَرَقُّباً حَقيقيّاً لِطُلوعِ الشَّمْسِ مِنَ ٱلغَرْب.

الغبارُ يَنْحَسِرُ قَليلاً. صِرْنا نَرى ٱلبُيوتَ على الرَّصيفِ ٱلمُقابِلِ، لكنَّ ٱلهَوْلَ هو ٱلهَوْلُ: يَروحُ شكْرو وَيَجيءُ في وَسَطِ الشّارِعِ، وحينَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ في ٱتِّجاهِ ٱلغَيْبِ صارِخاً: «مَدَدْ خوجا... مَدَدْ» تَرْتَفِعُ هَراوَتُهُ ٱلمُعَلَّقَةُ بِخَيْطٍ إلى مِعْصَمِهِ. يَصيحُ بِهِ ٱلكِبارُ: «إهْدأ يا شكرو»، فَيَرْكُضُ شكرو إلى ٱلإمامِ ٱلواقِفِ أمامَ بابِ ٱلمَسْجِدِ، يُقَبِّلُ يَدَيْهِ في ضَراعَةٍ، وَيَنْظُرُ إلى وَجْهِهِ مُتَوَسِّلاً. يَقولُ ٱلإمامُ: «لا خَوْفَ على ٱلمُؤْمِنينَ، لا خَوْفَ عَلَيْهِم».

لا نَعْرِفُ لِماذا يَقِفونَ عِنْدَ ٱلبابِ ولا يَدْخُلونَ، لكنَّ بَعْضَ التَّمْتَماتِ يُسَرّي عَنّا: «المَسْجِدُ مَلاذٌ أخيرٌ»... إذَنْ لَمْ يأتِ، بَعْدُ، الخَطَرُ ٱلفادِحُ ٱلَّذي يُلْجِئُنا إلى ٱلمَسْجِدِ. نَتَنَفَّسُ قَليلاً، ثُمَّ نَكْتُمُ أنْفاسَنا حينَ نَسْمَعُ بـ«الدَّجّالِ» و«ٱليأجوجِ وٱلمأجوج».

كائناتٌ سَتَأْتي. كائِناتٌ ذاتُ لِحىً. كائِناتٌ لا يُجاوِزُ طولُها الذِّراعَ، تَأْكُلُ ٱلحَديدَ وَٱلحِجارَةَ... كائِناتٌ يقودُها أعْوَرُ على حِمارٍ أعْوَرَ، يَنْضَمُّ إليهِ ٱلعاصونَ في ٱلأرْضِ، وأكْثَرُهُم مِنَ النِّساءِ. وَهُنَّ سَيَتَقَدَّمْنَهُ عارِياتٍ يُغْوِينَ مَنْ صَمَدَ، وعلامَةُ ٱلمَجيءِ أنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنَ ٱلغَرْبِ.

هذا هو الظَّلامُ النَّذيرُ إذاً، وهذا ٱلغُبارُ هُوَ غُبارُ السّورِ ٱلَّذي ٱنْهارَ، السّورِ ٱلَّذي ضَرَبَهُ ٱللّهُ مِنْ حَوْلِ ٱليَأْجوجِ وَٱلمَأْجوجِ فما ٱسْتطاعوا ٱجْتِيازَه.

يقولُ شكرو للإمامِ: «سَأَرُدُّهُم بِٱلهراوَةِ»، يَقولُ لَهُ ٱلإمامُ: «إهْدَأْ». يقولُ شكرو: «سأعْصِبُ عَيْنَيَّ فلا تَقْدِرُ النِّساءُ على إغْوائي»، فَيَرُدُّ الإمامُ: «إهْدَأْ». يُهَرْوِلُ شكرو مِنْ جَديدٍ رائِحاً غادِياً في وَسَطِ الطَّريقِ، مُبْتَهِلاً: «مَدَدْ خوجا... مَدَدْ».

يَرْتَفِعُ ٱلغُبارُ عَنِ ٱلأرْضِ ظُهراً. تَظْهَرُ ٱلأشْكالُ كَما لَوْ خَرَجَتْ مِنْ بُحَيْرَةٍ تُرابيَّةٍ. يَنْظُرُ النّاسُ إلى أعْلى. تَلوحُ الشَّمْسُ خَلْفَ غُلالَةٍ مُعْتِمَةٍ قُرْصاً أحْمَرَ باهِتاً في وَسَطِ خُوذَةِ السّماءِ. يَحارُ ٱلكِبارُ: «إنَّها في ٱلمُنْتَصَفِ! أتُراها طَلَعَتْ مِنَ الشَّرْقِ أمْ مِنَ ٱلغَرْبِ»؟ يَتَرَيَّثونَ لِيَعْرِفوا في ٱلمَدى ٱلمُقْبِلِ أيْنَ تَميلُ.

لكنَّ شكرو لا يَتَرَيَّثُ. يُلقي بِعمامَتِهِ إلى ٱلأَرْضِ وَيَصْرُخُ: «مِنَ ٱلغَرْبِ، مِنَ ٱلغَرْبِ... مَدَد». ثُمَّ تَنْتابُهُ نَوْبَةُ صَرَعٍ فَيَسْتَلْقي على ٱلقارِعَةِ كَسورِ ٱليأجوجِ ٱلَّذي ٱنْهار.

بَعْدَ حينٍ يَظْهَرُ خَطَأُ التَّقديرِ. تَأَجَّلَتِ ٱلقيامَةُ، وَتَأَجَّلَ خَرابُ ٱلعالَمِ، وعلى ٱلأَرْضِ أنْ تَحْتَمِلَ عِبْئَها قُروناً أُخرى، أنْ تَحْتَمِلَ ٱلمَوْتى وَدَسائِسَهم. وَهُنا يَنْفَضُّ ٱلكِبارُ عَنْ بابِ ٱلمَسْجِدِ وَنَبْقى نَحْنُ الصِّغارَ، فما يَمُرُّ بَعْضُ ٱلوَقْتِ إلّا نَرْكُضُ خَلْفَ أغْنامِ حَمْدانَ الرّاعي، ٱلَّذي خَرَجَ مِنْ حَظيرَتِهِ مُتَأَخِّراً ذلكَ النَّهارَ، لِلْمَرَّةِ ٱلأُوْلى، بَعْدَ ثلاثينَ سَنَةً مِنَ ٱلبُكورِ.

لَيْسَ لِشكرو صَديقٌ ـ كَما نَعْلَمُ ـ غَيْرَ حمدان. وٱلأخيرُ يُؤْويهِ في حَظيرَتِهِ أكْثَرَ ٱللَّيالي. وحمدانُ في ٱلعِقْدِ الرّابِعِ مِنَ ٱلعُمْرِ، يَرْعى غَنَمَ أخيهِ ٱلجَزّارِ غَرْبَ ٱلمَدينَةِ. وَهَبَهُ أخوه، مُقابِلَ عَمَلِهِ، بَيْتاً مُسَيَّجاً بِسورٍ طينيٍّ واطِئٍ. بَيْتاً مِنْ غُرْفَةٍ واحِدَةٍ، يَنامُ فيها مَعَ أتانِهِ وَكَلْبِهِ وَبَعْضِ ٱلخِرافِ ٱلوليدَةِ، وٱنْضَمَّ إلَيْهِم شكرو بَعْدَ ذلك. أمّا ٱلباحَةُ ٱلواسِعَةُ فكانَتْ مِلْكاً لِلأَغْنامِ. لكِنَّ صَداقَتَهُما لَمْ تَدُمْ طَويلاً، لأَنَّ شكرو لَمْ يَكْتُمْ أسْرارَ صاحِبِهِ.

كَبُرَ حمدانُ آليَتيمُ في كَنَفِ أخيهِ آلَّذي أوْكَلَ إليهِ الرَّعْيَ مُنْذُ صِغَرِهِ، فَنَشَأَ لا يَفْقَهُ مِنَ آلمَدينَةِ والنّاسِ غَيْرَ آلأسْماءِ، ولا يُجاوِزُ عالَمُهُ دائِرَةً تَتَّسِعُ لِمائَةِ نَعْجَةٍ. كان وَحيداً تَماماً، وَلَمْ يَصُنْ شكرو أسْرارَ وَحْدَةِ حمدان: كانَ يَتَحَدَّثُ عَنْ علاقَةٍ غريبةٍ بَيْنَ الرّاعي وَبَيْنَ النِّعاجِ. وآسْتَدْرَجَ آلفُضوليّونَ آلكبارُ شكرو لِيَشْرَحَ تِلْكَ آلعلاقاتِ تَفْصيلاً فَلَمْ يُوَفِّرْ شارِدَةً أو وارِدَةً.

كانَ يَقولُ إنَّ حمدانَ يَنْهَضُ لَيْلاً فَيَحْشُرُ آلأتانَ في زاوِيَةٍ، ثُمَّ يَعْتَليها آعتِلاءَ الرَّجُلِ آلمَرْأَةَ، أو يَغْتَصِبُ النِّعاجَ فَوْقَ آلعِرْزالِ.

غَضِبَ حَمْدانُ مِنْ تَشْهيرِ شكرو، لكنَّ غَضَبَ أخيهِ مِنَ آلاثْنَيْنِ كانَ أشَدَّ. وَدَفْعاً لِلأقاويلِ قَرَّرَ تَزْويجَ الرّاعي، فَدَفَعَ ألْفَ ليرةٍ مَهْراً إلى طِفْلَةٍ يَتيمةٍ في آلحادِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها. كانَتْ طِفْلَةً حقّاً، تَسْرُدُ لنا ـ نَحْنُ آلأطْفالَ ـ بِبَلاهَةٍ كَيْفَ يَضْرِبُها حَمْدانُ إذا تَمَنَّعَتْ عَلَيْه، وكَيْفَ يَخْلَعُ ثِيابَها بفَظاظَةٍ كَما يُقَشِّرُ البصَلَ، وَكَيْفَ يَسُدُّ فَمَها بِيَدِهِ آلخَشِنَةِ كَيْ لا يَسْمَعَ صُراخَها أحَدٌ... وَكَيْفَ... وَكَيْفَ... وَنَرْتَجِفُ ـ نَحْنُ

آلَّذينَ آسْتَدْرجوها ـ مِنْ هذا الطَّقْسِ كُلِّهِ، وَمِنْ هذا الرّاعي الشَّيْطانيِّ «زَوْجِ النَّعْجَةِ».

لَمْ يَكُنْ لَنا ـ نَحْنُ بُذورَ الشِّمالِ ـ إلّا أنْ نَخْرُجَ مِنَ الشُّقوقِ مُسْتَسْلِمينَ لِعاصِفَةِ الرُّعْبِ. الرُّعْبُ الرُّعْبُ الرُّعْبُ الرُّعْبُ. بِهِ تَبْدَأُ آلأرْضُ وَبِهِ تَنْتَهي. وَبالرُّعْبِ ذاتِهِ، بآلهَذَيانِ آلَّذي يُسْدِلُهُ الرُّعْبُ على آلأعْماقِ، كانَ عَلَيْنا أنْ نَتواصَلَ في وَسَطِ كَوْكَبٍ مِنْ صُراخِ زَوْجَةِ حمدانَ آلمَكْتومِ، مِنْ صُراخٍ مَديدٍ يَسْتَفْحِلُ وَيَسْتَشْري. وَكُنّا نَضْحَكُ دائِماً، نَرْتَجِفُ مِنَ الضَّحِكِ، نَضْحَكُ مُرْتَجِفينَ. وَكَيْفَ لا نَضْحَكُ من مَشْهَدِ فَتىً راكِضٍ في آلأزِقَّةِ وَخَلْفَهُ آلمُطارِدونَ؟ أتَعْرِفونَ لِماذا يُطارِدونَهُ؟ خَذَلَهُمْ في الدُّخولِ على عَروسِهِ، نَعَمْ... خَذَلَهُم فَطارَدوهُ كآلمَلْعون.

جاءَ وَالِدُ بيرامَ لبيرامَ بِعَروسٍ مِنْ عُمْرِهِ، (كِلاهُما في الرّابِعَةَ عَشْرَةَ)، ثُمَّ أقامَ آلأرْضَ وأقْعَدَها طَبْلاً وَزَمْراً لِتَكونَ شاهِدَ آكْتِمالِ آلفُحولَةِ. وذاتَ لَيْلَةٍ مِنْ ليالي آلكَرْنَفالِ السَّبْعِ دَفَعَ آبْنَهُ إلى غُرْفَةٍ جَهَّزَتِ النِّساءُ فيها عَروسَهُ، وآنْتَظَرَ مَعَ آلمُنْتَظِرينَ خُروجَ آلفَتى رافِعاً بَيْرَقَ آنْتِصارِهِ على غِشاءِ النِّعْمَةِ آلأزَليِّ.

وَطالَ ٱنْتِظارُ ٱلأبِ حتّى الصَّباحِ. وَقْتَذا ٱقْتَحَمَتِ النِّساءُ ٱلقَلِقاتُ مَضْجَعَ ٱلعَروسَيْنِ. رَكَضْنَ يَكْشِفْنَ عَنِ ٱلفتاةِ فَما رَأَيْنَها إلّا كَما دَخَلَتْ، كَنْزاً عَلَيْهِ ٱلقِفْلُ ذاتُهُ. وَلْوَلْنَ فٱرْتَعَدَ ٱلفَتى. جَرَرْنَهُ مِنْ شَعْرِهِ صارِخاتٍ: «إنَّه عِنّيييين». تَمَلَّصَ مِنْهُنَّ ٱلفَتى وَوَلّى هارِباً يَتَعَقَّبُهُ الصِّغارُ الصّاخِبونَ وٱلأقْرِباءُ ٱلَّذينَ خَذَلَهُم، فَغَطّوا وُجوهَهُم مِنَ النّاسِ خَجَلاً بِضْعَةَ أيّامٍ. وَنَضْحَكُ نَحْنُ ٱلأطْفالَ، نَضْحَكُ مِنَ ٱلفَتى ٱلخائِبِ وَنَنْضَمُّ إلى ٱلمُطارِدينَ. هكذا، دونَ إنْذارٍ نُعْلِنُ عَداءَنا. وَجَدْنا، أخيراً، مَنْ نُقاصِصُهُ غَيْرَ خائِفينَ مِنَ ٱلعِقابِ. نَحْمِلُ حِجارَةً خَشِنَةً، نَحْمِلُ التُّرابَ مِلْءَ قَبَضاتِنا وَنَضْرِبُ رأسَ ٱلفَتى. نُمْعِنُ في ٱنتِقامٍ لا سَبَبَ لَهُ. نُمْعِنُ في ٱكْتِشافِ حِقْدِنا على ٱلكائِنِ، على أيِّ كائِنٍ، وحينَ نَعْيا عَنِ ٱللَّحاقِ بِهِ طَويلاً، نَكيلُ لَهُ الشَّتائِمَ ٱلمُرَّةَ، وَنَعودُ أدْراجَنا إلى حَيْثُ نَسْمَعُ هَمْساً غَريباً: «أَلَمْ يُلَقِّنوا ٱلكَلْبَ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ بِيَدِهِ إذا خَذَلَتْهُ ٱلفُحولَةُ؟... تفو». وَنَتَساءَلُ نَحْنُ: «بِيَدِهِ؟» مِنْ دونِ أنْ يكونَ لِلأمْرِ أيُّ مَعْنىً. فٱليَدُ لِلأكلِ وَلِلضَّرْبِ وَلِلسَّرِقَةِ وَلِلَعِبِ البلي لا غَيْرَ. لكنَّ ٱلكِبارَ يَفْعلونَ بأيْديهم أشْياءَ لَمْ تَخْطُرْ على بالِنا.

كانَ ذلكَ كُلُّهُ في ما مَضى مِنْ وَقْتٍ غريبٍ، أَلْقى على رُؤوسِنا نِثاراً مِنْ طحينٍ أسْمَرَ، وَمِنْ حُروفٍ وَنُحاسٍ وأباطيلَ حُلْوَةٍ كَجُذورِ السّوسِ. كان وَقْتاً لَيْسَ لنا، مِثْلَ آلأوْقاتِ كُلِّها آلَّتي تَعاقَبَتْ على آلأرْضِ. بَيْدَ أنَّ آلمَكْسورينَ مِثْلَنا لَمْ يَكونوا لِيَأْبَهوا لآنْكِسارٍ جديدٍ، وَلَمْ يَكُنْ لأَحَدٍ أنْ يأخُذَ مِنْهُم ما لا يَمْلِكونَهُ. لذا وَضَعْنا الدَّبابيسَ في عَلَفِ بَقَراتِ سيروب، وَفَتَحْنا سُدودَ آلمياهِ على حُقولِ غربيت حتّى آخْتَنَقَتْ، ثُمَّ مَضَيْنا إلى مَخادِعِنا لِنَنْهَبَ لَيْلاً ما لَمْ نَقْدِرْ على نَهْبِهِ نَهاراً.

خاتـمة يليها صِبا لـم أكتُبْهُ بعد

وماذا بَعْدُ؟ ماذا عَنِ ٱلكَلْبَةِ السَّوْداءِ توسي ٱلَّتي لَمْ تَتْرُكْ قُنّاً إلّا وَسَرَقَتْ مِنْهُ بَيْضَةً أو صُوصاً؟ ماذا عَنْ قَتْلِها غَرَقاً في مُسْتَنْقَعِ موسيسانا بَعْدَما مَلأتِ ٱلمَذاري ٱلحَديديَّةُ جَسَدَها ثُقوباً؟ ماذا عَنِ ٱلعُصفورِ ذي السّاقِ ٱلواحِدَةِ، ٱلعُصْفورِ التَّراجيديِّ ٱلَّذي كانَ يُزاحِمُ الدَّجاجاتِ على حُبوبِها فَتَنْقُرُهُ الدَّجاجاتُ فَيَنْتحي جانِباً يَنْتَظِرُ فُرْصَةً لاَخْتِلاسِ زادِهِ ٱلمَريرِ؟ ماذا عَنِ ٱصْطيادِكَ لَهُ بَعْدَ تَرَبُّصٍ طَويلٍ، وَعَنْ نَتْفِكَ لِجناحَيْهِ وإلقائِهِ إلى الدَّجاجاتِ لِيَتَناوَبْنَ عَلَيْهِ نَقْراً حتّى ٱلمَوْتِ؟ ماذا عَنْ أُخْوَةِ شاكِر ٱلعَتّالِ، ٱلَّذينَ حَوَّلوا عُرْسَ بَهْرَم إلى مَجْزَرَةٍ، لأَنَّ أخاهُمْ كانَ يَطْمَعُ في الزَّواجِ مِنَ ٱلعروسِ؟ ماذا عَنْ خَطْفِهِمْ لِلْفتاةِ بَعْدَ مَقْتَلِ ٱلعَريسِ وَسِتَّةٍ آخرينَ؟ ماذا عَنِ ٱغْتِصابِها تَحْتَ مَطَرٍ مِنْ زغاريدِ النِّساءِ ٱللَّواتي تَشَفَّيْنَ مِنْ أهْلِ ٱلعروسِ لِرَفْضِهِم تَزْويجَها مِنْ شاكر؟ ماذا عَنْ حندر ٱلَّذي

آجْتازَ آلحُدودَ التُّرْكِيَّةَ في ثلاثينَ رَجُلاً على آلخُيولِ لِيَأْخُذَ عفدي مِنْ بَيْتِهِ سَحْلاً إلى تُرْكيا؟ ماذا عَنْ صُراخِ عَفْدي وَعَويلِه؟ ماذا عَنِ الدَّرَكِ النّائِمِ؟ ماذا عَنْ مخافِرِ آلحُدودِ آلَّتي لَمْ تُحَرِّكْ ساكِناً، وكانَتْ أعْنَفَ ما تكونُ حينَ يَشْتُمُ طِفْلٌ في بلادِهِم طِفْلاً آخَرَ، أو يُعْلِنُ كُرْدِيٌّ أنَّه كُرْدِيٌّ؟ ماذا عَنْ شاور السَّكْران أبَداً، عَنْ وُقوفِهِ أمامَ بَوّاباتِ السّينَما لَيْلاً نَهاراً، حامِلاً وَرَقَةَ حَظٍّ صَغيرةً لِيُقامِرَ على عُلَبِ پول مول؟ ماذا عَنْ سطيفو آلَّذي يَعْبُرُ الطُّرُقَ عارِياً بِنِصْفِهِ آلأعْلى، وَقَدْ كُتِبَتْ على ظَهْرِهِ كَلِمَةُ «طرزان» بِخَطٍّ عَريض؟ ماذا عَنِ حبسونو آلأبْلهِ؟ ماذا عَنِ آلعَتّالينَ آلَّذينَ تَعاقَبوا عليهِ آغتِصاباً داخِلَ سُورِ آلمَلْعَبِ آلبَلَدِيِّ، في وَضَحِ النَّهارِ، أمامَ حَشْدٍ مِنَ آلأطْفالِ الرّاجعينَ مِنَ آلمَدْرَسَة؟ ماذا عَنْ غوليسار الذّائِعَةِ الصّيتِ، قَهْرَمانَةِ آلعاهِراتِ آلمُرَخَّصاتِ، آلَّتي رَفَضَ آلأئِمَّةُ الصَّلاةَ على جُثْمانِها، وَرَفَضَتْها قُبورُ آلمسيحيّينَ وَآلمُسْلمينَ، فَدُفِنَتْ في أرْضٍ خاصَّةٍ، وَحيدةً بَعْدَ مَجْدٍ أمْبراطوريٍّ؟ ماذا عَنِ آلمَلّا أحْمد، إمامِ آلمَسْجِدِ الصَّغيرِ الثّاني في آلمَدينَةِ؟ ماذا عَنْ سُرْعَتِهِ آلمُفْرِطَةِ في آخْتِصارِ خُطْبَةِ آلجُمُعَةِ وصلاتِها معاً؟ ماذا عَنِ آلمُؤَذِّنِ

عبد الرَّحمن آلَّذي رُئِيَ مِراراً يُخْرِجُ مِنْ باطِنِ سُتْرَتِهِ مَجلّاتٍ مُمْتَلِئَةً بِصُوَرٍ عارِيَةٍ؟ ماذا عن ثَوْرِ الصّوفيِّ محمود، آلَّذي آعْتَلى نِصْفَ بَقَراتِ آلأرْضِ مُقابِلَ أجْرٍ عَنْ كُلِّ واحِدَةٍ؟ ماذا عَنْ دريج آلَّذي قامَرَ بِزَوْجَتِهِ ذاتَ لَيْلَةٍ، حينَ نَفِدَتْ نُقودُهُ فآنْتَهَبَ إخْوَتُها لَحْمَهُ بآلخناجِرِ، فَعاشَ، بَعْدَ ذلكَ بِساقٍ ويَدٍ مَشْلولَتَيْنِ وأُذُنٍ واحدَةٍ؟ ماذا عَنِ آلحَيِّ آليهوديِّ وَخَوْفِنا آلغامِضِ مِنْهُ؟ ماذا عَنْ هَضْبَةِ قولو آلَّتي تَتَنَفَّسُ لَيْلاً، وماذا عَنْ سَعالي النَّهارِ في سَهْلَ معيريكا؟ ماذا عَنِ آلكِلابِ ذاتِ الرُّؤوسِ آلآدميَّةِ في مَقْبَرَةِ إنياس؟ ماذا عَنِ آلغَجَرِ آلمُقيمينَ في أرْضِ آلمقالِعِ آلجُنوبيَّةِ، عَنْ نِسائِهِم آللَّواتي حَيْثُما مَرَرْتَ بِصَخْرَةٍ رَأَيْتَ إحْداهُنَّ خَلْفَها، نِصْفَ عارِيَةٍ، تَحْتَ رَجُلٍ غَريبٍ؟ ماذا عَنْ أوسي آلكَهْلِ آلَّذي يَدورُ على آلأحْياءِ حامِلاً على ظَهْرِهِ صُنْدوقاً خَشَبيّاً يَبيعُ فيهِ آلبوظة؟ ماذا عَنِ الغُبارِ آلأبَدِيِّ، وماذا عَنْ بُروقِ الشِّمالِ أيُّها الطِّفْلُ؟

لَقَدْ أيْقَظْتَنا لِنَسْرُدَ آلمَهْزَلَة.

(يليه الذي لا يلي أي شيء)

بيروت، ١٩٧٩

هاتِهِ عاليًا،
هاتِ النّفيرَ على آخره...
(سيرة الصِّبا)

إيذان

لِديكِ بَيْتِ رمّو، وَلِبَغْلِ زيري نُدَبِّجُ كَلِمَةَ آلإِنْشاءِ، وَلِلآدميِّ خِطابَ آللُّهاث. كُلٌّ وَسِحْرُهُ، فلا تُصْغوا إلى أحَدٍ أيُّها الصِّبْيَةُ.

سَيَقولونَ لَكُمْ كَمْ أحبّوا، وَكَمْ كَدَحوا، وَكَمْ سَدّوا مَهَبَّ أقْدارِهِم بآلجَساراتِ. سَيَمْتَحِنونَكُم بِما لَمْ يَمْتَحِنوا أنْفُسَهُم بِهِ، وَسَيَرْفَعونَكُم قليلاً قَليلاً كآلقِطَطِ إلى صُدورِهِم، مُتَمْتِمينَ: «تُصْبِحونَ على خَيْر، أيُّها الطَّيِّعون».

لا تُصْغوا إلى أحَدٍ. لا تَناموا. إرْفعوا آلغِطاءَ في نَزَقٍ، وآنْزِلوا عَنْ أسِرَّتِكُم هارِبينَ مِنَ آلبابِ. لا تَقْلَقوا حينَ تُصْبِحونَ خارِجاً، فالظَّلامُ لا يُخيفُ، بل يُخيفُ النَّهارُ. لا تَقْلَقوا، فأنا جاهِزٌ لِأَدُلَّكُم على آلمَخْبَإ، حَيْثُ لا عَماراتِ، ولا مَدارِسَ، ولا وَقْتَ إلّا لَكُم، وَآلمَكانُ مُشاعٌ تَحوكونَ فيهِ آلأحابيلَ لِلأرْواحِ، وَتُقَهْقِهونَ حتّى تَتَشَظّى آلأرْضُ.

سآخُذُكُم إلى آلعَراءِ؛ سآخُذُكُم إلى آلفَحيحِ آلغامِضِ للسُّكونِ، حَيْثُ آلمَرْتَعُ آلأُبَّهِيُّ لِأقْدارِنا آلَّتي لا تَرْتَطِمُ بسورِ آلبَلَدِيَّةِ، أو بآلأشْجارِ آلمُنَمَّقَةِ في حَديقَةِ آلقائِمَّقام. سَيَخْتَبِىءُ بَعْضُنا من بَعْضٍ تَناوباً، وَسَنُضْرِمُ آلحَرائِقَ الصَّغيرَةَ حَوْلَ آلقنافِذِ. سَنُقَلِّدُ بناتِ آوى، زاحِفينَ على آلحُقولِ نَقْضَمُ آلخُضارَ مِثْلَها، وَسَنَنامُ، إذا تَعِبْنا، في آلأوْكارِ والشُّقوق.

سآخُذُكُم إلى آلمُسْتَنْقعاتِ. سَنَتَعَرّى وَنَدْخُلُ آلمِياهَ لِنَجْمَعَ آلعَناكِبَ الطّافِيَةَ وَبُيوضَ آلأفاعي. وَسَيَقْذِفُ بَعْضُنا بَعْضاً بِجُذورِ آلأُشْنَةِ وَيَرَقاتِ الضَّفادِعِ. وإذْ نَجوعُ سَنَأْكُلُ آلحَرْشوفَ، وَآلحُمَّيْضَ، وَبُصَيْلاتِ البيقونك. وسآخُذُكُم إلى آلجِهَةِ آلَّتي لا يَراها إلّانا؛ جِهَةِ السّاحِرِيِّ؛ جِهَةِ التَّنَكُّراتِ آلكَبيرَةِ، حَيْثُ تَرْتَدي آلفُصولُ قِناعَ آلآدَمِيِّ، وَتَخْرُجُ آلغُيومُ وَآلأرانِبُ مِنْ أوْكارِ واحِدَةٍ.

صَدِّقوني أيُّها الصِّبْيَةُ، أنْ نَصْحَبَ الظَّلامَ يَعْني أنْ نَرى عَبْرَ الشُّقوقِ الصَّغيرَةِ في تَوابيتِ أعْماقِنا مَمالِكَ لَمْ تَنْدَثِرْ بَعْدُ، على تُخومِ آلعَراءِ، هُناكَ، رافِلَةً في نِعْمَةِ أن تُنْسى، وعلى أسْوارِها آلبَنَفْسَجِيَّةِ مَرَحٌ يَعْبَثُ بالسَّناجِبِ.

لَسْتُ أُغْويكُم، لا. أُنْظُروا إلى مُرَوِّضيكُم، يَتَناوَبون على جَعْلِ مَسافاتِكُم أكْثَرَ هَنْدَسَةً، مُرْتَدينَ أمَامَكُم قُبَّعَةَ آلحَكيمِ، وإذ تَنْصَرِفونَ يَنْكَبُّ كُلٌّ على أحابيلِهِ؛ العَتّالونَ، وَآلمُزارِعونَ، والشّاحِناتُ، وآلحُكومَةُ، وَمُدُنُ آلمَلاهي، وَآلمُقامِرونَ، والزَّوْجاتُ، وَالدِّيَكَةُ، وَآلقِطَطُ الشّارِدَةُ، وَآلغيومُ، وآللَّهُ. كُلٌّ يَنْكَبُّ على أحابيلِهِ، فلا تَناموا. لِتَبْقَ عُيونُكُم على أهْلِكُم، فإنْ ناموا آتْبَعوني.

سَنُخَطِّطُ لإصْلاحاتٍ كَبيرةٍ بَيْنَ آلأعْشابِ. سَنُخَطِّطُ لأنْ تَتَجَنَّبَ آلعَرَباتُ آلمُرورَ مِنْ هذا الدَّرْبِ أو مِنْ ذاكَ. سَنُخَطِّطُ لآنْقِلاباتٍ تُحيلُ آلبَغْلَ آلهادِئَ إلى نَمِرٍ: ضَعوا في مُؤَخَّرَتِهِ بَعْضَ النَّشادِرِ وَسَتَرَوْنَ. سَنُخَطِّطُ لإطْفاءِ حَرائِقَ نُشْعِلُها نَحْنُ، وَسَنَدْلُقُ آلمَحابِرَ على ثِيابِنا آلَّتي نَكْرَهُها لِيَشْتَريَ آباؤنا غَيْرَها. سَنَضْرِبُ بأحْذِيَتِنا آلحِجارَةَ بَدَلَ آلكُراتِ لِتَتَفَتَّقَ، وَسَنَخْتَطِفُ طاساتِ الشَّحّاذينَ أمامَ أبوابِ آلمَساجِدِ لِنَجْمَعَ مَصْروفَنا.

لَسْتُ أُغْويكُم. المَكانُ يُغْوي لِتَكونوا لائِقينَ بِهِ، فَأَشْعِلوا حُروبَكُم قَبْلَ أنْ يُشْعِلَ آلآخَرونَ حُروبَهُم، وآتْبَعوني.

النَّفير الأوَّل

الهِياجُ على أشُدِّهِ، والدَّعائِمُ ٱلخَشَبِيَّةُ للسِّياجِ ٱلكَبيرِ تَتَهاوى، واحِدَةً بَعْدَ أُخْرى، حَيْثُ يَنْفُذُ ٱلمُتَسَلِّلونَ ٱلغاضِبونَ مِنْ بَيْنِها إلى مَدينةِ ٱلمَلاهي، حاملينَ ٱلعِصِيَّ وَٱلحِجارَةَ، وَمَنْ لا يَجِدُ ٱلعِصِيَّ أوِ ٱلحِجارَةَ يَسْتَلُّ نِطاقَهُ ٱلجِلْدِيَّ.

قَبْلَ يَوْمٍ واحِدٍ مِنْ هذا ٱلهِياجِ، كانَ التّاريخُ يَحْمِلُ مُؤَشِّرَهُ ٱلخاصَّ بِرياحٍ لا تَهُبُّ إلّا مِنْ جِهَةٍ واحِدَةٍ، تَماماً كَٱلمُؤَشِّرِ ٱلمَنْصوبِ على سَطْحِ مَبْنى ٱلبَلَدِيَّةِ. ولا نَعْرِفُ، حتّى ٱلآنَ، لِماذا نَصَبوا مُؤَشِّراً لِلرِّياحِ على سَطْحِ ذلِكَ ٱلمَبْنى، ٱلَّذي يُصادِرُ مُوَظَّفوهُ مَوازينَ ٱلبَطّيخِ ٱلنُّحاسيَّةَ، والدَّرّاجاتِ.

كانَ التّاريخُ، قَبْلَ يَوْمٍ واحِدٍ مِنْ هذا ٱلهِياجِ، يَرْتَدي حِذاءَهُ ٱلخاصَّ، وَشاراتِهِ الصّارِمَةَ كشاراتِ ٱلعَسْكَرِيِّ، وَمِلْءَ أوراقِهِ كِتاباتٌ رَسْمِيَّةٌ حازِمَةٌ وَخُطَبٌ كَثيرةٌ عَنِ النُّهوضِ بِٱلعالَمِ ٱلعَرَبيِّ إلى السُّدَّةِ ٱلَّتي ٱنْزَلَقَ عَنْها، كما كُنّا نَنْزَلِقُ على طُرُقِنا

آلمُوحِلَةِ قَبْلَ أنْ نَدْلِفَ إلى بُيوتِنا آلمَرْفوعَةِ كَنُصُبٍ مِنْ طينٍ لإلهٍ طينيّ.

لكنَّ التّاريخَ تَعَرّى ذلِكَ آليَوْمَ، بَلْ فَقَدَ آتِّزانَهُ، وَهَبَّ راكِضاً كآلجَمْعِ الرّاكِضِ، مُخْتَرِقاً سِياجَ مَدينَةِ آلمَلاهي، إلى حَيْثُ أوْصَدَ حَشْدٌ مِنَ آلعُمّالِ آلمِصْريّينَ عَلَيْهِم أبْوابَ مَقْطوراتِهِمُ آلخَشَبِيَّةَ، وكانوا مَذْعورينَ، يَصْرُخونَ بِلَهْجَتِهِم آلحُلْوَةِ، وَيَتَكَوَّمونَ كَأَسْرى.

لَكَمْ أحْبَبْنا مَدينةَ آلمَلاهي تِلْكَ. لَكَمْ سَرَقْنا النُّقودَ لِنَدْخُلَها مِنْ حَيْثُ لا خَوْفَ على الدّاخِلين، أوْ تَسَلَّلْنا عبْرَ السِّياجِ آلكبيرِ مِنْ حُفَرٍ لا تَتَّسِعُ لِجُرَذٍ. وَكُنّا نَحيفينَ؛ كُنّا صِبْيَةً نَحيفينَ، آنذاكَ، إلى دَرَجَةٍ نَسْتَطيعُ مَعَها عُبورَ ثَقْبٍ في قُفْلٍ، مَبْهورينَ آنْبِهارَ عَصْرٍ بِعَصْرٍ: سُفُنٌ لا تَلْمُسُ آلماءَ، ولا تَلْمُسُ آلأرْضَ، بَلْ تَدورُ حَوْلَ قاعِدَةٍ عالِيَةٍ، في حَرَكَةٍ تَقْطَعُ النَّفَسَ هُبوطاً وَصُعوداً. مُشَعْوِذونَ يَجْعَلونَكَ تَتَبَوَّلُ في قُمْعٍ مِنْ دونِ أنْ تَتَبَوَّلَ، وَيُخْرِجونَ كُراتٍ مِنْ أُذُنَيْكَ مِنْ دونِ أنْ تُحِسَّ بِها، وَيُحْرِقونَ النُّقودَ وَيُفَتِّشونَكَ فإذا بِكَ لِصٌّ تَجْهَلُ كَيْفَ سَرَقْتَ، وَمَتى سَرَقْتَ. مُهَرِّجونَ يُطْلِقونَ النُّكاتِ بِتَلميحاتٍ جِنْسِيَّةٍ

تَبْعَثُ في آلجالِسينَ مَوْجَةً مِنَ آلعَويلِ والصَّفيرِ، وَكُنّا لا نَعْرِفُ لِماذا يَضْحَكُ آلجالِسونَ، وأكْثَرُهُم لا يُتْقِنُ آلعَرَبيَّةَ، فَكَيْفَ يَفْهَمونَ لَهْجَةً كأنَّها مِنْ أقاصي آلأرْضِ؛ مِنْ أقاصي كُتُبِنا آلجُغْرافيَّةِ آلَّتي طالَما تَحَدَّثَتْ عَنْ خُصوبَةِ تُرابِنا، وأطْوالِ أنْهارِنا، وَبِتْرولِنا، وأسْماكِ بِحارِنا، وَلَمْ تَقُلْ لنا لِماذا لا نَمْلِكُ شَيْئاً مِنْ ذلِكَ. (كُنّا نُقارِنُ آلبَحْرَ في ذاكِرَتِنا بِبُحَيْرَةِ قاسمو آلَّتي لا تُجاوِزُ ٥٠٠ مِتْرٍ مُرَبَّعٍ). وكانَ ثَمَّتَ أماكِنُ مُغْلَقَةٌ لا يَسْمَحون لَنا بِدُخولِها: «أنْتُم صِغارٌ... تَنَحَّوْا يا صِغارُ»، لكِنَّنا كُنّا نَحْشُرُ أنوفَنا بَيْنَ فُرْجاتِ آلألْواحِ آلخَشَبِيَّةِ، لِنَلْمَحَ عَبْرَ الدُّخانِ، وَعَبْرَ ذُهولِ آلجالِسينَ على كَراسي آلقَشِّ آلوَطيئَةِ، نِساءً يَتَلَوَّيْنَ في حَرَكاتٍ فَظَّةٍ، رافِعاتٍ أثوابَهُنَّ، بَيْنَ آلحينِ وَآلحينِ، عَنْ ملابِسَ داخِلِيَّةٍ حَمْراءَ، فَنَصْرُخُ: «يا لَلأرْتِسْتاتِ»، (كَلِمَةُ أرْتِسْت مُعادِلَةٌ لِكَلِمَةِ عاهِرَةٍ عِنْدَنا). وَبِرُغْمِ ذلكَ أحْبَبْنا مَدينةَ آلمَلاهي، آلَّتي حَلَّتْ بِصَخَبِها في تِلْكَ آلأرْضِ النّائِيَةِ، ذاتَ صَيْفٍ أخيرٍ، لَمْ يَعْقُبْهُ إلّا هِياجٌ أخيرٌ، وقد جاءَ بِها مِصْرِيّونَ كانوا يَمْسَحونَ عَرَقَ جِباهِهِم بِمَناديلَ مِنْ وَرَقٍ لِكَثْرَةِ تَقاطُرِ آلفُضولِيّينَ بِنُقودِهِم آلفِضِّيَّةِ، لكنْ ما لَبِثوا أنْ مَسَحوا عَرَقَ جِباهِهِم، ثانِيَةً، بِأكْمامِهِم،

حينَ ٱخْتَرَقَ ٱلغاضِبونَ بتاريخِهِم ٱلعاري مِنْ شاراتِهِ، وَرصانَتِهِ، السِّياجاتِ ٱلعاليَةَ، وَحَطَّموا كُلَّ شَيْءٍ.

في ذلكَ النَّهارِ تُلِيَ ٱلبَيانُ ٱلأوَّلُ، وكانَ بَياناً مُنَمَّقاً عَنْ أخْطاءٍ، وَتَجاوُزاتٍ، وَوَحْدَةٍ مِنْ فَوْقُ، وآسْتِخْباراتٍ، وَقَمْعٍ، وَشَعْبٍ لا يَدَ لَهُ في ٱلأمْرِ، وإصْلاحاتٍ مَقْلوبَةٍ... إلخ. وَبَعْدَ ساعاتٍ، حينَ حَلَّ مكانَ الذُّهولِ على ٱلوُجوهِ شَيءٌ آخَرُ، تَدافَعَ ٱلغاضِبونَ صَوْبَ مَدينةِ ٱلمَلاهي. أخْرَجوا الرّاقِصاتِ مِنْ مَقْصوراتِهِنَّ وَقَدِ ٱلْتَصَقوا بِهِنَّ مِنْ خَلْفٍ، في هِياجٍ لا يَنِمُّ عَنْ غَضَبٍ، بَلْ عَنْ شَبَقٍ عامٍّ. بَيْدَ أنَّ ٱلمُشَعْوِذينَ، وَٱلمُهَرِّجينَ، وَٱلعُمّالَ، كانوا أقَلَّ حَظّاً، فَتَناثَرَتْ ثِيابُهُم، وَقُبّعاتُهُمُ ٱلوَرَقِيَّةُ، وَأحْذِيَتُهُم، وَكُراتُهُم الصَّغيرةُ ٱلبَيْضاءُ، وَمناديلُ السِّحْرِ، وَٱلأرانِبُ، وَبَعْضُ ٱلحَماماتِ، على مَدى ٱلمَكانِ التُّرابيِّ. حَصَلَ كُلُّ ذَلِكَ قَبْلَ أنْ تَصِلَ الشُّرْطَةُ فَتَجْعَلَ ٱلكُلَّ سَواسِيَةً في ٱلفَوْضى. ضَرْبٌ هُنا، وَضَرْبٌ هُناكَ، وَسَطَ قَهْقَهاتِ ٱلغُبارِ.

في ٱلأيّامِ ٱلَّتي تَلَتْ ذلِكَ ٱلهِياجَ بَدَأَتِ ٱلأرْضُ تَسْتَجْمِعُ مَعالِمَ أُخرى: خَرَجَتِ ٱلأحْزابُ إلى الطُّرُقاتِ، مُسَلَّحَةً بِٱلعِصِيّ، وَبقَبَضاتٍ مِنَ النُّحاسِ ذاتِ عُقَدٍ مُسَنَّنَةٍ، وبالسَّكاكينِ،

وَسلاسِلِ آلحَديدِ آلَّتي يُمْكِنُ إخْفاؤها تَحْتَ آلقُمْصانِ، وَكَذلِكَ بِشِعاراتِهِم. لَقَدْ رأَيْنا، لأوَّلِ مَرَّةٍ في ذلِكَ آلعُمْرِ آلغَضِّ، أنَّ آلحُكومَةَ لا تُؤْثِرُ حِزْباً على حِزْبٍ، ولا شِعاراً على شِعارٍ نَقيضٍ. وَرَأَيْنا، لأوَّلِ مَرَّةٍ، مَجَلَّةً تَحْمِلُ صُوَراً كاريكاتوريَّةً لأفْرادِ آلحُكومَةِ، فَصَرخْنا: «يا لَلْهَوْلِ. سَيُعْدِمونَ رَبَّ آلمَجَلَّةِ وَرَبَّ رَبِّها» لكِنَّ أحَداً لَمْ يَمَسَّ أحداً بِأذىً، بآسْتِثْناءِ آلأحْزابِ آلَّتي مَزَّقَ مُناصِرو بَعْضِها قُمْصانَ مُناصِري آلبَعْضِ آلآخَرِ، وَهَشَّموا الدَّرّاجاتِ آلهوائِيَّةَ، وَرُؤوسَ آلَّذينَ سَقَطوا تَحْتَ آلأرْجُلِ. أمّا رِجالُ الشُّرْطَةِ فَتَحَوَّلوا إلى مُصْلِحينَ. كانوا يَجْمَعونَ آلمُتَحارِبينَ في سيّاراتِهِم لِيَقودوهُم إلى آلمَخْفَرِ آلوَحيدِ، وَهُناكَ يَسْتَبْقونَهُم عِدَّةَ أيّامٍ فَقَطْ، ثُمَّ يُطْلِقونَ سَراحَ آلجَميعِ. «يا لِلْحُكومَةِ» كُنّا نَهْتِفُ. «ويا لِلْحِزْبِ» كانَ يَهْتِفُ آلمُحازِبون.

كُنّا صِبْيَةً آنئِذٍ، يَخْرُجُ بِنا آلمُعَلِّمونَ على هَواهُم في التَّظاهُراتِ آلوَطَنِيَّةِ، وَلَمْ يَبْقَ واحِدٌ مِنْهُم لَمْ نَهْتِفْ بِشِعارِ حِزْبِهِ. وكانوا يَخْتَلِفونَ فيما بَيْنَهُم، فَيَقودُ بَعْضُهُم فَريقاً مِنَ التَّلامِذَةِ عَبْرَ شارِعٍ أَوَّلَ، وفريقاً عَبْرَ شارِعٍ ثانٍ، وثالِثٍ، ورابعٍ... بَيْدَ

أنَّنا جَمَعْنا شِعاراتِ ٱلفُرَقاءِ جَميعاً كَما نَجْمَعُ الطَّوابِعَ، مُتَسَلِّلينَ مِنْ شارِعٍ إلى شارِعٍ، هاتِفينَ في كُلٍّ مِنْها كَما يَهْتِفونَ. وكانَ ٱسْتِغْرابُنا على أَشُدِّهِ، فَلَيْسَ لِمُعَلِّمٍ عَلَيْنا سُلْطَةٌ أنْ نَمْضيَ مَعَهُ وَمَعَ هُتافاتِهِ، وَلَيْسَ لِمُعَلِّمٍ أنْ يُوَبِّخَنا إذا رآنا في تَظاهُرَةِ مُعَلِّمٍ آخَرَ. إيه، كانَ زَمَنَ تَظاهُراتٍ، مُبَرِّرُها ٱلأَوْحَدُ أنَّ ٱلكُلَّ قادِرونَ على تَحْويلِ ٱلوَقْتِ إلى عُرْسٍ خاصٍّ. وَٱلكُلُّ قادِرونَ على نَسْجِ صَخَبٍ نَسُوا كَيْفَ يُعادُ نَسْجُهُ. وٱلكُلُّ قادِرونَ على تَهْديدٍ مُتوازِنٍ لا يَغْلِبُ فيهِ أَحَدٌ أَحَداً. وَلِماذا لا يَجْعَلونَ الصَّخَبَ، في كُلِّ آنٍ، مَنْبَعاً للصُّراخِ؟ وَلِماذا لا يَمْتَحِنونَ حَناجِرَهُم، وكانَتْ مِلْكاً رَسْمِيّاً لِلْحُكومَةِ: تَقولُ ٱهْتِفوا فَيَهْتِفونَ. وَتَقولُ ٱصْمُتوا فَيَصْمُتونَ. وَتَقولُ لا حَناجِرَ لَكُمْ، فَيَكْتُبونَ على ٱللَّوْحِ ٱلأَسْوَدِ بِطباشيرِ ٱلكِلْسِ: عاشَ مَنْ لا حَناجِرَ لَهُم. تَسْقُطُ مِلْكِيَّةُ ٱلحَناجِرِ. يَسْقُطُ ٱلفَرْدِيّونَ ٱلَّذين يَمْلِكونَ ٱلحَناجِرَ. تَسْقُطُ ٱلحَنْجَرَةُ، وَٱلمَريءُ، وَٱلقَصَبَةُ ٱلهَوائِيَّةُ، وَٱلقَلْبُ، وَٱلبَنْكِرْياسُ، وٱلكَبِدُ، وَٱلمَثانَةُ، وَٱلكِلْيَتانِ، وَشَحْمَةُ ٱلكُظْرانِ، وَمَجْرى ٱلبَوْلِ، وَٱلإِحْليلُ، وَٱلخِصْيَتانِ. تَسْقُطُ، تَسْقُطُ، تَسْقُطُ. وَنَهْتِفُ: تَسْقُطُ، تَسْقُطُ، تَسْقُطُ.

يَسْقُطُ كِتابُ التَّشْريحِ ٱلَّذي يُعَلِّمُنا أنَّ لِلإنْسانِ حَنْجَرَةً.

لَقَدْ تَذَكَّرْنا، بَعْدَ أيّامِ الصَّخَبِ تِلْكَ، رَنينَ أصْواتِنا، وَأنَّنا قادِرونَ ـ كَمَخْلوقاتٍ مِنْ مَخْلوقاتِ الطَّبيعةِ ـ على ٱلعُواءِ، وَٱلعَويلِ، وَالتَّمْتَمَةِ، وَالضَّحِكِ. وَٱلأَهَمُّ مِنْ هذا كُلِّهِ تَذَكَّرْنا أنَّنا قادِرونَ على إدارَةِ الصَّخَبِ بِنِظامٍ لا فَوْضى بَعْدَهُ. فَنَحْنُ أُناسٌ صاخبونَ بالسَّليقةِ، مُتَعَوِّدونَ على ٱنْتِهارِ ٱلحَميرِ وَٱلبِغالِ ٱلَّتي تَقودُ عَرَباتِنا ٱلمُحَمَّلَةِ بِٱلبَطّيخِ إلى سوقِ ٱلمَدينَةِ، وَكَذلكَ قِطْعانَ ٱلغَنَمِ، وَإخوتَنا الصِّغارَ، بِسَبَبٍ وَبِغَيْرِ ما سَبَبٍ. نَشْتُمُ أُمَّهاتِنا، وَنُوصِدُ ٱلأبْوابَ وَراءَنا في عُنْفٍ، وَكَذلِكَ يَفْعَلُ آباؤنا الرّاجِعونَ في ظَهيراتِ صَيْفِ الشِّمالِ إلى ٱلبُيوتِ، حَيْثُ تُكَلِّلُ رُؤوسَهُم هالاتٌ نورانِيَّةٌ مِنَ التَّعَبِ ٱلمُرِّ وَٱلعَرَقِ.

مُحْتَكِرو صَخَبٍ نَحْنُ ٱلآنَ، تَماماً مِثْلَ مُعَلِّمِ الرِّياضَةِ ٱلحِزْبيِّ قَبْلَ مَجيءِ ٱلفَوْضى؛ ٱلمُعَلِّمِ ٱلَّذي يُعَدُّ في ٱلمَرْتَبَةِ ٱلعاشِرَةِ تَصْنيفاً بَيْنَ ٱلمُعَلّمينَ، لكِنَّهُ كان ـ بِحُكْمِ حِزْبيَّتِهِ ـ إلهَ ٱلآلِهَةِ، يُعَنِّفُ مُديرَ ٱلمَدْرَسَةِ، وَيَضْرِبُ ٱلمُعَلِّمينَ إذا ٱقْتضى ٱلأمْرُ، مُخْتالاً بِسُلْطَةِ تَقاريرِهِ ٱلَّتي يَرْفَعُها عَنِ ٱلمَشْبوهينَ إلى مَكْتَبِ حِزْبِهِ ـ ٱلحِزْبِ ٱلأوْحَدِ في عَراءٍ لا عَراءَ بَعْدَهُ. وَيَشْتُمُ

أُمَّهاتِ ٱلتَّلاميذِ وآباءَهُم، وآباءَ آبائِهِم، وأرْضَهُم وسَماءَهُم. يَشْتُمُ كَيْفَما ٱتَّفَقَ، في مَدْرَسَةٍ كانَ هَمُّها أنْ تَقولَ لنا: «لا تَشْتُموا». وكانَ يُراقِبُنا في الصَّباحاتِ ٱلباكِرَةِ، حينَ نَقِفُ صُفوفاً صُفوفاً مُرَدِّدينَ أناشيدَ ٱلكَرامَةِ وَٱلفَخْرِ ٱلوَطَنِيِّ، ناعِسينَ، شُعْثَ الشُّعورِ، وَحَوْلَ عُيونِنا مِنَ ٱلقَذَى ما يُنَفِّرُ حُكومَةً بكامِلِها، وَيُنَفِّرُ ٱلجَيْشَ وَالشُّرْطَةَ وَمُوَظَّفي الدَّوْلَةِ. وَعَلَيْنا مَظاهِرُ مِنَ اللّاتناسُقِ تَجْعَلُهُم، جَميعاً، يَحْزُمونَ سُلْطَتَهُم ذَهاباً إلى شَعْبٍ آخَرَ. كانَتْ صَدارينا ٱلمَدْرَسِيَّةُ مُمَزَّقَةً مِنَ ٱلأكْتافِ أبَداً، مُلَطَّخَةً بٱلحِبْرِ وَٱلوَحْلِ شِتاءً، وَبِعُصارَةِ ٱلعُشْبِ والتُّرابِ رَبيعاً، وأظافِرُنا مَقْضومَةً بٱلأسْنانِ، أمّا ٱلأحْذِيَةُ فَمِلْؤُها ٱلماءُ الدَّبِقُ، أوِ العُصارَةُ ٱلفَريدَةُ مِنَ ٱلعَرَقِ وَٱلغُبار، مُتَفَتِّقَةٌ مِنْ أمامٍ، ولا كُعوبَ لها.

هكذا نَحْنُ أيَّتُها الدَّوْلَةُ؛ هَكذا نَحْنُ يا مُعَلِّمَ الرِّياضَةِ ٱلحِزْبِيَّ. لكنَّ ٱلمُعَلِّمَ لَمْ يَغْفِرْ لنا هذا: «ألا يَمْلِكُ آباؤكُم ثَمَنَ أحْذِيَةٍ يا أولادَ ٱلعاهِراتِ؟ ألا تَمْلِكُ أُمَّهاتُكُمُ ٱلخيطانَ؟»، يقولُ ذلكَ في ٱسْتِعْراضِهِ الصَّباحِيِّ بِرِفْقَةِ ٱلمُديرِ، ٱلَّذي يَنْكَمِشُ في ثيابِهِ خَجِلاً مِنْ سُلْطَتِهِ ٱلمَفْقودَةِ، إلى دَرَجَةٍ لا

نَلْمَحُ مَعَها مُديراً، بَلْ ثياباً على مِشْجَبٍ مُنْحَنٍ، تَتَنَفَّسُ وَحْدَها، وَتَتَحَرَّكُ بِفِعْلِ هَواءٍ خَفيٍّ.

يَصْرُخُ ٱلْمُعَلِّمُ ٱلْحِزْبيُّ فَجْأَةً: «ٱنْبَطِحوا» فَنَنْبَطِحُ على بُطونِنا. يقولُ: «ٱزْحَفوا حتّى الدَّرَجِ ٱلَّذي يَقودُ إلى غُرَفِ التَّدْريسِ»، فَنَزْحَفُ حتّى الدَّرَجِ، ثُمَّ نَصْعَدُهُ زَحْفاً، ثُمَّ نَسْتَمِرُّ حتّى غُرَفِ التَّدْريسِ، وَمِنْها نَدْخُلُ ٱللَّوْحَ ٱلأَسْوَدَ الطَّويلَ على ٱلحائِطِ. نَدْخُلُ السَّوادَ على بُطونِنا مِنْ أَوَّلِ ٱلأَرْضِ إلى آخِرِها (هذِهِ ٱلأَرْضُ ٱلْمُسَطَّحَةُ، ٱلَّتي يَرى أَصْغَرُ مُراقِبٍ حُكوميٍّ، مِنْ شِمالِها، أَبْعَدَ دَجاجَةٍ في جُنوبِها)، وَنَخْرُجُ، بَعْدَئِذٍ مُعَفَّرينَ بِهَبابِ الطَّباشيرِ كَعَتّالي الطّاحونَةِ، لِنَجْلِسَ على مَقاعِدِنا ٱلْخَشَبِيَّةِ مُتَصالبي ٱلأَيْدي على الصُّدورِ. وَحينَ يَدْخُلُ مُعَلِّمُ ٱلحِصَّةِ ٱلأُوْلى نَهُبُّ واقِفينَ: «صباحُ ٱلخَيْرِ يا أُستاذ»، فَيَتَمَلاّنا في ضَجَرٍ، وَيُشيرُ بِيَدِهِ أَنِ ٱجْلِسوا، ثُمَّ تَبْدَأُ ٱلمَهْزَلَةُ.

كانَ هذا قَبْلَ مَجيءِ الصَّخَبِ ٱلَّذي مَلَأَ ساحَةَ مَدينةِ ٱلمَلاهي بِسراويلِ الرّاقصاتِ ٱلْمُمَزَّقَةِ، قَبْلَ أَنْ تَسْتَحيلَ مدينةُ ٱلمَلاهي ثَدْياً يَقْضَمُهُ ٱلجائِعونَ. وَٱلآنَ، لَنْ يَعودَ ٱلْمُعَلِّمُ ٱلحِزْبيُّ إلى ٱلمَدْرَسَةِ قَطُّ. لَقَدْ حاصَرَتِ النِّساءُ الرّيفيّاتُ بَيْتَهُ،

وَأخْرَجْنهُ بثيابِ النَّوْمِ، (كانَ واضِحاً أنَّه لَمْ يَنَمْ)، مُرْتَجِفاً، ٱبْنَ ٱلجَرْوِ، صارِخاتٍ: «قُلْها مَرَّةً ثانِيَةً، قُلْها... أنَحْنُ عاهِراتٌ؟ أأبْناؤنا أوْلادُ قَحْبَةٍ؟ قُلْها مَرَّةً ثانِيَةً، قُلْها. أيْنَ أُمُّكَ يا قَحْبُ؟ سَنَرْفَعُ فَخْذَيْ أُمِّكَ لِرِجالنا حتّى تَمْتَلِيءَ كٱلبَرْميلِ. أأُمُّكَ واسِعَةٌ يا قَحْبُ؟ سَنُدْخِلُ فيها أحْذِيَتَنا؛ سَنُدْخِلُ فيها أعْمِدَةَ ٱلمَدْرَسَةِ»، وَيُهْوِينَ عَلَيْهِ بأحْذِيَتِهِنَّ ٱلپلاسْتيكيَّةِ وَقَباقيبِهِنَّ، وَٱلمُعَلِّمُ يَرْتَجِفُ حتّى أعْماقِ أُمِّهِ. بَيْدَ أنَّهُ ٱنْتَفَضَ ٱنْتِفاضَةً أذْهَلَتْنا. صَرَخَ وَتَصالَبَ. ٱخْتَفى صَوْتُهُ لِيَحِلَّ مَحَلَّهُ عُواءٌ خافِتٌ. جَحَظَتْ عيناهُ وٱزْرَقَّ لَوْنُهُ. كانَتْ إحداهُنَّ قَدْ أمْسَكَتْ خِصْيَتَيْهِ، وَظَلَّتْ تَعْتَصِرُهُما حتّى خَرَجَتْ رَغْوَةٌ بَيْضاءُ مِنْ فَمِهِ، وَٱنْسابَتْ على صَدْرِهِ في خَيْطٍ لَزِجٍ. لَقَدْ مَضى ٱبْنُ أُمِّهِ في غَيْبوبَةٍ لَحْمِيَّةٍ لَمْ يُفِقْ مِنْها. مَضى ٱلمُدَلَّلُ كما مَضَتِ ٱلحُكومَةُ وعاهِراتُ مَدينَةِ ٱلمَلاهي، ٱللَّواتي كُنَّ يُقَدِّمْنَ وَصَلاتٍ راقِصَةً، بٱسْمِ ٱلفَنِّ، حتّى الثّانيةَ عَشْرَةَ لَيْلاً، وَيُقَدِّمْنَ وَصلاتٍ أُخْرى، بَعْدَ ساعاتِ ٱلعَمَلِ، بٱسْمِ ٱلٱنْشِراحِ ٱلوَطَنيِّ، حَيْثُ تَأْخُذُهُنَّ سَيّاراتٌ مَدَنِيَّةٌ يَقودُها رِجالٌ تَتَدَلّى مُسَدّساتُهُم مِنْ تَحْتِ ٱلقُمْصانِ.

عاشَ الصَّخَبُ آلآنَ، عاشَ رَبُّ الصَّخَبِ، وَمَحْظِيّاتُهُ، وأطْفالُهُ. عاشَ آلمُعَلّمونَ آلَّذين باتوا يَدْخُلونَ - بَعْدَ أيّامِ الصَّخَبِ - إلى حُجُراتِ التَّدْريسِ بِمَرَحٍ، وَيُعابِثونَ الصِّبْيَةَ ولا يَضْرِبون. فَلْيَعُمَّ الصَّخَبُ العالَمَ إذا كانَ لَطيفاً كَهذا الصَّخَبِ. فَلْيَأْتِ كُلَّ يَوْمٍ لِيَأْخُذَ مُعَلِّماً فَظّاً أوْ مُخْبِراً. فَلْيَأْتِ كُلَّ يَوْمٍ لِتَقِلَّ حُظْوَةُ أبْناءِ آلحِزْبِيّينَ في آلمَدْرَسَةِ. فَلْيُوَحِّدْنا الصَّخَبُ آلعَريقُ.

لَقَدْ قيلَ لنا: لَوْ لَمْ يَأْتِ هذا الصَّخَبُ لَجاءَ ميرو. وَبِتْنا نَشْكُرُ - نَحْنُ الصِّبْيَةَ - رَأفَةَ آلقَدَرِ تِلْكَ؛ رَأْفَةَ أنْ تُدَمِّرَ حُكومةٌ حُكومَةً أُخْرى لِيَتَأَجَّلَ مَجيءُ ميرو، فَهُوَ لَنْ يَذَرَ حَجَراً على حَجَرٍ، وَسَيَذْهَبُ بآلعُقولِ. سَيُعيدُ آلأرْضَ كَما كانَتْ، مُوحِشَةً، صَلْبَةً، يَسْلَخُ آلآدَمِيَّ فيها آلآدَمِيَّ لِيَرْتَدِيَ جِلْدَهُ.

لا بُدَّ مِنَ آلخَرابِ، إذاً، بَيْنَ حينٍ وَحينٍ. لا بُدَّ مِنْ زَوابِعَ غُبارِيَّةٍ تَنْفُخُ كُورَها حتّى تَلينَ آلبُيوتُ فَتَميلَ كآلغُصونِ، ولا بُدَّ مِنْ سُيولٍ تُعيدُ آلبُيوتَ عَجيناً أحْمَرَ، وَتَتْرُكُ وَراءَها جِسْرَيِ آلمَدينَةِ آلوَحيدَيْنِ هَياكِلَ عارِيَةً. لا بُدَّ مِنْ حُكوماتٍ مُتعاقِبَةٍ يَنْتَزِعُ آلعَسْكَرِيّونَ فيها شاراتِ آلعَسْكَرِيّينَ وأحْذِيَتَهُم، وَيُلْقي آلخَلَفُ بأوْراقِ السَّلَفِ مِنْ شَبابيكِ السَّراي: «وَداعاً

لِلاّنْتِهازيّينَ»، هذا ما يَهْتِفُ به آلخَلَفُ. «وداعاً لِلاّنْتِهازيّين»، يَهْتِفُ خَلَفُ آلخَلَفِ. «وداعاً لِلاّنْتِهازيّين»، يَهْتِفُ خَلَفُ خَلَفِ آلخَلَفِ. وَآلكُلُّ يَرْتَدي آلشّاراتِ وَآلأوْسِمَةَ آلّتي غَنِمَها مِنْ سابِقِهِ، وَكَذلِكَ أحْذِيَتَهُ وَقُبَّعاتِهِ، وَيَجْلِسُ وَراءَ آلمِنْضَدَةِ ذاتِها آلّتي لا تَنْقَطِعُ خَشْخَشَةُ آلأوْراقِ عَلَيْها، بِفِعْلِ آلمِرْوَحَةِ آلكَهْرَبائيَّةِ آلمُعَلَّقَةِ إلى السَّقْف.

فَلْيَحْيَ آلخَرابُ إذاً، فَلَوْلاهُ لَجاءَ ميرو. هذا ما يَقولونَهُ لنا وَيُضيفونَ: «إذا آمْتَدَّ السَّلامُ على آلأرْضِ خَمْسينَ سَنَةً، مِنْ دونِ زَوابِعَ أوْ سُيولٍ، أوِ آنْقِلاباتٍ دَمَوِيَّةٍ، سَيَأْتي ميرو. ميرو لن يَحْتَمِلَ هُدوءاً صَلْباً يَمْتَدُّ خَمْسينَ سَنَةً، وَهُوَ آلّذي لَمْ يَعِشْ يَوْماً واحِداً، في حياتِهِ آلأرْضِيَّةِ، مِنْ غَيْرِ دَمٍ أو كارِثَةٍ». وَنَسْألُ: «أماتَ ميرو؟»، فَيَرُدّونَ: «لا. مضى بِقَطيعِهِ مِنَ آلأكْباشِ الشَّيْطانيَّةِ، ذاتَ غُروبٍ، مُتَوَعِّداً باَقْتِحامِ آلأرْضِ. مَضى إلى الظَّلامِ؛ إلى آلجِهَةِ آلّتي تَظَلُّ ظَلاماً».

آهِ ميرو. مَنْ أنْتَ بآللّهِ عَلَيْكَ؟ ومَنْ أنْتَ لِنَعُدَّ السِّنينَ؟ مَنْ أنْتَ لِنُحْصِيَ عَلى آلأرْضِ ساعاتِ هُدوئِها؟ ألا تَسْتَريحُ ميرو؟ نُريدُ أنْ نَسْتَريحَ.

وَمَعَ هذا نُحْصي سَكَناتِ ٱلفُصولِ: صَيْفٌ هادِئٌ... آهِ. خَريفٌ هادِئٌ... آهِ. ربيعٌ هادِئٌ... آهِ. سَنَةٌ مَرَّتْ. يا لَلْهَوْلِ. بَقِيَ تِسْعٌ وأرْبَعونَ سَنَةً فَقَطْ. هكذا يَعيشُ مَعَنا ميرو. لكنَّ فُصولَنا فُصولُ خَرابٍ. فُصولٌ تَرْتَدي دُروعَ ٱلحَرْبِ أبَداً، وَتَعْتَمِرُ خُوذَةَ ٱلمُفاجَأةِ. وفي السَّنَواتِ ٱلأرْبَعِ ٱلَّتي سَبَقَتْ مَجيءَ الصَّخَبِ، (حَيْثُ ٱنْهارَ سِياجُ مَدينةِ ٱلمَلاهي، وَٱلْتَمَعَتْ أفْخاذُ الرّاقِصاتِ بِوَميضٍ غَريبٍ)، لَمْ يَمُرَّ فَصْلٌ مِنْ فُصولِها مِنْ غَيْرِ أنْ يَحْمِلَ خُبْزاً مُرّاً، وَغُيوماً حامِضَةً. فما يَكادُ يَأْتي ٱلخَريفُ حتّى يَنْفِرَ مِنْ شُقوقِ ٱلأرْضِ مَطَرٌ يَمْحو أثْلامَ ٱلحِراثَةِ، وَيَجْرُفُ حُبوبَ ٱلقَمْحِ ٱلمَبْذورَةَ إلى أرْضِ الشَّعيرِ، وَحُبوبَ الشَّعيرِ ٱلمَبْذورَةَ إلى السَّواقي ٱلَّتي لا تُخْطِئُ مَجارِيَها حتّى في أشَدِّ ٱلأراضي ٱسْتِواءً. بَلْ تَطْفُرُ السَّواقي هُنا وَهُناكَ. كأنَّما كانَتْ مُخَبّأَةً تَحْتَ غِطاءٍ تُرابيٍّ رَقيقٍ جَذَبَهُ ٱلغَيْمُ فأفاقَتْ. وما يَكادُ يَأْتي الشِّتاءُ حتّى يأتي الصَّقيعُ، فَتَتَجَمَّدُ ٱلبِرَكُ وَالسَّواقي وٱلأنْهارُ، ومِياهُ ٱلمَواسيرِ، وَيَغْدو التُّرابُ مُتَراصّاً صَلْباً كالإسْمَنْتِ، ثُمَّ تَتَشَقَّقُ خَزّاناتُ ٱلمِياهِ ٱلحَديديَّةُ في السَّياراتِ. أمّا النَّباتُ ٱلأخْضَرُ الطَّرِيُّ فَيَسْتَحيلُ جافّاً كَعيدانِ

آلحصيدِ، إمّا أمْسَكْتَهُ تَقَصَّفَ، وإمّا لَوَيْتَ شَجَرَةً صغيرةً تَكَسَّرَتْ. وَمَنْ يُريدُ ماءً للشُّرْبِ يَغْليهِ حتّى يَذوبَ جليدُهُ. وفي الرَّبيعِ كأنَّما تَنْتَظِرُ السَّماءُ أنْ تَعْلوَ سيقانُ آلقَمْحِ والشَّعيرِ عَنِ آلأرْضِ قَليلاً، لِتَحْصُدَها قَبْلَ آلأوانِ، بِمقاليعَ خَفِيَّةٍ تَرْمي بَرَداً أبْيَضَ بِحَجْمِ بَيْضَةِ الدَّجاجَةِ. باللَّهِ عَلَيْكُم، مَنْ مَرَّ بِسَهْلِ قَمْحٍ عاثَ فيهِ آلبَرَدُ؟: عُشْبٌ مَقْصوصٌ بآلمِقَصّاتِ، وَوَرَقُ نَباتٍ يَهْذي، كأنَّما أطْلَقَ آلغَيْمُ مِنْ حانَتِهِ سُكارى شَقَّقوا ثِيابَهُم، وَشَقَّقوا آلجُذورَ.

وحينَ يَأتي الصَّيْفُ تَكونُ آلخاتِمَةُ قَدِ آكْتَمَلَتْ. تَضَعُ آلأرْضُ نُقْطَةً في آخِرِ آلجُمْلَةِ: «آنْتَهى». «عاشَ الرَّحْمٰنُ الرَّحيمُ» يَلْهَجُ النّاسُ، وإلى مَوْسِمٍ آخَرَ. ثُمَّ يَسْتدينونَ. ثُمَّ يُسَدِّدونَ الدَّيْنَ بِدَيْنٍ آخَرَ. ثُمَّ يَبيعونَ آلأرْضَ، وَمَنْ لا يَجِدُ أرْضاً يَبيعُها، يَبيعُ حُلِيَّ آمْرَأَتِهِ، وَمَنْ لا يَجِدُ حُلِيّاً يَبيعُ دَجاجاتِهِ وخِرافَهُ، ومَنْ لا يَجِدُ دَجاجاتٍ يَبيعُها يَبيعُ آلمَؤونَةَ، وَمَنْ لا يَجِدُ آلمَؤونَةَ يَبيعُ أسِرَّةَ النَّوْمِ، وَمَنْ لا يَجِدُ آلأسِرَّةَ يَبيعُ ظَهْرَهُ كَعَتّالٍ، وَمَنْ لا يَقْدِرُ على آلعِتالَةِ يَتَّجِهُ صَوْبَ آلحُدودِ ليُهَرِّبَ التَّبْغَ وَالزَّبيبَ حتّى تَقْتَنِصَهُ طَلْقَةُ دَوْرِيَّةٍ مِنْ دَوْرِيّاتِ آلحُدودِ.

الخرابُ عَميمٌ، وَٱلحَمْدُ للرَّحْمٰن، فلا تَأْتِ ميرو.

لكِنْ مَنْ أنْتَ ميرو؟ مَنْ أنْتَ لِنَحْمَدَ ٱلخَرابَ حتّى لا تَجيءَ؟ إنَّهُم لا يُخْبِرونَنا ماذا فَعَلَتْ بِكَ ٱلأرْضُ، وَما هِيَ أيّامُكَ ٱلَّتي تَواصَلَتْ بِلُحْمَةِ ٱلفَجيعَةِ. لا يُخْبِرونَ عَلامَ وَعيدُكَ، وأيْنَ أنْتَ. أهُمْ يَعْرِفونَ حقّاً ميرو؟ كُلُّ ٱلَّذي نَعْرِفُهُ أنَّكَ تَخْرُجُ في كُلِّ غُروبٍ من آذارَ إلى تُخومِ ٱلمَدينةِ، مُمْتَطِياً كَبْشَكَ الضَّخْمَ ضَخامَةَ الثَّوْرِ، ثُمَّ تَقِفُ فَوْقَ ٱلهَضْبَةِ ٱلمُشْرِفَةِ على سَهْلِ ٱلقَمْحِ ٱلجُنوبيِّ، صامِتاً كَشَبَحٍ، تَتَمايَلُ أسْمالُكَ مَعَ ٱلحَرَكَةِ ٱلخَفيفةِ لِلْهواءِ ٱلَّذي يَغْمُرُ بِلُهاثِهِ ٱلعُشْبَ فَيَموجُ إلى لا نِهايَة. وَرُوَيْداً رُوَيْداً تَكْتَمِلُ مِنْ حَوْلِكَ حَلْقَةٌ مُترامِيَةٌ مِنْ أكْباشٍ أُخْرى خَرَجَتْ مِنَ الظَّلامِ ٱلخَفيفِ، صامِتَةٌ مِثْلَ كَبْشِكَ، ثُمَّ تَتَّسِعُ ٱلحَلْقَةُ مَعَ ٱتِّساعِ الظَّلامِ، وَتَظَلُّ تَتَّسِعُ حتّى تَغْمُرَ ٱلأُفُقَ كُلَّهُ، وإذ يَمْتَلِىءُ ٱلأُفُقُ تَخْرُجُ مِنَ ٱلغَيْمِ، قَطيعاً قَطيعاً، قَوائِمُها تَلْمُسُ ٱلهَواءَ لا ٱلأرْضَ، عابِقَةً بِرائِحَةِ مَطَرٍ لَمْ يَهْطُلْ بَعْدُ.

مُنْذُ مَتى تَخْرُجُ في كُلِّ غُروبٍ مِنْ آذارَ ميرو؟ مُنْذُ متى تَجْمَعُ هذهِ ٱلأكْباشَ حَوْلَكَ، وَتَمْتَحِنُ بِكَ الظَّلامَ، كأنَّما لا

ظَلامَ لَسْتَ فيهِ، أَوَلَيْسَ لِأَكْباشِكَ فيهِ آحْتِدامٌ أَشْبَهُ بِحَنينِ آلحَيَوانِ إلى أُنْثاهُ؟

إبْقَ هُناكَ ميرو، إبْقَ هُناكَ، فَلَنا مَشاغِلُنا آلآنَ، بَعْدَ هذا الصَّخَبِ آلَّذي غَطّى مَدينَةَ آلمَلاهي بِبُخارٍ أليفٍ.

وَمَشاغِلُنا قَليلةٌ على أيَّةِ حالٍ. فآباؤنا يَنْتَظِرونَ مِنَ آلحُكومَةِ آلجَديدَةِ مُعْجِزَةً تُخَفِّفُ مِنْ وَطْأَةِ سَنَواتِ آلجَدْبِ آلأَرْبَعِ، آلَّتي نَثَروا فيها بِذارَهُم بَيْنَ يَدَيِ آلأَرْضِ آلأمينَةِ فَخَذَلَتْهُم، مُعْطِيَةً سَنابِلَ لا يَزيدُ طولُ أَسْواقِها عَنْ طولِ آلإصْبَعِ، فلا هُمْ قادِرونَ عَلى حَصْدِها بالأَيْدي، ولا هُمْ قادِرونَ عَلى حَصْدِها بآلحَصّاداتِ آلآليَّةِ، ولِذلكَ تَرَكوها لأَغْنامِ الرُّعْيانِ تَأْكُلُها حَتّى التُّخْمَةِ. إنَّهُم يَنْتَظِرونَ إذاً، في مَقاهِيهِم، يَرْمُقُ بَعْضُهُم بَعْضاً في غَضَبٍ، أو يُساوِمونَ على صَفَقاتٍ وَهْميَّةٍ فلا يَبيعونَ ولا يَشْتَرونَ.

وفي حينِ كانَتِ آلحُكومَةُ مَشْغُولَةً بِجَمْعِ أوْراقِها، وَتَرْتيبِ آلأضابيرِ آلخاصَّةِ بِحَياةٍ لَمْ تَأْتِ بَعْدُ، كانَتْ حَرْبٌ صَغيرةٌ تَسْتَعِرُ في آلحَيِّ آلغَرْبيِّ، آلحَيِّ آلأَكْثَرِ كَثافَةً بأَكْرادِهِ آلعَنيفينَ. وآخْتِصارُ آلمَسْأَلَةِ أنَّ مُديرِيَّةَ آلأَوْقافِ أقامَتْ هُناكَ مَسْجِداً

جَميلاً في ذلِكَ ٱلوَقْتِ، مِنَ ٱلإسْمَنْتِ الصِّرْفِ ٱلمَزْهُوِّ بِصَلابَتِهِ وَسْطَ ٱلبُيوتِ الطّينيَّةِ، وأقامَتْ عَلَيْهِ مِئْذَنَةً مِنْ ثَلاثَةِ أعْمِدَةٍ حَديديَّةٍ تَنْتَهي في ٱلأعْلى بِغِطاءٍ كٱلقُبَّعَةِ، وَجَعَلَتْ لَهُ ساحَةً مَرْصوفَةً، كانَ ٱلمُصَلّونَ يُؤَدّونَ صَلاتَهُم عَلَيْها في عَشِيّاتِ الصَّيْفِ، هَرَباً مِنَ الدّاخِلِ ٱلمُشْتَعِلِ كٱلفُرْنِ. لكِنَّ ٱلمُديرِيَّةَ لَمْ تَحْسُمْ قَضِيَّةَ تَعْيينِ إمامٍ وَمُؤَذِّنٍ لِذلِكَ ٱلمَسْجِدِ. فٱشْتَعَلَتْ حَرْبٌ بَيْنَ مَنْ رَأَوْا أنْفُسَهُم أكْفاءَ لِيَتَبَوّأوا ٱلمَنْصِبَيْنِ، وكانَ أنِ ٱسْتَقَرَّ الصِّراعُ، آخِرَ ٱلأمْرِ، بَيْنَ ٱثْنَيْنِ فَقَطْ، هُما ٱلمَلّا أحْمَد وَٱلمَلّا رَشيد.

كان المَلّا أحْمَدُ إماماً، في الأصْلِ، لِمَسْجِدٍ طِينيٍّ في ذلِكَ ٱلحَيِّ، وحينَ شَيَّدَتِ ٱلأوْقافُ مَسْجِدَ ٱلإسْمَنْتِ، بايَعَهُ بَعْضُهُم إماماً، هكذا بِقرارٍ مِنْهُم، وكانوا خَليطاً مِنَ ٱلعَتّالينَ وَٱلكوليّينَ. أمّا ٱلمَلّا رشيدٌ، فما إنِ ٱشْتَمَّ رائِحَةَ ٱلأمْرِ ـ وكانَ فَقيهاً مَحْدودَ ٱلعِلْمِ، ناصَرَ الشُّيوعيّينَ فَتْرَةً طَويلَةً ثُمَّ نَكَصَ عَنْ ذلِكَ ـ حتّى بادَرَ إلى جَمْعِ أنْصارِهِ ٱلبُسَطاءِ ٱلقُدامى، وأعْلَنَ نَفْسَهُ إماماً بِحُكْمِ أقْدَمِيَّتِهِ في ٱلمَدينَةِ، فَهُوَ ٱبْنُها، بَيْنَما ٱلمَلّا أحْمدُ قَرَوِيٌّ طارِئٌ، لَمْ يَمْضِ على مَجيئِهِ بِضْعُ سِنينَ.

وَتَصاعَدَ ٱلمَوْقِفُ، وَلَمْ تَنْفَعْ وَساطَةُ ٱلوُسَطاءِ لِيَتَنَحّى أحَدُهُما، فَبَاتَ ٱلمَسْجِدُ مَسْجِدَيْنِ، إذْ يَقِفُ مُؤَذِّنُ كُلٍّ مِنَ ٱلإمامَيْنِ في جانِبٍ مِنَ ٱلباحَةِ، هذا يُؤَذِّنُ بِصَوْتٍ وذاكَ بِصَوْتٍ، وكِلاهُما يُشيرُ بِقَبْضَتِهِ إلى ٱلآخَرِ. وحينَ يَنْتَهِيانِ، يَدْلِفُ أحَدُ ٱلإمامَيْنِ وَراءَ الثّاني، ثُمَّ يَنْتَحي كُلٌّ مِنْهُما بِرُكْنٍ، وَوَراءَهُ مُناصِروهُ. وَقَدْ لا يَنْتَهي ٱلأمْرُ بِٱنْتِهاءِ الصَّلاةِ، فَيَعْمِدُ ٱلإمامانِ إلى جَمْعِ ٱلأنْصارِ في حَلْقَتَيْنِ، لِيَطْعَنَ ٱلمَلّا أحْمَدُ في «أهلِيَّةِ» ٱلمَلّا رشيدٍ، الشُّيوعِيِّ ٱلمُلْحِدِ، وَلِيَطْعَنَ ٱلمَلّا رَشيدٌ في «أهليَّةِ» ٱلمَلّا أحْمَدَ ٱلفَأْفاءِ، ٱلَّذي لا يَعْرِفُ مَخارِجَ ٱلحُروفِ وأُصولَ التَّجْويدِ.

بعامَّةٍ لَمْ يُجاوِزِ ٱلأمْرُ بَيْنَ ٱلإمامَيْنِ حَدَّ ٱلاتِّهاماتِ، والطَّعْنِ ٱلعاقِلِ. وَلَمْ يُجاوِزِ ٱلمُناصِرونَ حُدودَ النَّظَرِ شَزْراً، بَعْضُهُم إلى بَعْضٍ، أوِ الطَّعْنِ في جَوازِ الصَّلاةِ وَراءَ هَذا ٱلإمامِ أوْ ذاكَ، وأعْظَمُ ما ذَهَبوا إلَيْهِ هُوَ سَرِقَةُ ٱلأحْذِيَةِ، بَعْضُهُم مِنْ بَعْضٍ، أَوِ ٱلقَرْعُ بِقُوَّةٍ على أبْوابِ ٱلمَراحيضِ، إذا كانَ أحَدُ أنْصارِ ٱلإمامَيْنِ في الدّاخِلِ، وغَريمُهُ في ٱلخارِجِ. لكنَّ ٱلأمْرَ كانَ مُخْتَلِفاً بَيْنَ ٱلمُؤَذِّنِ قاسمو نَصيرِ ٱلمَلّا أحْمَدَ، ٱلَّذي يَمْلِكُ

بُحَيْرَةٌ خارِجَ ٱلـمَدينَةِ، يَبيعُ التُّرابُ مِنْ حَوافِّها لِلْبناءِ، وَبَيْنَ عقدكي كشومشو نَصيرِ ٱلمَلّا رشيدٍ، قَبْلَ أنْ يَتَخَلّى عَنْهُ آخِرَ ٱلأَمْرِ، بَعْدَما ٱقْتَنَعَ بِبُطْلانِ الصَّلاةِ وَراءَ شُيوعيٍّ سابِقٍ.

كانا ـ أيْ قاسمو وعقدكي ـ صاحِبَيْنِ حقّاً، وَلِصَوْتَيْهِما قَرْعٌ كَقَرْعٍ على الصّاجِ. شَخْصانِ ضَئيلا ٱلبُنْيَةِ. ضَئيلانِ إلى دَرَجَةٍ لا نَعْرِفُ كَيْفَ يُمْكِنُ لَهُما أنْ يُثيرا هذا الصَّخَبَ كُلَّهُ. وَكُنّا، كَصِبْيَةٍ آنَئِذٍ، نَحْسَبُ أَلْفَ حِسابٍ لَهُما. فقاسمو باشِقٌ مُتَرَقِّبٌ أبَداً. مَوْجودٌ وراءَ ٱلـمَسْجِدِ وأمامَهُ. يَمْنَعُنا مِنَ ٱللَّعِبِ بِٱلبُلي حَوْلَ مَمْلَكَتِهِ بِمِقْدارِ فَرْسَخٍ، ذو صَوْتٍ حادٍّ نَفيريٍّ. «يا لَلْجَحيمِ قاسمو. صَوْتُكَ صَوْتُ ديكٍ». وَيَلْعَنُ قاسمو أجْدادَنا النّائِمينَ. «صَوْتُكَ صَوْتُ آسْتِ ٱلحِمارِ»، وَيَلْعَنُ قاسمو أُمَّهاتِنا. نَقْذِفُ ساحَةَ ٱلـمَسْجِدِ بِٱلحَصى مِنْ فَوْقِ السّورِ، فَيَرْكُضُ وَراءَنا بِدَشْداشَتِهِ ٱلبَيْضاءِ حتّى تَنْحَلَّ عَمامَتُهُ وَتَنْسَدِلَ على عَيْنَيْهِ ٱلبوميَّتَيْنِ. أمّا عقدكي كشومشو فَٱبْنُ جَحيمٍ حقّاً. شَيْخٌ في السَّبْعينَ. نَحيلٌ كَقَصَبَةٍ. أعْمَصُ لا يَكادُ يَرى، وأدْرَدُ لا سِنَّ في فَمِهِ. يَعْتَمِرُ عِمامَةً صَفْراءَ، وَبيَدِهِ عَصاً مِنْ أغْصانِ ٱلكينا. يَشْتُمُ في كُلِّ خُطْوَةٍ. يَشْتُمُ قاسمو، وٱلإمامَ ٱلـمَلّا

أحمدَ، وآلـمَدينَةَ، وأبْقارَ النّاسِ وأغْنامَهُم. يَشْتُمُ آلغُيومَ وآلهواءَ. يَشْتُمُ حتّى التَّعَبَ، وَيَضْرِبُ بِعصاهُ آلـحيطانَ مِنَ آلغَيْظِ، وَيَدَّعي، أبَداً، أنَّ لَهُ دَيْناً في ذِمَّةِ «الرّوميّينَ». وَ«الرّوميّونَ» آسْمٌ يُطْلِقُهُ على الشُّرْطَةِ، مِنْ غيْرِ أنْ يَعْرِفَ أحَدٌ، حتّى آلآنَ، سَبَبَ آلاشْتِقاقِ آلغَريبِ. وفي كُلِّ يَوْمٍ يَتَسَبَّبُ في مُشْكِلَةٍ مَعَ شُرْطَةِ آلبَلَدِيَّةِ، آلَّذينَ يَدورونَ على آلبَقّالينَ آلـمَذْعورينَ، حامِلينَ مَحاضِرَ ضَبْطٍ جاهِزَةً، وعلى ألْسِنَتِهِم جُمَلٌ جاهِزَةٌ: «الغُبار... الغُبار». وماذا يَفْعَلُ آلبَقّالونَ في مَدينةٍ كُلُّها غُبارٌ. طُرُقاتٌ مِنَ التُّرابِ وَبُيوتٌ مِنَ التُّرابِ، فَمَاذا يَفْعَلونَ؟ وأبَداً تَخْرُجُ شُرْطَةُ آلبَلَدِيَّةِ بِغَنائِمَ مِنَ آلبَطّيخِ، وَآللَّحْمِ، وَآلبَنَدورةِ، وَعُلَبِ الدُّخانِ. لكنَّ عفْدكي بآلـمِرْصادِ: «أنْتَ... هيه. أنْتَ، أيُّها الرّوميُّ، لي في ذِمَّتِكَ دَيْنٌ». وَيَتَفَكَّهُ الشُّرْطِيّونَ، فَهُمْ يَعْرِفونَهُ: «أيُّ دَيْنٍ عفْدكي؟»، وَيَحْتَدُّ عفْدكي: «الدَّيْنُ دَيْنٌ يا رومي آبنَ الرّوميّ. ألا تَتَذَكَّر؟»، وَيَرْفَعُ عَصاهُ عالِياً، فَيُهَدِّئونَهُ: «نَعَمْ، تَذَكَّرْنا. نَعَمْ. أخْفِضْ عَصاكَ. إنَّهُم يَنْتَظِرونَكَ في آلبَلَدِيَّةِ لِيُعْطوكَ دَيْنَكَ». وَتَنْفَرِجُ أساريرُ عفْدكي: «أولادُ آلقَحْبَةِ... دائِماً يَنْسَوْنَ. الدَّيْنُ دَيْنٌ». ويا ما طَرَدَهُ مُوَظَّفو آلبَلَدِيَّةِ بَعْدَ آحْتِفالاتٍ صاخِبَةٍ.

ويا ما آجْتَمَعَ حَوْلَهُ النّاسُ، وَسَطَ آلـمَدينَةِ، وَهُوَ يُلَوِّحُ بِعصاهُ في اتّجاهِ مَبْنى آلبَلَدِيَّةِ: «نَصّابونَ. أوْلادُ كَلْبَةٍ. هاتوا الدَّيْنَ». ثُمَّ يَلْتَفِتُ إلى النّاسِ هاتِفاً: «ما حاجَتُنا إلى دَوْلَةٍ؟ لا نُريدُ دَوْلَةً. لا نُريدُ الرّومِيّينَ. يأكُلونَ أمْوالَنا. نَصّابون. أوْلادُ قَحْبَةٍ»، وَيَبْصُقُ مِلْءَ فَمِهِ الأدْرَدِ، هاجِماً، لا عَلى آلـمَبْنى، بَلْ عَلى النّاسِ آلـمُتَحَلِّقينَ حَوْلَهُ: «أنْتُمُ السَّبَبُ. تَحْمِلونَ خِصْياتِكُم إلى آلبَلَدِيَّةِ لِيَكْتُبوا عَلَيْها مَحاضِرَ الضَّبْطِ. تْفو على مُؤَخَّراتِكُم. تْفو على طائِراتِكُم»، وَتَكونُ طائِرَةٌ ما قَدْ عَبَرَتِ السَّماءَ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ.

وذاتَ يَوْمٍ، وَمِنْ دونِ إنْذارٍ، وَبَيْنَما كُلٌّ مِنَ آلإمامَيْنِ يُؤَدّي الصَّلاةَ في أنْصارِهِ، حَمَلَ عقدكي طَسْتاً مِنَ آلوَحْلِ وَوَضَعَهُ حَيْثُ يَسْجُدُ آلـمَلّا أحْمدُ. وَقَدْ أهْمَلَهُ آلأخيرُ بِكَثيرٍ مِنَ آلوَرَعِ، دافِعاً بِيَدِهِ الطَّسْتَ بَعيداً عَنْ مَكانِ سُجودِهِ، بِرُغْمِ دَمْدَمَةِ آلـمُصَلّينَ آلواقِفينَ وَراءَهُ، آلَّذينَ خَلَطوا آلآياتِ بأنْصافِ جُمَلٍ تَتَعَلَّقُ بِمُؤَخَّرَةِ أُمِّ عقدكي، وَبأَصْلِهِ وَفَصْلِهِ، بَيْدَ أنَّ قاسمو وَحَدَهُ قَطَعَ الصَّلاةَ، مُنْدَفِعاً وصِياحُهُ صِياحُ ديكٍ، مُهْوِياً على عقدكي بِضَرَباتٍ مِنْ نِطاقِهِ آلـجِلْدِيِّ الثَّخينِ، وَكانَتْ تِلْكَ آلـمَعْرَكَةُ آلـمُخْتَلِطَةُ بآلكَثيرِ مِنَ آلعُواءِ، وَبآلقليلِ مِنَ آلكَدَماتِ،

مَدْخَلاً إلى كَرٍّ وَفَرٍّ طَويلَيْنِ بَيْنَهُما: يَقِفُ قاسمو عَلى بابِ آلمَسْجِدِ لِيَمْنَعَ دُخولَ عقْدكي، وفي يَدِهِ مِنْجَلٌ؛ أو يَقِفُ عقْدكي على بابِ آلمَسْجِدِ وفي يَدِهِ بَطّيخَةٌ مُعْطِنَةٌ في آنتظارِ قاسمو. ودائِماً يَتَدخَّلُ آلوُسَطاءُ مِنْ باعَةِ آلعَرَباتِ، فَيَخْتَصِرونَ آلمَعْرَكَةَ إلى بِضْعِ شَتائِمَ، وأطْنانٍ مِنَ التَّهْديدِ آلمُتَبادَلِ. وكانَ، بَعْدَئِذٍ، أنْ تَدَخَّلَ أَوْلادُ عقْدكي، وأوْلادُ قاسمو، وَزَوْجَتاهُما، وَزَوْجاتُ أوْلادِهِما، حتّى آنْقَسَمَ آلحَيُّ آلغَرْبيُّ مَمْلَكَتَيْنِ صَغيرَتَيْنِ للنِّساءِ آلمُحارِباتِ، بَيْنَهُما فاصِلٌ مِنْ بُيوتِ آلمُحايدينَ، لكنَّ آلحِجارَةَ، وَآلبَنَدورَةَ، وآلقباقيبَ آلبالِيَةَ، كانَتْ تَعْبُرُ ذلِكَ آلفاصِلَ آلمُحايِدَ، في خَطٍّ هَوائيٍّ مِنْ فَوْقِ الرُّؤوسِ وآلأبْنِيَةِ، مِنْ غَيْرِ أنْ يرى أحَدٌ أحَداً.

وأخيراً، حَسَمَتْ مُديريَّةُ آلأوْقافِ آلأمْرَ، فأصْدَرَتْ مَراسيمَ بِتَعْيينِ آلمَلّا أحْمَدَ إماماً، وقاسمو مُؤَذِّناً. وَبالطَّبْعِ لَمْ يُعارِضْ مَنْ خُذِلوا مِنَ آلبُسَطاءِ هَذا آلأمْرَ، فَرِجالُ آلأوْقافِ فُقَهاءُ ضَليعونَ في الدّينِ؛ هكذا عَزَّوْا أنْفُسَهُم، وَبَرَّروا آنْفِضاضَهُم مِنْ حَوْلِ آلمَلّا رشيدٍ. ثُمَّ باتوا يَؤمّونَ آلمَسْجِدَ إلّا عقْدكي، آلّذي أعْلَنَ العداءَ لِلأوْقافِ أيْضاً، وَبَعْدَ فَتْرَةٍ أعْلَنَ آلعَداءَ لِشَيْخِهِ آلمَلّا

رَشيد، وَلِلْحَيِّ ٱلغَرْبيِّ كُلِّهِ. ذَهَبَ إلى تُرْكيا، خِلْسَةً، عَبرَ ٱلـحُـدودَ، وعـادَ بَعْـدَ أشْـهُـرٍ بـالـطَّـريـقَـةِ ذاتِـهـا، أشَـدَّ مَـقْـتـاً للنّاسِ، وأكْثَرَ هَذَياناً، لا يَتَحَدَّثُ إلّا عَنِ ٱلأناضولِ وَعَسْكَرِ سَفَرْ بَرْلَكْ، وَيَنْثُرُ السُّمْسُمَ، إنْ مَشى، مِنْ جَيْبِ قُفْطانِهِ، مُتَمْتِماً: «أنْتُمْ لُطَفَاء. لُطَفاءُ جِدّاً. ٱتْبَعيني يا حيواناتِ ٱللَّه»، وكانَ يَقْصِدُ بٱلـمُخاطَبَةِ أشْباحَ زَمَنِهِ ٱلـمُتَدَثِّرِ بِغِطاءٍ سَميكٍ مِنَ ٱلبُطولَةِ، وَيَرْتَدي دُروعَهُ الصَّدِئَةَ تَحْتَ تِلْكَ ٱلبُحَيْرَةِ الصَّلْبَةِ مِنَ النِّسْيانِ ٱلآدَمِيّ.

هكَذا تَـفَرَّدَ قاسمو بالسُّلْطَةِ، وَحْدَهُ، في ذلكَ ٱلـمَبْنى ٱلإسْمَنْتيِّ ٱلعاري، وباتَ يَخْتالُ أمامَ باعَةِ ٱلعَرَباتِ بِنَياشينِهِ ٱلـخَفِيَّةِ. لا يَكادُ يُغادِرُ ٱلـمَسْجِدَ قَطُّ. يَكْنُسُ باحَتَهُ لَيْلَ نَهارَ بِمِكْنَسَتِهِ ٱلـخاصَّةِ، وَهِيَ مَحْضُ عصاً طَوِيلَةٍ رَبَطَ إلى طَرَفِها حُزْمَةً ضَخْمَةً مِنْ نَباتِ ٱلـخَرْنوبِ، لكنَّ زَهْوَهُ تَعَدّى زَهْوَ مَلِكٍ حَقيقيٍّ حينَ أمَدَّتِ ٱلأوْقافُ ٱلـمَسْجِدَ بِمُكَبِّرٍ لِلصَّوْتِ، زَرَعَتْهُ في أعْلى الصّاري ٱلَّذي يُسَمّى مِئْذَنَةً، وَمَدَّتْ مِنْهُ شَريطاً يَصِلُهُ بٱلميكْروفونِ في الدّاخِلِ. وَقَدْ عَمَدَ قاسمو إلى بِناءِ كوخٍ ضَيِّقٍ جِدّاً في زاوِيَةٍ مِنَ ٱلباحَةِ، تَفَنَّنَ الصّوفيُّ مَحْمودٌ، بائِعُ ٱلبَطّيخِ

آلـمُـتَـجَـوِّلُ، فـي تَـلْـويـنِ خَـشَـبِـهِ بِـدِهـانـاتٍ شَـتّـى، فـي خُـطـوطٍ مُتَصالِبَةٍ، وَمُتعامِدَةٍ، وَمُتوازِنَةٍ، ومائِلَةٍ. «مائَةُ لَوْنٍ وَلَوْنٍ» كانَ يَـقـولُ الـصّـوفـيُّ مَـحْـمـودٌ، «سـأدْهَـنُـهُ بِـمـائَـةِ لَـوْنٍ وَلَـوْنٍ تَـلـيـقُ بـميكْروفون قاسمو». وَقَدْ نَقَلَ قاسمو آلميكرفونَ إلى آلكوخِ، وباتَ يُدَلِّلُهُ كما يُدَلِّلُ دَجاجاتٍ تَبيضُ. يَدْخُلُ آلكوخَ آلَّذي لا يَتَّسِعُ لِرَجُلٍ إلّا جالِساً آلقُرْفُصاءَ، بِسَبَبٍ وَبغَيْرِهِ، في أوْقاتِ آلأذانِ وفـي غَـيْـرِهـا. وَيَـظَـلُّ يُـتَـمْـتِـمُ: «إحِـم. إحِـم. إحْ. إحْ»، فَيَلْتَفِتُ باعَةُ آلـخُضارِ آلـمُتَجَوِّلونَ آلَّذينَ يَزْدَحِمُ بِهِمُ الرَّصيفُ آلـمُلاصِقُ لِلْمَسْجِدِ، مُغَمْغِمينَ: «رَخيمٌ صَوْتُكَ قاسمو. حَيّاكَ آللَّـهُ». وقد أشاعَ بَعْضُـهُـم أنَّه يَشْرَبُ بَيْضَتَيْنِ نَيْئَتَيْنِ كُلَّ صَباحٍ، ولا يَأْتي إلى آلـمَسْجِدِ قَبْلَ أنْ يُؤَذِّنَ أمامَ زَوْجَتِهِ مِراراً وَتَـكْـراراً، حـتّـى تَـقـولَ لَـهُ: «الآنَ. نَـعَـمْ، الآنَ صَـفـا صَـوْتُـكَ فَآذْهَبْ»، وَيُهَرْوِلُ قاسمو إلى آلـمَسْجِدِ قَبْلَ أنْ يَطْرَأَ طارِئٌ يُعَكِّرُ بِئْرَ حَنْجَرَتِهِ النّورانيَّة.

وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ إلّا تَحَوَّلَ صَوْتُ قاسمو إلى مَصْدَرِ إزْعاجٍ حَقيقيٍّ، حتّى باعَةُ آلـخُضارِ آلـمُتَجَوّلونَ لَمْ يُخْفوا آسْتياءَهُم، وَقَدْ عَمَدْنا ـ نَحْنُ الصِّبْيَةَ ـ مِراراً إلى قَطْعِ شَريطِ

ٱلمُكَبِّرِ، مِنْ فَوْقِ السّورِ، لكِنَّ الصَّوْتَ كانَ يَعودُ أقْوى: «إحِم، إحِم. إحْ إحْ»، فَنَضْرِبُ كَفّاً بِكَفٍّ: «رِجع الدّيك».

كُلُّ ٱلأشْياءِ دِيكٌ. العالَمُ دِيكٌ، وٱلحُكومَةُ دِيكٌ، إلّا دِيَكَتُنا في ساحَةِ ٱلبَيْتِ، فَهِيَ تَمْشي مِشْيَةَ سَكْران. وَنَكْتَئِبُ قَليلاً، فأنْ تَسْكَرَ الدِّيَكَةُ يَعْني أنْ يَقْتَحِمَ ميرو هُدوءَ ٱلأرْضِ مِنْ زاوِيَةٍ ما، مُعيداً سيرَةَ ٱلوَحْشَةِ وَٱلوَحْشِيّ، مُعيداً أنينَ ٱلكائِنِ إلَيْهِ؛ أنينَهُ ٱلأوَّلَ الصّامِتَ، حينَ وَقَفَ على هَضْبَةٍ يَسْتَطْلِعُ شَبيهَهُ ٱلكائِنَ وَيَدُهُ على هِراوَتِهِ؛ ضَئيلاً في ٱلمَمْلَكَةِ ٱلحَيوانيَّةِ؛ لا يُنافِسُ ٱلأقْوى، بَلْ يَحْبُكُ ٱلفِخاخَ، وَيَسْتَجْدي ٱلحيلَةَ. لكنَّ دِيَكَتَنا ـ كما كَشَفَ لنا ٱلعارِفونَ ـ لَمْ تَكُنْ سَكْرى. إنَّها مَريضَةٌ مِنْ جَرّاءِ تَناوُلِ السَّمادِ ٱلكيماويِّ ٱلَّذي نَنْثُرُهُ في حَقْلِ ٱلبَصَلِ الصَّغيرِ. «يا لَلدِّيَكَةِ ٱلمَغْدورَةِ» تَنْدُبُ أُمّي، «لا يَأْخُذُ ٱللَّهُ إلّا ٱلفاضِلينَ». وَدِيَكَتُنا فاضِلَةٌ بِحَقٍّ. دِيَكَةٌ حَقيقيَّةٌ. ثلاثونَ ديكاً أَوْ أكْثَرُ. ضَئيلَةُ ٱلحَجْمِ، طَويلَةٌ أعْناقُها ٱلعارِيَةُ مِنَ الرّيشِ وَسيقانُها. دِيَكَةُ صِراعٍ لا دِيَكَةُ طَعامٍ. دِيَكَةٌ فُحولٌ، تَنْتِفُ الدَّجاجاتِ نَتْفاً قَبْلَ أنْ تَتَقَوَّسَ مِنْ فَوْقِها في جِماعٍ لا يَسْتَغْرِقُ ثَوانِيَ، وَمِنْ ثَمَّ تَنْهَضُ مُعْلِنَةً بِصِياحٍ رَصينٍ فَجْرَها

آلبَهِيميَّ آلفَحْلَ حتّى أبْعَدِ نَجْمَةٍ فيهِ. دِيَكَةٌ تُهاجِمُ آلقِطَطَ وآلبَقَرَ. وإذا تَهَيّأتْ لَها وَليمَةٌ مِنْ طِفْلٍ رَضيعٍ فلا مانِعَ لَدَيْها.

... وَنَجْمَعُ دِيَكَتَنا ذاتَ فَجْرٍ. نَلْتَقِطُها مِنَ آلأَرْضِ في سُهولَةٍ بالِغَةٍ، مُتراخِيَةً تَتَدَلّى أعْناقُها ذاتَ آليَمينِ وذاتَ الشِّمالِ، وَكَذلكَ أجْنِحَتُها. نَجْمَعُها مِنْ سيقانِها حُزْمَةً حُزْمَةً، ثُمَّ نَجْعَلُ بَيْنَ كُلِّ حُزْمَتَيْنِ حَبْلاً مِنَ آلقِنَّبِ وَنُلْقيها على أكْتافِنا، فَتَتَدَلّى على بُطونِنا وَظُهورِنا، فاتِحَةً مَناقيرَها آلمُزْبَدَةَ، وَنَتَّجِهُ بِها إلى سُوقِ الدَّجاجِ في آلمَدينَةِ.

«يا لَلدِّيَكَةِ آلمَغْدورَةِ» تَنْدُبُ أُمّي، وَتُحْصي ما أعْطَيْناها مِنْ نُقودٍ. «أهذا ثَمَنُها؟ أهذا كُلُّ شَيْءٍ؟»، وَتَنْظُرُ إلَيْنا ـ نَحْنُ أبناءَها الصِّبْيَةَ وأبْناءَ أُخْتِها ـ فَنَقولُ: «نَعَم». وَنُضيفُ بَعْدَ بُرْهَةٍ مِنَ التَّرَدُّدِ: «تَعْلَمينَ، بالطَّبْعِ، ماتَ نِصْفُها في الطَّريقِ، والنِّصْفُ آلآخَرُ كانَ يُحْتَضَرُ. لَمْ يَدْفَعِ الشّارونَ إلّا مَبالِغَ بَخْسَةً ثَمَنَ الدّيكِ آلواحِدِ، أُمّاه». وَتَظَلُّ تَنْظُرُ إلَيْنا في ريبَةٍ، فَنُخْرِجُ جُيوبَنا آلكَبيرَةَ مِنْ دَشْداشاتِنا، في حَرَكَةٍ عَصَبِيَّةٍ مُفْتَعَلَةٍ: «آنْظُري. لا شَيْءَ وآللّهِ»، وَقَبْلَ أنْ نُكْمِلَ جُمْلَتَنا تَكونُ قِطَعٌ مَعْدِنيَّةٌ قَدْ أصْدَرَتْ رَنيناً نَتيجَةَ آحْتِكاكِ بَعْضِها بِبَعْضٍ داخِلَ

جَوارِبنا ٱلفَضْفاضَةِ. عِنْدَئِذٍ نَخْلَعُ جوارِبَنا في هُدوءِ ٱلمُذْنِبِ، مُبْتَعدينَ عَنْها قَليلاً، حتّى لا تَطولَنا ضَرْبَةٌ مُفاجِئَةٌ، وَنُلْقي بِٱلقِطَعِ النَّقْديَّةِ إلَيْها مُتَمْتِمينَ: «سَقَطَتْ سَهْواً أُمّاهُ. لا بُدَّ أنَّ جُيوبَ دَشْداشاتِنا مَثْقوبَةٌ، وإلّا لَما سَقَطَتِ ٱلقِطَعُ في جوارِبِنا أُمّاهُ»، وَيَمْضي ٱلأمْرُ في سلامٍ... يا لَلدِّيَكَةِ ٱلمَغْدورَةِ.

وفي الصّباحاتِ التّالِيَةِ، حينَ يَتَرَدَّدُ صَوْتُ قاسمو مِنْ مِئْذَنَةِ ٱلمَسْجِدِ مُبَشِّراً بِتَعَبٍ جَديدٍ، لا تُجارِيهِ دِيَكَتُنا، بَلْ دِيَكَةٌ أُخْرى بَعيدَةٌ، لا يُفَكِّرُ أحَدٌ في فُحولَتِها، وإنَّما في قُدْرَتِها على ٱكْتِنازِ ٱللَّحْمِ كَما تَكْتَنِزُ مارغو ٱللَّحْمَ في فَخْذَيْها وَرِدْفَيْها.

آهِ مارغو، لَوْ كُنّا نَعْرِفُ آنئِذٍ بَهاءَ ذلكَ ٱللَّحْمِ، كما نَعْرِفُهُ ٱلآنَ، لَظَلَلْنا خاشِعينَ قَرْناً مِنَ الزَّمَنِ على سَطْحِ بَيْتِنا. كَما نَراكِ مارغو، في صَباحاتِ الصَّيْفِ، كَيْفَ تَنْهَضينَ في تَثاقُلٍ شَيْطانيٍّ، دافِعَةً عَنْكِ ٱلغِطاءَ ٱلكَسْلانَ، وأنْتِ في ثَوْبٍ شَفيفٍ مُنْحَسِرٍ حتّى ٱلبَطْنِ. لَمْ تَكوني تَأْبَهينَ لِنَظَراتِنا - نَحْنُ الصِّبْيَةَ - مِنَ السَّطْحِ ٱلمُقابِلِ لِسَطْحِ بَيْتِكِ، ٱلَّذي لا يَبْعُدُ عَنْكِ أكْثَرَ مِنْ خَمْسَةِ أمْتارٍ. ثُمَّ كُنْتِ تَطْوينَ ٱلفِراشَ كَلُفافَةٍ، مُنْحَنِيَةً إلى أمامٍ، يَفْصِلُ جِذْعَكِ مِنْ وَراءٍ، في تِلْكَ ٱلآنْحِناءَةِ

النَّهْرِيَّةِ، خَيْطٌ دَقيقٌ يَسْتُرُ ٱلمَكْمَنَ ٱلكَوْكَبِيَّ لِلْوِلاداتِ كُلِّها، وَلِلْبُطولاتِ كُلِّها، وَلِلدَّمِ ٱلَّذي أُهْرِقَ، وَلِلدَّمِ ٱلَّذي سَيُهْرَقُ، وَلِلأنينِ، وَلِصَواعِقِ ٱلأقْحُوانِ، وَلِتِعَاقُبِ ٱلحُكوماتِ، وَلِلْخيانَةِ ٱلَّتي تُعَلِّقُ على مِشْجَبِ كُلِّ عَصْرٍ قِرْبَةَ نَبيذِها. وكانَ ٱلخَيْطُ الدَّقيقُ ذاكَ، ٱلمُمْعِنُ في ٱلْتِصاقِهِ بِأُخْدودٍ لَحْمِيٍّ، يُثيرُ على جانِبَيْهِ ٱحْمِراراً خَفيفاً يَغارُ مِنْهُ ٱحْمِرارُ ٱلفاكِهَةِ ٱلمَرْسومَةِ في كَراريسِنا ٱلمَدْرَسِيَّةِ. غَيْرَ أَنَّنا لَمْ نَلْحَظْ ذلِكَ كُلَّهُ آنَئِذٍ، فَكُنّا نَتَنَدَّرُ بِٱلحَجْمِ الصَّغيرِ لِسِرْوالِكِ مارغو.

في الشِّمالِ، عادَةً، يَصْعَدُ النّاسُ بِأَسِرَّتِهِم إلى سُطوحِ ٱلمَنازِلِ لَيْلاً، حَيْثُ يَنامونَ بَعْدَ إحْصاءِ أَكْبَرِ عَدَدٍ مِنَ النُّجومِ، وعَلى مَقْرُبَةٍ مِنْهُم تَنامُ الدَّجاجاتُ، ٱلَّتي تَصْعَدُ السَّلالِمَ ٱلخَشَبِيَّةَ بِدَوْرِها. وَقُبالَ سَطْحِنا كانَتْ تَنامُ مارغو.

ومارغو مُمَرِّضَةٌ في ٱلمُسْتَشْفى ٱلحُكوميِّ في ٱلمَدينَةِ، وَنَفْتَخِرُ بِأَنَّها جارَتُنا، لِأَنَّها «مُوَظَّفَةٌ حُكومِيَّةٌ»، وَٱلمُوَظَّفونَ ٱلحُكوميّونَ ذَوو ٱمْتِيازاتٍ، ونادِرونَ، تَتَمَلَّقُهُم النّاسُ بِرُغْمِ تَجاهُلِهِم للنّاسِ. يُسَلِّمونَ عَلَيْهِم، وَقَلَّما يَرُدّونَ. ومارغو عَوْراءُ. يَسْتُرُ عَيْنَها ٱليُمْنى غِشاءٌ أَبْيَضُ كَثَوْبِها ٱلأَبْيَضِ، وَمَعَ ذلكَ

يَزورُها ٱلكثيرونَ مِنْ مُوَظَّفي ٱلحُكومَةِ في بَيْتِها. وَلَها حُظْوَةٌ عِنْدَ ضُبّاطٍ يَجيئونَ وَيَذْهَبونَ في سيّاراتِ لانْدروڤر. إنَّها ذاتُ سَطْوَةٍ حَقّاً، لكنَّ سَطْوَتَها في ٱلمُسْتَشْفى تُعادِلُ سَطْوَةَ قائِمَّقام.

وَمَنْ يَؤُمُّ ٱلمُسْتَشْفى ٱلحُكوميَّ غَيْرُ ٱلقَرَوِيّين وَبُسطاءِ الضَّواحي؟ يَنْظُرُ ٱلمُمَرِّضونَ وَٱلمُمَرِّضاتُ إلَيْهِم شَزْراً، وَهُمْ يَدْفَعونَ طاساتٍ مَطْعوجَةً في ٱتِّجاهِهِم: «تَبَوَّلوا». وأيْنَ يَتَبَوَّلُ ٱلمَرْضى في طاساتِهِم؟ كُلُّ ٱلمَرْضى يَحْمِلونَ طاساتٍ، حتّى أوُلئِكَ ٱلَّذين يَحْضُرونَ طَلَباً لِبَعْضِ ٱليودِ مِنْ أجْلِ إصْبَعٍ جَريحٍ، وحتّى مَنْ يَزورونَ أقْرِباءَهُم؛ كلُّهم يَحْمِلونَ طاسَاتٍ. فاتِحَةُ الدُّخولِ إلى ٱلمُسْتَشْفى، زائِراً أو مَريضاً، هي الطّاسَةُ، وَعَلَيْكَ أنْ تَتَبَوَّلَ فيها، قَبْلَ أنْ تُقْنِعَ ٱلمُمَرِّضَ ٱلبَوّابَ، أوْ مُوَظَّفَ ٱلاسْتِعْلاماتِ، أنَّكَ لَسْتَ مَريضاً، بَلْ جِئْتَ مِنْ أجْلِ طُعْمِ ٱلجُدَريِّ... مَثَلاً. مَرْضى، مَرْضى حتّى يَثْبُتَ ٱلعَكْسُ. وتَأْتي حُقْنَةُ بِنِسِلين، وَتَمْضي حُقْنَةُ بِنِسِلين. بِنِسِلين لِكُلِّ شَيْءٍ، لِلسَّرطانِ، وَلِلسُّكَّري، وَلِلتّيفوئيدِ وَلِلْبِلْهرسيا، وَلِلسِّلِّ، وَلِلجُروحِ، وَلِلأَسْنانِ، وَلِلْفَتْقِ، وَلِلزّائِدَةِ الدّوديَّةِ. إبَرُ بِنِسِلين تَطيرُ

كاليَعاسيبِ في أرْوِقَةِ المُسْتَشْفى. حُلُمٌ هائِلٌ طويلٌ مِنَ البِنِسِلين يَنْتَظِرُ الدّاخِلَ بطاسَتِهِ إلى المُسْتَشْفى. لكنْ، أيْنَ يَتَبَوَّلُ المَرْضى في طاساتِهم؟ ثَمَّتَ مِرحاضٌ لا يَتَّسِعُ لِخَمْسَةِ أشْخاصٍ، وَالمَرْضى مِئاتٌ. ولِذا عَلَيْكَ البَحْثُ عَنْ رُكْنٍ ما، بَيْنَ شَجَراتِ الحَديقَةِ، أو قُرْبَ حائِطٍ، أوْ في مُنْعَطَفٍ مِنْ مُنْعَطَفاتِ المَبْنى الشَّبَحِيِّ الضَّخْمِ، لكِنَّكَ، يَقيناً، لَنْ تَجِدَ رُكْناً، أوْ مُنْعَطَفاً، أو شَجَرَةً، لَمْ تَسْبِقْكَ إلَيْها طاسَةٌ ما. «شـ خـ خـ. شـ شـ خ». الكُلُّ يَتَبَوَّلونَ على دُفُعاتٍ صَغيرةٍ، فالخَجَلُ يَحْبِسُ البَوْلَ، أو يَجْعَلُهُ مُتَقَطِّعاً. وَالخَجَلُ سِمَةٌ عامَّةٌ في ذلِكَ العَراءِ المُطَرَّزِ بالأعْضاءِ التَّناسُلِيَّةِ المُتَدَلِّيَةِ مِنْ فُتُحاتِ السَّراويلِ، أما القَرَوِيّونَ القادِمونَ بِدَشْداشاتِهِم فَيُقَرْفِصون على الأرْضِ، واضِعينَ طاساتِهِم بَيْنَ أفْخاذِهِم، أوْ يَرْفَعونَ الدَّشْداشاتِ حتّى الخُصورِ، مُمْسِكينَ بِحَواشيها في أفْواهِهِم، فَتَظْهَرُ مُؤَخَّراتُهُمُ العارِيَةُ مِنْ أيِّ لِباسٍ داخِليٍّ.

المِرْحاضُ للنِّساءِ، وَعَراءُ الحَديقَةِ، والمُنْعَطَفاتُ، والحيطانُ، للرِّجالِ وَغَيْرِهِم؛ والدّاخِلُ لمارغو. صَوْتُها يَتَدَحْرَجُ على البِلاطِ الصَّقيلِ، وَعلى الأغْطِيَةِ البَيْضاءِ، وَالقواريرِ،

والطّاساتِ آلمَمْلوءَةِ بآلبَوْل. صَوْتُها يَتَدَحْرَجُ على أنينِ آلمَرْضى، خارِجاً مِنَ النَّوافِذِ كالرّيحِ فتَميلُ شَجَراتُ آلحديقَةِ، وَتَخْتَبِىءُ آلجَنادِبُ. ومارغو مَحْلولَةُ الثَّوْبِ أبَداً. زِرّانِ مَفْكوكانِ مِنَ آلأعْلى، وَثلاثَةُ أزْرارٍ مِنَ آلأسْفَلِ تَكْشِفُ طَوْقَ آلجَوارِبِ آلبَيْضاءِ مِنَ آلأعْلى، الغائِصَ في لَحْمِ آلفَخْذِ آلبَضِّ. وَلَيْسَ مِنْ رُواقٍ مُعْتِمٍ، أو سِتارَةٍ خَشَبِيَّةٍ مِمّا يَتَفَحّصونَ خَلْفها آلمَرْضى، إلّا ولمارغو وراءَها لُهاثٌ أو رائِحَةٌ. يَكْفي أنْ يَغْفَلَ مُمَرِّضٌ عن صَديقِهِ دَقيقَتَيْنِ لِتَخْتَطِفُه مارغو. يَكْفي أنْ تَنْحَنِيَ دَقيقَةً واحِدَةً على آلمَغْسَلَةِ لِيَكونَ أحَدُهُم قَدْ رَفَعَ ثَوْبَها إلى خَصْرِها وَبَدأَ عُواءَهُ آلأبَدِيَّ. يَكْفي أنْ يَكونَ أحَدُهُم جالِساً لِكِتابَةِ وَصْفَةٍ حتّى تَفْتَحَ مارغو أزْرارَ بِنْطالِهِ، وَمِنْ دونِ أنْ تَرْفَعَ ثَوْبَها قَطُّ، وَبغَريزَةٍ كَغَريزَةِ آلبَشْروشِ، لا تُخْطِىءُ آلهَدَفَ السُّفْليَّ الصَّلْبَ آلَّذي يَتَفَجَّرُ حَلْقَةً حَلْقَةً مِنَ آلحَلْوى وَآلفاكِهَةِ آلغامِضَةِ، قائِمَةً قاعِدَةً في حَرَكَةٍ سَريعَةٍ مُتواصِلَةٍ، ثُمَّ تَسْتَديرُ وَتَمْضي، غَيْرَ عابِئَةٍ، أحْياناً، بآلقَطْرَةِ آلبَهِيَّةِ آللَّزِجَةِ آلَّتي تَتَدَحْرَجُ على طولِ آلجَوْرَبِ، حتّى تَسْتَقِرَّ في حِذائِها. هَكذا تَمْلِكُ مارغو آلمُمَرِّضينَ. أمّا آلأطِبّاءُ الشُّيوخُ آلقليلونَ، آلّذينَ يَعْبُرونَ

ٱلأزْوِقَةَ كَبَقايا حَيَواناتٍ بعَدْ مَحْلٍ طَويلٍ، فَيَكْفِيهم مِنْ مارغو أنْ تَجْلِسَ أمامَهُم على كُرْسِيٍّ، طاوِيَةً ساقاً واحِدَةً لِصْقَ صَدْرِها، كاشِفَةً عَنْ مَعْبَرِها الضَّيِّقِ ٱلَّذي يَصِلُ فَخْذَيْنِ لا تَهْدَآنِ؛ مَعْبَرِها ٱلَّذي لا يَخْرُجُ مِنْهُ الرَّجُلُ إلّا خائِباً، أو أشَدَّ تَصْميماً على تَكْرارِ هَزائِمِهِ. وَلَرُبَّما مَدّ أُولئِكَ الشُّيوخُ أيْدِيَهم ٱلمُرْتَجِفَةَ إلى ٱلجَحيمِ الصَّغيرِة - مِرْآةِ شَبابِهِم الضّائِعِ - في مُنْتَصَفِ جِذْعِ مارغو، وَتَأَوَّهوا بٱخْتِناقٍ، وَهُمْ يَضَعونَ أيْدِيَهُم ٱلأُخْرى في فُتُحاتِ سَراويلِهِم.

مِنْ بَعيدٍ يَتِمُّ كُلُّ شَيْءٍ مَعَ ٱلأطِبّاءِ الشُّيوخِ، وَتَتَّسِعُ مَمْلَكَةُ مارغو؛ تَتَّسِعُ كَحُلُمٍ مِنَ ٱلپِنِسِلين في ذاكِرَةِ ٱلمَرْضى. وَبِسُلْطَةِ مارغو، وَحْدَها، يَنْتَقِلُ مَريضٌ مِنْ جَناحٍ إلى جَناحٍ، وَتَزْدادُ حُظْوَةُ بَعْضِهِم عِنْدَ ٱلمُمَرِّضاتِ أوْ تَقِلُّ؛ تُبَدَّلُ الشَّراشِفُ يَوْمِيّاً، أوْ تَبْقى أشْهُراً. وَبِسُلْطَةِ مارغو يَسْتَقْبِلُ ٱلمُسْتَشْفى مَرْضى جُدُداً، أوْ يَبْقَوْنَ سَنواتٍ في ٱلخارِجِ، وَهُمْ يَحْمِلونَ طاساتِ ٱلبَوْلِ، مِنْ غَيْرِ أنْ يَأْخُذَها أحَدٌ مِنْهُم إلى ٱلغُرْفَةِ ذاتِ ٱلأنابيقِ، وَٱلأواني الزُّجاجِيَّةِ، ٱلَّتي يَطُنُّ مِنْ حَوْلِها ٱلبَعوضُ لِطولِ ما رَكَدَ فيها ٱلبَوْلُ.

كُلُّ آمالِ ٱلمَرْضى مُعَلَّقَةٌ على بَوْلِهِم. أنْ يَقْبَلوا بَوْلَكَ يَعْني أنَّهُم يَقْبَلونَكَ. وفي ٱلمُسْتَشْفى تَخْتَلِطُ الطّاساتُ. لا أحَدَ مِنَ ٱلمُمَرِّضينَ ٱلمُتَأَفِّفينَ يَتَفَحَّصُ بَوْلَ أحَدٍ، وَمَعَ ذلكَ تَجْري ٱلأمورُ في رُتوبٍ مُنْتَظِمٍ، وَفْقَ مَشيئَةٍ عَمْياءَ تُصيبُ ـ أبَداً ـ غَيْرَ ما هُوَ مَقْصودٌ: «فُلانٌ... فَلْيَتَقَدَّمْ فُلانٌ»؛ وَهَكذا تَنْتَقي ٱلمُصادَفَةُ رَعاياها، وَيَدْخُلُ ٱلمُسْتَشْفى مَنْ لَمْ يَتَقَدَّمْ بِطَلَبٍ قَطُّ، ولا بِطاسَةِ بَوْلٍ.

مُصادَفاتٌ مُتواصِلَةٌ في شِمالٍ لم يَكُنْ وُجودُهُ إلّا مُصادَفَةً. إذْ لَمْ تَكُنْ للأرْضِ، مِنْ قَبْلُ، إلّا ثلاثُ جِهاتٍ، تَتَعاقَبُ فيها ٱلأمورُ وَٱلحيواناتُ في هَنْدَسَةٍ مَجْنونَةٍ مُحْكَمَةٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ مَحْسوبٌ في السِّجِلِّ اللّامَرْئِيِّ، مُقَسَّمٌ إلى أصْغَرِ جَذْرٍ تَرْبيعيٍّ، أو تَكْعيبيٍّ، كَٱللّوغارِتم. وكانَ ٱلهَواءُ مُحاسِبَ ٱلأرْضِ وَدَفْتَرْدارَها، يُرَتِّبُ ٱلغَيْمَ في مُكَعَّباتٍ، وَيَحْسُمُ من كثافَةِ الضَّبابِ أو يَزيدُها، يَحْفِرُ مَجارِيَ جانِبِيَّةً في ٱلأنْهارِ لِيَخْتَزِلَ ٱلمياهَ إلى ٱلحَدِّ ٱلَّذي تَحْتاجُهُ أرْضٌ ما؛ يَميلُ بِأوْراقِ ٱلأشْجارِ لِيَرْتَسِمَ ظِلُّها فَوْقَ بُذورٍ في حاجَةٍ إلى ظِلٍّ، أو لِيَكْشِفَ بذوراً أُخْرى لَيْسَتْ في حاجَةٍ إلى ظِلٍّ. وَٱلهَواءُ الدَّفْتَرْدارُ، ٱلخازِنُ

ٱلأكْبَرُ لِشَغَفِ ٱلآلِهَةِ بالنِّظامِ وَٱلمَنْطِقِ، يَأْتي وَيَمْضي وَفْقَ حِسابٍ مَعْلومٍ لِزوايا ٱلهُبوبِ: زَاوِيَةٍ حادَّةٍ، زَاوِيَةٍ قائِمَةٍ، زَاوِيَةٍ مُنْفَرِجَةٍ. وَلَهُ فُرْجارٌ يَظَلُّ لِقَلَمِهِ الرَّصاصِ صَريرٌ مُؤْنِسٌ على وَرَقَةِ ٱلغَيْبِ الشَّفيفَةِ. غَيْرَ أنَّ ٱلآلِهَةَ مَلَّتْ تِلْكَ ٱلهَنْدَسَةَ كُلَّها، وَمَلَّتْ سُلْطَةَ أنْ تَعْرِفَ التَّعاقُبَ وٱحْتِمالاتِهِ؛ مَلَّتْ سُلْطَةَ أنْ تَعْرِفَ ٱلأمورَ إلى ٱلأبَدِ، فَقَرَّرَتْ، ذاتَ ظَهيرَةٍ، وَهِيَ تَنْقُلُ حِجَارَةَ شَطَرَنْجِها في كَسَلٍ، أنْ تَخْلُقَ جِهَةً رابِعَةً تَسْتَعْصي على ٱلهَنْدَسَةِ، وعلى ٱلحِسابِ، وَعلى ٱلجَبْرِ، وَعلى ٱلاحْتِمالاتِ، وَعلى كُلِّ قِياسٍ آخَرَ مِنَ قِياساتِ مَعْرِفَتِها... فكانَ الشِّمالُ... الشِّمالُ ٱلمُطَرَّزُ بِمُصادَفاتٍ مُلْتَمِعَةٍ كٱلخَرَزِ.

وها مارغو تَزيدُ في مُصادَفاتِ الشِّمالِ مُصادَفَةً جَديدَةً؛ مُصادَفَةَ أنَّ مارغو هِيَ مارغو. وماذا لَوْ لَمْ تَكُن هِيَ هِيَ؟ إذَنْ لٱنْتَفى أيُّ سَبَبٍ لِوجودِ ٱلمُسْتَشْفى. فالنّاسُ لا تَذْهَبُ إلَيْهِ لأنَّهُم مَرْضى، بَلْ حُبّاً بٱلوقوفِ أمَامَ بوّاباتِهِ. حُبّاً بٱمْتِحانِ مَقْدِرَتِهِم على التَّبَوّلِ أمامَ أنْظارِ ٱلآخَرينَ. حُبّاً بٱمْتِحانِ ٱلمُصادَفَةِ وَسُلْطَتِها ٱلعَذْبَةِ.

كانَ ذلكَ كُلُّهُ قَبْلَ مَجيءِ الصَّخَبِ ٱلَّذي خَلَعَ مدينَةَ

آلمَلاهي مِنْ أساساتِها، وَجَعَلَ الرّاقِصاتِ مَشاعاً لِمَنْ يُريدُ أنْ يُمَتِّعَ عَيْنَيْهِ بِفَخْذَيْنِ لا يَتَوَسَّطُ مُلْتَقاهُما شَعْرٌ أو زَغَبٌ، بل رابِيَةٌ حَليقَةٌ مِنَ آللَّحْمِ الصِّرْفِ في حَجْمِ قَبْضَةِ آليَدِ، تُثيرُ مِنَ آللُّهاثِ ما يَكْفي لِجَرْفِ قَرْيَةٍ كَبيرَةٍ بِمنازِلِها، وَناسِها، وَأغْنامِها، وَكِلابِها، وَدجاجاتِها. لكنَّ آلأمْرَ تَبدَّلَ مَعَ مارغو، بَعْدَ يَوْمِ الصَّخَبِ، فَكَأَنَّ سُلْطَتَها كانَتْ مِنْ سُلْطَةِ آلهُدوءِ الضّاري آلَّذي خَيَّمَ بِضْعَ سِنينَ، (بِقُوَّةِ الشُّرْطَةِ)، حتّى لَيَزْعُمُ بَعْضُهُم، آنَذاكَ، أنَّهُم تَوَجَّسوا قُدومَ ميرو بأكْباشِهِ، واضِعينَ آذانَهُم على جُدْرانِ آلبُيوتِ: «هِسّ. هِسّ. إنَّها أظْلافُ آلأكْباشِ تَرْتَطِمُ بآلحَصى في وادي بلير. هِسّ. هِسّ». وَذَهَبَ بَعْضُهُم في الزَّعْمِ إلى حَدٍّ تَأْكيدِ أنَّهُم رَأَوْا، مِنْ بَعيدٍ، في التُّخومِ آلَّتي تَنْبَجِسُ مِنْها هَضْبَةُ قولو كَثَدْيٍ أرْضِيٍّ، زَوابِعَ مِنْ غُبارٍ وَدَمٍ يابِسٍ مَطْحونٍ، تَعالَتْ حتّى أبْعَدِ أُخْدودٍ في السَّماءِ آلمَشْقوقَةِ، ثُمَّ آنْحَدَرَتْ في آتِّجاهِ سَهْلِ زيريك، مُلَطِّخَةً رُؤوسَ السَّنابِلِ بِلَوْنٍ قانٍ: «إنَّه ميرو؛ تَتَجَشَّأُ أكْباشُهُ مِنْ أعْماقِ أحْشائِها». غَيْرَ أنَّ آنْقِلابَ آلحُكومَةِ آلجَديدَةِ على آلحُكومَةِ آلقَديمَةِ بَدَّدَ آلمَزاعِمَ، وَقَدَّمَ إلى النّاسِ زَمَناً صاخِباً على صَحْنٍ وَرَقِيٍّ:

«كُلوا هَنيئاً مَريئاً. كُلوا ٱلأوْسِمَةَ، وٱلأضابيرَ، وَٱلقُبَّعاتِ، وَٱلأحْذِيَةَ ٱلعَسْكَرِيَّةَ. كُلوا مُخَلَّفاتِ ٱلانْتِهازِيّينَ، وَٱمْحوا آثارَهُم». وَأكَلْنا كُلَّ ذلِكَ حَقّاً، أكَلْنا جُدْرانَ السّراي، وَبَيْتَ ٱلقائِمَّقامِ ذا ٱلحَديقةِ ٱلمُتْرَفَةِ بأزاهيرِها. ثُمَّ أكَلْنا ٱلمُسْتَشْفى.

يا لَلْهُدوءِ ٱلهَشِّ ٱلَّذي نَسَجَتْهُ ٱلحُكومَةُ السّابِقَةُ بِخُيوطٍ مِنْ أبْصارِ الشُّرْطَةِ، وَصَريرِ أبْوابِ ٱلأقْبِيَةِ. يا لَمارْغو.

لَقَدْ داهَمَ أوْلادُ مَيْسي ٱلمُسْتَشْفى بَعْدَ ٱلبلاغِ ٱلأوَّلِ لِلْحُكومَةِ ٱلألْفِ. قَلَبوا أنابيقَ ٱلبَوْلِ، وَقَماقِمَهُ، وَقواريرَهُ، وَطاساتِهِ، في طَريقِهِم. قَلَبوا ٱلأسِرَّةَ، وَدَحْرَجوا ٱلمَرْضى على ٱلبِلاطِ الصَّقيلِ، وَهُمْ يَبْحَثونَ بِعُيونِهِم ٱلعِنَبِيَّةِ عَنْ مارغو، مُزْبِدينَ كَبَقَرِ ٱلحِراثَةِ. «سَيَأْكُلونَها أكْلاً» تَمْتَمَ بَعْضُهُم. «سَيَأْكُلونَها كَما أكَلَ أطِبّاءُ ٱلمُسْتَشْفى أُمَّهُم ميسي». لَقَدْ وَقَفَ أوْلادُها أمامَ بوّابَةِ ٱلمُسْتَشْفى شَهْرَيْنِ، مُمَدِّدينَ أُمَّهُم على فِراشٍ رَثٍّ، وفي يَدِ أحَدِهِم طاسَةُ بَوْلِها. شَهْرانِ وَهُمْ يَكُشّونَ الذُّبابَ عَنْ عَيْنَيْها ٱلمُرْتَخِيَتَيْنِ. شَهْرانِ، بطولِهِما، يُرَدِّدونَ جُمْلَةً واحِدَةً على مَسْمَعِ أُمِّهِم: «سَتَكونينَ في خَيْر. إنَّه ٱلمُسْتَشْفى»، ثُمَّ يَضَعونَ أيْدِيَهُم على أفْواهِهِم الصّارِمَةِ

كأنَّما يَخْنُقونَ زيزانَ آلألَمِ آلَّتي تَتَخَبَّطُ في حَناجِرِهِم. وحينَ نادى مُنادٍ مِنَ الرِّواقِ آلـمُعْتِم: «ميسي بريخان»، طاروا بِها كآلعَصافيرِ إلى الدّاخِلِ، مُصْطَدِمينَ بطاساتِ آلبَوْلِ في آلأيدي: «يُنادونَ أُمَّنا. وَسِّعوا، وَسِّعوا». وكانوا مَرِحينَ بَعْدَ ذلِكَ كأشَدِّ ما يكونُ آلـمَرَحُ. يَتَحَلَّقون حَوْلَ سَريرِ أمِّهِم، مُتباهينَ بِحَبّاتِ آلبُرْتُقالِ آلَّتي يَجْلُبونَها، بَيْنَما يَنْظُرُ آلمَرْضى آلآخَرونَ إلَيْهِم في حَسَدٍ ظاهِرٍ. وَلَمْ يَدُمِ آلأمْرُ طَويلاً، فَقَدْ دَخَلَتْ مارغو كَصاعِقَةٍ مِنَ آللَّحْمِ وَآلبَياضِ إلى الرَّدْهَةِ آلـمُزْدَحِمَةِ بآلأسِرَّةِ، وَأشارَتْ إلى سريرِ ميسي، هاتِفَةً بِمُمَرِّضَيْنِ يَجُرّانِ مِحَفَّةً ذاتَ دَواليبَ: «هذهِ هِيَ آلـمَيْتَةُ. خُذوها». وَتَقَدَّمَ آلـمُمَرِّضانِ في حَرَكَةٍ آلِيَّةٍ، ساحِبَيْنِ آلهَيْكَلَ الشَّبَحِيَّ مِنْ بَيْنِ آلأغْطِيَةِ.

كانَ وُجومٌ صَلْبٌ في الرَّدْهَةِ؛ وُجومٌ يَتَطايَرُ مِثْلَ آلـمُذَنَّباتِ آلعَمْياءِ. وُجومٌ وَذُهولٌ لَمْ يُفِقْ مِنْهُما أوْلادُ ميسي إلّا وَكانَ آلـمُمَرِّضانِ قَدْ مَضَيا بِها في الرِّواقِ. رَكَضوا: «أُمّاه». صَرَخَ طَبيبٌ كَهْلٌ: «يا لَلْحَمير، لِماذا يَرْكُضون؟». آلْتَفَتوا إليهِ، وَتَشَبَّثوا بِقَميصِهِ: «أعِدْها يا سَيِّدي». قالَ الدُّكْتورُ في آمْتِعاضٍ: «أبْعِدوا أيْدِيَكُمْ عَنّي. إنَّها مَيْتَةٌ يأخُذونَها إلى غُرْفَةِ التَّشْريح».

«مَيْتَة؟؟؟» كَرَّروا آلكَلِمَةَ في عَويلٍ مَكْتوم. «لا. إنَّها حَيَّةٌ يا دُكتور. تعالَ آسْمَعْ تَنَفُّسَها. تَعالَ آسْمَعْ حِكايَةَ جَدْيِها ذي آلقُرونِ الثَّلاثَةِ». وكأنَّما آسْتَدْرَكوا مَسْأَلَةً مُهِمَّةً في لَحَظاتِ الذُّهولِ تِلْكَ، فأَشاروا بِأَيْدِيهِم إلى مارغو: «إسْأَلْها يا دُكتور. إسْأَلِ السِّتَّ مارغو، سَتَقولُ لَكَ إنَّ أُمَّنا حَيَّةٌ». وَأَوْمَأَتْ مارغو بِرَأْسِها في إشارَةٍ جازِمَةٍ: «دَعْكَ مِنْهُم».

حاوَلوا أنْ يُقْنِعوا الدُّكتورَ بِكَلامٍ جَديدٍ فَخَذَلَتْهُم حَناجِرُهُم. تَرَكُوهُ وَتَبِعوا آلمُمَرِّضينَ وَآلمِحَفَّةَ ذاتَ الدَّواليب. وحينَ وَصَلوا إلى آلمَسْلَخِ آلآدَمِيِّ آلمَعْزولِ، كانَ آخِرُ طَبيبٍ بَيْطَرِيٍّ يُحاوِلُ أنْ يُوْصِدَ آلبابَ آلخَشَبِيَّ خَلْفَهُ. صَرَخوا: «أُمّاهُ»، ثُمَّ حاوَلوا آقْتِحامَ آلبابِ، فَوَقَفَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُم طَبيبانِ في أيْديهِم سَواطيرُ صَغيرَةٌ: «ألا تَفْهَمونَ؟ الماما ماتَتْ... ماتَتْ»، لكنَّ صَوْتاً ضَعيفاً، في الدّاخِلِ، كانَ يُرَدِّدُ آسْمَهُم واحِداً واحِداً، ثُمَّ آخْتَفى لِيَخْرُجَ طَبيبٌ ثالِثٌ حامِلاً قَلْباً آدَمِيّاً: «آنْظُروا يا حَمير. أَلَمْ نَقُلْ إنَّها ماتَتْ؟». إذْ ذاكَ سَقَطَ أوْلادُ ميسي عَلى رُكَبِهِم كَشُجَيْراتٍ مِنْ دَغْلِ الهلالية.

«أيْنَ سَتَخْتَفي مارغو؟» تَمْتَمَ أوْلادُ ميسي. وَفِعْلاً، لَمْ

يَسْتَطِعِ ٱلمُسْتَشْفى الضَّخْمُ كَهَيْكَلٍ مِنْ هياكِلِ حَيَواناتِ ٱلحِكايَةِ أنْ يُلْجِىءَ مارْغو، فإذا هِيَ مُتَكَوِّمَةٌ في مِرْحاضِ السَّيِّداتِ، فَجَرّوها مِنْ غُرْفَةٍ إلى غُرْفَةٍ، وَمِنْ رَدْهَةٍ إلى أُخْرى، وَمِنْ رِواقٍ إلى شَبيهِهِ، ثُمَّ خَرَجوا إلى ٱلحَديقَةِ، مُتَّجِهينَ إلى غُرْفَةِ التَّشْريحِ ٱلمَعْزولَةِ.

كانَتْ تَتَشَبَّثُ بِٱلعُشْبِ فَيَتَقَصَّفُ، وَبِٱلحِجارَةِ فَتَنْفِرُ كالسَّحالي، صامِتَةً تماماً، مُغْمِضَةً عَيْنَها السَّليمَةَ، بَيْنَما ظَلَّتِ ٱلعَيْنُ ٱلعَوْراءُ مُفَتَّحَةً تُحَدِّقُ في مَغيبٍ يَقْضَمُ أعْضاءَهُ ٱلمُضيئةَ. وعلى الطّاوِلَةِ ٱلخَشبيَّةِ ذاتِها، ٱلَّتي تَتَدَلّى مِنْ حوافِّها قِطَعٌ مُقَدَّدَةٌ مِنَ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ، مَدَّدَ ٱلغاضِبونَ مارْغو. طَوَوْا فَخْذَيْها ٱلمُلَوَّثَيْنِ بِدَمِ ٱلحَيْضِ على صَدْرِها، وأدْخَلَ أحَدُهُم ذِراعَهُ كُلَّها في التَّجْويفِ ٱلأُبَّهِيِّ لِجُنونِ السُّلالَة. أدْخَلَهُ كما تَعَوَّدَ أنْ يُدْخِلَهُ في شَرْجِ ٱلبَقَراتِ ٱلَّتي تُصابُ بالتُّخْمَةِ، لِيُخْرِجَ الرَّوْثَ بِيَدِهِ. وَٱلقَرَوِيّونُ حاذِقونَ في ذلِكَ، وَهُوَ طِبُّهُمُ الشّافي. لكنَّهُ بَدَلَ أنْ يَسْحَبَ الرَّوْثَ، هذهِ ٱلمَرَّةَ، سَحَبَ أحْشاءَ مارْغو كُلَّها: الرَّحِمَ، وَٱلمَثانَةَ، وَٱلأمْعاءَ. تَشَنَّجَتْ وَٱرْتَخَتْ تَحْتَ ٱلأيْدي الصَّلْبَةِ ٱلأُخْرى. تَهاوى رأسُها إلى وَراءٍ في بُطْءٍ،

وَظَلَّتْ عَيْنُها ٱلبَيْضاءُ ٱلـمَفْتوحَةُ تُحَدِّقُ في آخِرِ صورَةٍ رَأَتْها تِلْكَ ٱلعَيْنُ، قَبْلَ سَبْعَةٍ وَعِشْرينَ عاماً.

عَلَّقَ أولادُ ميسي نَذْرَهُمُ الدَّمَوِيَّ على مِشْجَبٍ في ٱلغُرْفَةِ، ثُمَّ خَرَجوا تِباعاً.

لَمْ تَكُنْ مارغو تَهُمُّنا، نَحْنُ الصِّبْيَةَ، قَطُّ، لكنَّنا ظَلَلْنا نَتَفَكَّهُ رَدْحاً مِنَ ٱلوَقْتِ بِسِرْوالِها الدّاخِليِّ الصَّغيرِ. وَلَمْ يَكُنْ تَفَكُّهاً بِحَقٍّ، بِمِقْدارِ ما كانَ تَفَتُّحاً لِحواسِّنا على غابَةٍ جَديدَةٍ مِنْ غاباتِ ذلِكَ ٱلعُمْرِ. وَلَمْ تَمْضِ ثَلاثُ سَنَواتٍ إلّا وَكُنّا نَلْهَثُ لُهاثَ كَبْشٍ صَغيرٍ إذْ نَتَذَكَّرُ، أو نَرى، سِرْوالاً كَسِرْوالِ مارْغو.

كان ٱبْنا مرادو ٱلـمُراهِقانِ بشيرو وحسينو قَدِ ٱكْتَشَفا مَنْبَعَ ٱلهزائِمِ وَٱلعُذوبَةِ قَبْلَنا. ٱكْتَشَفا سِحْرَ السَّراويلِ الصَّغيرَةِ وما تُخْفيهِ، فكانا يُرْسِلاننا في مُهِمّاتٍ سِرِّيَّةٍ إلى دُكّانِ بغدي ٱلأحْدَبِ، لِيُعْطيَنا، مُقابِلَ النُّقودِ ٱلَّتي أرْسَلاها، مَظاريفَ مُقْفَلَةً نَعودُ بِها سِراعاً.

لَمْ نَسْأَلْهُما قَطُّ عَنْ مُحْتَوَياتِ تِلْكَ ٱلـمَظاريفِ، إذْ كانَ يَكْفينا مِنْ كَرَمِهِما أنْ يَمُدّانا بِبَعْضِ ٱللُّفافاتِ، نُدَخِّنُها ـ في

أوَّلِ عَهْدِنا بالتَّدْخينِ ـ داخِلَ قَبْوِ فُرْنِهِما. وَفُرْنُ مرادو فُرْنٌ غريبٌ، داخِلَ قَبْوٍ يَعْلوهُ دُكّانُهُ، وَبَيْتُهُ ٱلإسْمَنْتِيُّ ٱلأكْثَرُ بِدائِيَّةً في هَنْدَسَتِهِ وَسَطَ هذا ٱلعَصْرِ. بَيْتٌ ذو قُنٍّ، في داخِلِهِ، لِلدَّجاجاتِ. تَبيضُ في الصُّحونِ، وَعلى ٱلأسِرَّةِ، وَتَأْكُلُ مِمّا تأكُلُهُ ٱلعائِلَةُ. وَٱلقَبْوُ مُقَسَّمٌ إلى رَدْهَتَيْنِ، إحْداهُما لِلْفُرْنِ وَلِلْمَعْجَنِ الطَّويلِ كَمَغْطَسِ ٱلحَمّامِ، وَٱلثّانِيَةُ مَلأى بِدَقيقِ ٱلكِلْسِ يَبيعُهُ مرادو. وَثمَّتَ مَدْخَلٌ مَفْتوحٌ يَصِلُ الرَّدْهَتَيْنِ، فَتَأْتي الدَّجاجاتُ مِنْ جِهَةِ ٱلبَيْتِ، وَتَنْزِلُ الدَّرَجَ ٱلعَريضَ إلى رَدْهَةِ ٱلكِلْسِ، ثُمَّ تَعْبُرُها إلى رَدْهَةِ ٱلفُرْنِ، فَتَصْعَدُ إلى حافَّةِ مَغْطَسِ ٱلعَجينِ. تَأْكُلُ حتّى الشَّبَعِ، وَتُكْمِلُ دائِرَةَ نُزْهَتِها فَتَخْرُجُ، بَعْدَ قَفْزَتَيْنِ على الدَّرَجاتِ ٱلوَطيئَةِ، مِنَ ٱلبَوّابَةِ الضَّيِّقَةِ ٱلَّتي يَدْخُلُ مِنْها الزَّبائِنُ لِشِراءِ ٱلخُبْزِ. وإذْ تَجِدُ نَفْسَها على الطَّريقِ ٱلعامِّ تَمْضي في شِبْهِ قَوْسٍ إلى باحَةِ ٱلبَيْتِ، وَمِنْ ثَمَّ تُكْمِلُ النُّزْهَةَ الدّائِريَّةَ، مِنْ جَديدٍ، عَبْرَ مَدْخَلَيِ ٱلقَبْوِ. هذا دَأْبُها. أمّا ٱلقَبْوُ فَيَخْتَلِطُ فيهِ دَقيقُ ٱلكِلْسِ بالطَّحينِ، وَٱلأرْغِفَةُ ٱلبائِتَةُ بٱلأرْغِفَةِ الطّازَجَةِ، والسَّحالي الصَّغيرَةُ بٱلفِئْرانِ ٱلَّتي تَضِلُّ طَريقَها، أحْياناً، فَتَدْخُلُ «بَيْتَ النّارِ»، وَمِنْ ثَمَّ تَنْفَجِرُ كٱلمُفَرْقَعاتِ.

لَقَدِ ٱسْتَنْفَدَتْ شُرْطَةُ ٱلبَلَدِيَّةِ دَفاتِرَها ٱلَّتي تُدَوِّنُ عَلَيْها مَحاضِرَ ضَبْطٍ، فَطَلَبَتِ ٱلبَلَدِيَّةُ دفاتِرَ مِنَ ٱلعاصِمَةِ فٱسْتَنْفَدَتْها الشُّرْطَةُ، بِدَوْرِها، على بابِ فُرْنِ مرادو. وحينَ لَمْ تَجِدْ وَرَقاً، دَوَّنَتِ ٱلمحاضِرَ على قِطَعٍ مِنْ حِجارَةِ ٱلباطونِ، وعلى خَشَبِ صناديقِ ٱلبَنَدورَةِ، وعلى تَرْقُواتِ ٱلبَقَرِ ٱلمَذْبوحِ. وأخيراً، صَرَفَتِ الشُّرْطَةُ النَّظَرَ عَنِ ٱلأمْرِ كُلِّهِ، وَبَقِيَ فُرْنُ مرادو أميرَ أفْرانِ ٱلحَيِّ ٱلغَرْبيِّ ٱلَّذي لا فُرْنَ آخَرَ فيهِ.

كانَ فُرْنُ مرادو مَلاذَنا في ذلِكَ ٱلعُمْرِ ٱلعابِقِ بِتَفَتُّحاتٍ مِثْلَ زَهْرِ ٱلبامِيَةِ. نَجْلِسُ على مِخَدَّةٍ مِنَ ٱلقَشِّ في رَدْهَةِ ٱلكِلْسِ، وَنَتبارى في نَفْثِ الدُّخانِ مِنْ أُنوفِنا، أوْ نَقومُ بِحَرَكاتٍ بَهْلوانيَّةٍ على حافَّةِ مَغْطَسِ ٱلعَجينِ، وَقَدْ سَقَطتُ فيه مِراراً، وَنَهَضْتُ كَرَجُلِ ثُلوجٍ، أبْيَضَ مِنَ الرّأْسِ حتّى ٱلقَدَمَيْنِ. لكنْ، أكْثَرُ ما شدَّنا في ذلِكَ ٱلقَبْوِ هي مَجَلّاتُ ٱلأطْفالِ، وَقِصَصُ ٱلمُغامَراتِ، فَٱبْنا مرادو شَغِفان بِجَمْعِها، وَيَمْلِكانِ أنْ يَسْرِقا مِنْ دَخْلِ ٱلفُرْنِ ما يَشْتَرِيانِ بِهِ أشْياءَ لا نَمْلِكُ أنْ نَشْتَرِيَها. إنَّهُما سَيِّدا ٱلفُرْنِ، يُديرانِهِ بِنَفْسَيْهِما. يَقِفُ بشيرو ذو ٱلعَضَلاتِ أمامَ ٱلفُوَّهَةِ ٱللَّهَبِيَّةِ، وفي يَدَيْهِ لَوْحٌ خَشَبِيٌّ يَنْتَهي بِمِقْبَضٍ طَويلٍ، بَيْنَما يُرَقِّقُ حسينو

قِطَعَ ٱلعَجينِ، وَيَدْهَنُها بالرَّوْبَةِ لِتَخرُجَ الرَّقائِقُ، مِنْ ثَمَّ، أرْغِفَةً حَمْراءَ. وَيَتَناوَبُ الشّابّانِ ٱلبَيْعَ، وفي كُلِّ نَوْبَةٍ يَكونُ أحَدُهُما قَدْ دَسَّ في حِذائِهِ بِضْعَ وَرَقاتٍ نَقْدِيَّةٍ.

لَقَدْ كَشَفَ لنا حسينو ذاتَ يَوْمٍ، سِرَّ ٱلـمُغَلَّفاتِ ٱلـمُغْلَقَةِ ٱلَّتي ٱشْتَرَيَناها لَهُ مِنْ بغدي الأحْدَب. وكانَ لحسينو صُنْدوقٌ مِنْ خَشَبٍ مَتينٍ، وَعَلَيْهِ قُفْلٌ ذو أرْقامٍ لا يَعْرِفُ فَكَّ لُغْزِها إلّا هُوَ. صُنْدوقٌ مَليءٌ بِما يَشْتَهيهِ صِبْيَةٌ مِثْلُنا: قِصَصٌ وَمَجلّاتٌ مُصَوَّرَةٌ. كاميرا، زُجاجاتٌ مُكَبِّرَةٌ، ثَوْبُ سِباحَةٍ مُدْهِشٌ، كاسْكيت، صُوَرُ مُمَثِّلينَ وَمُمَثِّلاتٍ، مُكَعَّباتُ زَهْرٍ، أوْراقُ لَعِبٍ پْلاستيكيَّةٌ، أمتارٌ مِنْ أشْرِطَةٍ سِينَمائِيَّةٍ مَسْروقَةٌ، أقفالٌ خاصَّةٌ، أقْلامٌ عَلَيْها صُوَرُ راقِصاتٍ، بِرْيانتينُ للشَّعْرِ، خِنْجَرٌ نُحاسيٌّ، وَرَقٌ مُلَوَّنٌ لِكتابَةِ الرَّسائِلِ، قُفّازاتٌ جِلْديَّةٌ، أحْزِمَةٌ مُزَخْرَفَةٌ، عُلَبُ تَبْغٍ تُرْكِيٍّ. غَلْيونٌ، أنْيابُ ذِئْبٍ، عَلّاقاتُ مَفاتيحَ مِنَ ٱلـخَرَزِ يَصْنَعُها ٱلـمَسْجونونَ عادَةً، نَظّاراتٌ شَمْسِيَّةٌ ذاتُ عَدَساتٍ مُقَعَّرَةٍ... إلخ... إلخ، إضافَةً إلى ٱلـمُغَلَّفاتِ ٱلـمُغْلَقَةِ. وَقَدْ فَتَحَها حسينو أمامَ أنْظارِنا، فكانت مَلأى بِصُوَرٍ عارِيَةٍ تَماماً: عاناتٌ وأثْداءٌ، وَمُؤَخَّراتٌ لِنِساءٍ لو رآهُنَّ الشِّمالُ لَسَقَطَ

مَغْشِيّاً عَلَيْه. «يا أللَّهُ. ما هَذا حسينو؟»، وَيَتَلَمَّظُ حسينو، ثُمَّ يُمَرِّرُ لسانَهُ على شَفَتَيْهِ، هامِساً في خُبْثٍ مَرِحٍ: «سأُعيرُكُم بَعْضَها إذا أقْسَمْتُمْ على إعادَتِها سالِمَةً». وَنَتَساءَلُ في دَهَشٍ: «ولِماذا نَسْتَعيرُها حسينو؟ سَيَقْتُلونَنا، في آلبَيْتِ، إذا ضَبَطوها مَعَنا». وبالطَّبْعِ يَفْهَمُ حَسينو سَبَبَ رَفْضِنا للآسْتِعارَةِ النَّفيسَةِ تِلْكَ: «لا بأسَ. سَتَسْتَجْدونَها مِنّي بَعْدَ سَنَة»، وَقَدِ آسْتَجْدَيْناها، حَقّاً، بَعْدَ سَنَةٍ، فَتَمَنَّعَ حسينو كثيراً قَبْلَ أنْ يُعيرَها لنا.

بَيْدَ أنَّنا لَمْ نَشَأْ كَثيراً أنْ نَكونَ مِلْكَ مِزاجِهِ، فَنَحْنُ نَعْرِفُ الطَّريقَ إلى دُكّان بغدي آلأحْدَبِ، وإمّا تَوافَرَتْ نُقودٌ ذَهَبْنا إليهِ: «ألَدَيْكَ شَيْءٌ بغدي؟»، وَيَغْمِزُ بغدي: «آدْخلوا»، ثُمَّ يَرْفَعُ أكْواماً مِنَ آلمَلابِسِ آلمُتَّسِخَةِ عَنْ صُنْدوقٍ صَدِىءٍ. يَسْحَبُ جَواريرَهُ وَيُعْطينا صُوَراً قَليلَةً مُقابِلَ نُقودِنا آلقَليلَةِ. «هذهِ لَيْسَتْ حُلْوَةً يا بغدي. آسْتَبْدِلْها»، وَيَنْظُرُ إلَيْنا بغدي في نَفادِ صَبْرٍ: «لا أسْتَبْدِلُ ما أبيعُهُ. هَيّا». وَنَقْبَلُ بآلأمْرِ على مَضَضٍ.

غَيْرَ أنَّ الصُّوَرَ جَميلةٌ، وَتَسْتَدْرِجُنا إلى أكْثَرِ آلأماكِنِ عُزْلَةً لِتَمْتَحِنَ صِبانا. يا لَبغدي آلأحْدبِ. رابِضٌ في جُحْرِهِ وَعَلَيْهِ مَيْدَعَةٌ كَمَيْدَعَةِ آلحَدّاد، صَفْراءُ مُبَقَّعَةٌ بآلحُروقِ، بِفِعْلِ وَهْجِ

مِكْواتِهِ الضَّخْمَةِ آلمَلأى بِفَحْمٍ مُشْتَعِلٍ. فبغدي كَوّاء. مُعَلِّمٌ في مِهْنَتِهِ، يَضْغَطُ على آلمِكْواةِ بِيَدِهِ النَّحيلَةِ فَتَسْتَحيلُ طيّاتُ آلبَناطيلِ إلى شَفَراتٍ. عَلَيْهِ أنْ يَضْغَطَ إلى ما لا نِهايَةَ، لِيَحْتَفِظَ الزَّبائِنُ بِرَوْنَقِ ثِيابِهِم أطْوَلَ وَقْتٍ مُمْكِنٍ. عَلَيْهِ أنْ يَضْغَطَ بِثِقْلِ حِرْدَبَّتِهِ كُلِّها. إضْغَطْ، إضْغَطْ يا بغدي، فَزَبائِنُكَ لَيْسوا في يُسْرٍ يُمَكِّنُهُم مِنْ إرْسالِ ثِيابِهِم إلى آلكَيِّ كُلَّ أسْبوعٍ. إضْغَطْ يا بغدي، فَثَمَّتَ مَنْ يَنْتَظِرُ بنطالَهُ آلوَحيدَ بِسِرْوالِهِ الدّاخِليِّ في آلبَيْتِ. إضْغَطْ حتّى تَلْتَصِقَ مِكْواتُكَ بأعْمَقِ أعْماقِ آلجَحيم. إضْغَطْ طَويلاً، لِتَبْقى حِرْدَبَّتُكَ في آلمُسْتَوى آلهُلاميِّ لِلْحياةِ. إضْغَطْ يا حارِسَ آلفَحْمِ وَشراراتِهِ آلأُنْثَوِيَّةِ. إضْغَطْ. إضْغَطْ.

لكنَّ لبغدي مِهْنَةً أُخْرى أيْضاً، مِهْنَةَ رَهْنِ آلمُناسباتِ آلوَطَنِيَّةَ، وما أكْثَرَ المُناسَباتِ آلوَطَنِيَّةَ في الشِّمالِ: أعْيادٌ لِلْهزائِمِ، أعْيادٌ للانْتِصاراتِ، أعْيادٌ لِحُروبٍ وَقَعَتْ، وأُخْرى لَمْ تَقَعْ. أعيادٌ لِشُهداءَ ما يَزالُ بَعْضُهُم أحْياءً مَنْسِيّينَ. أعيادٌ لِمَجيءِ «الانْتِهازيّينَ»، أعْيادٌ لِذَهابِ «الانْتِهازيّينَ». أعيادٌ لِلشَّجَرِ يَخْلَعونَ فيها الشَّجَرَ لِنَصْبِ آلأقْواسِ. أعْيادٌ لإبْرامِ آلمُعاهَداتِ وَأعْيادٌ لِنَقْضِ آلمُعاهَداتِ ذاتِها. أعْيادٌ للأُمَّهاتِ مَعَ

وَعْظٍ كَثيرٍ بِضَرورَةِ شِراءِ هَدايا لا نَمْلِكُ ثَمَنَها. أعْيادٌ لِمُعَلِّمينَ بَليدينَ لا يَعْرِفونَ غَيْرَ ٱخْتيارِ ٱلعِصِيِّ الصَّلْبَةِ. أعيادٌ لا مُناسباتِ لها، نُضَيِّعُ فيها حَقائِبَنا ٱلمَدْرَسِيَّةَ مِنْ كَثْرَةِ الرَّكْضِ وراءَ مُعَلِّمينَ يَزْدادُ وَهْجُ حَناجِرِهِم كُلَّما ٱقْتَرَبوا مِنَ السَّراي. أعْيادٌ لِلأعيادِ، وَمُناسباتٌ لِلْمُناسَباتِ. وفي كُلِّ هذهِ التَّعاقُباتِ ٱلمُتَّصِلَةِ يُقَدِّمُ بغدي وَصْلَةً مَسْرَحِيَّةً، بِمُساعَدَةِ شَريكِهِ إبراهيمَ، بائِعِ النُّقْلِ، (أي بائِعِ بذورِ ٱلبَطّيخِ، وَفُسْتُقِ ٱلعَبيدِ، وَٱلفُسْتُقِ ٱلحَلَبِيِّ، وَٱلحُمُّصِ، وٱلبُنْدُقِ، إلخ). وإبْراهيمُ يَقِفُ بِعَرَبَتِهِ ٱلمُزَرْكَشَةِ ذاتِ ٱلعَجَلَتَيْنِ أمامَ دُكّانِ بغدي مُعْظَمَ أحْيانِ النَّهارِ، كأنَّما يَتَداوَلانِ، أبداً، في مَسْرَحِهِما ٱلَّذي لا يَتَعَدّى دَوْرَيْنِ: دَوْرِ ٱلمُسْتَعْمِرِ، وَهُوَ لِلأحْدَبِ؛ وٱلمُناضِلِ، وَهُوَ لِبائِعِ النُّقْلِ. إنَّهُما يَحْفَظانِ دَوْرَيْهِما ٱلأبَدِيَّيْنِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، لكِنَّهُما يَتَجادَلانِ في التَّفاصيلِ. يَقولُ إبراهيمُ: «سَنُدْخِلُ بَعْضَ ٱلكومپارس في مَسْرَحِيَّتِنا، مِنْ تَلامِذَةِ ٱلمَدارِسِ». وَيَرُدُّ ٱلأحْدَبُ: «نَحْنُ نَكْفي يا برو. أسْتَطيعُ أنْ أُؤَدّيَ دَوْرَ ٱلكومپارس أيْضاً». يَقولُ إبراهيمُ: «أنْتَ واحِدٌ، نُريدُ عَشْرَةً»، وَيَرُدُّ ٱلأحْدَبُ: «أنا مِثْلُ عَشْرَةٍ، وأكْثَرُ». يَقولُ إبراهيمُ: «نُريدُ

مَجْموعَةً لِتُنْشِدَ النَّشيدَ ٱلوَطَنِيَّ بَعْدَ شَنْقِكَ على خَشَبَةِ ٱلمَسْرَحِ»، وَيَرُدُّ ٱلأَحْدَبُ: «سَنَجْلُبُ مُسَجِّلَةً». يَقولُ إبراهيمُ: «سَيَحْمِلونَ أعْلاماً وَرَقِيَّةً يُلَوِّحونَ بِها». وَيَرُدُّ ٱلأَحْدَبُ: «فَنُعَلِّقُ ٱلأَعْلامَ على حَبْلٍ طَويلٍ، وفي ٱلمَشْهَدِ ٱلخِتاميِّ نَفْتَحُ ٱلمِرْوَحَةَ ٱلكَهْرَبائيَّةَ في ٱتِّجاهِها». يَقولُ إبراهيمُ: «أَيُّها ٱلأَحْمَقُ، نَسْتَطيعُ أنْ نَسْتَدْرِجَ بَعْضَ ٱلفَتَياتِ ككومپارس، وهذا يُفيدُنا على...». وَيَصْمُتُ ٱلأَحْدَبُ مُفَكِّراً بِعُمْقٍ، ثُمَّ يَميلُ بِعُنُقِهِ ٱلغائِصَةِ في ٱلحِرْدَبَّةِ، مُتَسائِلاً: «وَماذا أَسْتَفيدُ مِنْ ذلِكَ يا برو؟»، وَيَعْيا إبْراهيمُ عَنِ ٱلإجابَةِ، ناظِراً إلى حِرْدَبَّتِهِ في إشْفاقٍ، ثُمَّ يَعودُ ٱلجَدَلُ مِنْ حَيْثُ بَدَأ. لكِنَّهُما يَصْعَدانِ إلى ٱلخَشَبَةِ أخيراً، حينَ تَأْتي مُناسَبَةُ الصُّعودِ إلى ٱلخَشَبَةِ، في مَدْرَسَةٍ أو في صَالَةِ سينما، وَيَبْدَأُ ٱلمَشْهَدُ ٱلأَزَليُّ: يُطِلُّ بائِعُ النُّقْلِ على ٱلجُمْهورِ هاتِفاً: «يَحْيا ٱلوَطَنُ» فَتَتَضَرَّجُ ٱلجُدْرانُ بالتَّصْفيقِ. ثُمَّ يَدْخُلُ ٱلأَحْدَبُ في ثَوْبِ ضابِطٍ أجْنَبِيٍّ، فَتَتَضَرَّجُ ٱلجُدْرانُ بالصَّفيرِ. يَجْلِسُ الضّابِطُ ٱلأَحْدَبُ على كُرْسِيِّهِ في طَريقَةٍ تَهْريجيَّةٍ وَيَصْرُخُ: «هاتوا بٱلمَلْعونِ. هاتوا بِهذا ٱلعَرَبِيِّ»، وَيَأْتي بائِعُ النُّقْلِ ٱلمُناضِلُ وَحْدَهُ، بالطَّبْعِ، مِنْ دونِ أنْ يَجيءَ بِهِ أَحَدٌ. يَقِفُ

أمامَهُ، ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ في آعْتِزازٍ وَثِقَةٍ، صارِخاً بِدَوْرِهِ: «يَجِبُ أنْ تَرْحَلوا. أرْضُ آلعَرَبِ لِلْعَرَبِ. سَنُقاوِمُ حتّى آخِرِ طِفْلٍ». يَعْلو التَّصْفيقُ، وَتَتَكَسَّرُ آلكراسي تَحْتَ آلحُضورِ. وإذْ يَهْدَأُ الضَّجيجُ، يُشيرُ آلأحْدَبُ بِإصْبَعِهِ في آتِّجاهِ بائِعِ النُّقْلِ: «خُذوووه»... وَلَيْسَ هُناكَ مِنْ أحَدٍ لِيَأْخُذَ إبراهيمَ، بَلْ يَسْتَديرُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ، وَيَمْضي إلى ما وَراءَ السِّتارَةِ في خُطىً واثِقَةٍ.

... وَنَحْسُدُ إبْراهيمَ على مَوْهِبَتِهِ، بَلْ يَحْسُدُهُ آلكِبارُ أكْثَرَ مِنّا. فَبائِعُ النُّقْلِ، بَيْنَ آلمُناسَبَةِ وَأُخْتِها، سَيِّدُ الشّارِعِ، تُشيرُ إليه فَتَياتُ آلمَدارِسِ، وَتَتَهافَتْنَ عَلَيْهِ لِشِراءِ حَفْناتٍ مِنْ بِزْرِ آلبَطّيخِ، ناظِراتٍ إلَيْهِ بِطَرَفِ أعْيُنِهِنَّ في خَفَرٍ. أمّا آلأحْدَبُ فَيَرْجِعُ إلى جُحْرِهِ، يَبيعُنا الصُّوَرَ آلعارِيَةَ، وَيَضْغَطُ بِمِكْواتِهِ آلجَحيمِيَّةِ على آلهَباءِ، بَيْنَما يَتَوَهَّجُ نَيْزَكٌ مِنَ النَّيازِكِ، آلَّتي آنْفَصَلَتْ عَنِ آلأرْضِ في نَشْأَتِها آلأولى، بَيْنَ كَتِفَيْهِ آلعارِيَتَيْنِ.

«يا للسِّرِّ آلهَشِّ» نَهْمِسُ لأنْفُسِنا. يا لـمُغَلَّفِ آبْنَيْ مرادو. أهذا كُلُّ شَيْءٍ يا بَشيرو؟ أهذا كُلُّ شَيْءٍ يا حسينو؟ لا. إنَّهُما يُريانِنا أشْياءَ أشَدَّ صَعْقاً. لَقَدْ كُنّا أباطِرَةً على مَمالِكَ مِنَ النِّساءِ آلعارِياتِ فَحَسْبُ، لكنَّ مَمالِكَنا تَنْهارُ أمامَ صُوَرٍ لِرِجالٍ وَنِساءٍ

في عُزْيِهِما ٱلأكْبَرِ، ٱلعُزْيِ ٱلقَنّاصِ، ٱلَّذي تَتَشابَكُ فيه ٱلأعْضاءُ كما تَتَشابَكُ ٱلأيْدي في التَّحِيَّةِ، وَتَلْتَحِمُ في ضَراوَةٍ لا مَهْزومَ فيها إلّا ٱلوَقْتُ.

هَنِيئاً لَهُما. هَنيئاً لِمَساءاتِهِما في ٱلقَبْوِ، يُشْعِلانِ لِلأصْدِقاءِ سِراجَ ٱلكازِ فَيَلْعَبون بٱلوَرَقِ حتّى ٱلفَجْرِ، وإذْ يَنْتَهونَ ـ لا لأنَّهُم ٱنْتَهَوْا مِنَ ٱللَّعِبِ، بَلْ لأنَّ مرادو سَيَسْتَيْقِظُ لِصَلاةِ ٱلفَجْرِ ـ يَنْفَحونَنا ليرَتَيْنِ، لأنَّنا سَهِرْنا حَرَساً على دَرَجِ ٱلمَدْخَلِ حتّى لا يَفْجَؤُهُم أحَدٌ. لكنَّنا لَمْ نَكُنْ نَسْلَمُ دائِماً مِنَ ٱلمُفاجَأَةِ. فَجَدَّتُهُما السّاهِرَةُ أبَداً، ذاتُ ٱلمائَةِ وٱلعِشْرينَ عاماً، تَتَفَقَّدُ ساحَةَ ٱلبَيْتِ شِبْراً شِبْراً بِعَصاها ذاتِ الرَّنينِ ٱلأجْوَفِ. عَمْياءُ كالظَّلامِ. تَعْرِفُ دَجاجاتِها واحِدَةً واحِدَةً، وكَذلِكَ ٱلأدْراجَ ٱلَّتي تَقودُ إلى ٱلقَبْوِ، وَمخارِجَهُ. لَقَدْ تَساوى ٱللَّيْلُ عِنْدَها بالنَّهارِ. تَبْدأُ جَوْلَتَها ٱلمُعْتادَةَ كُلَّما أفاقَتْ مِنْ نَوْمِها ٱلَّذي لا يُشْبِهُ النَّوْمَ. فَهِيَ تَغْفو واقِفَةً، أو جالِسَةً، أو مُتَّكِئَةً عَلى حائِطٍ. لا زَمَنَ لَها. تَتَقَرّى بِعَصاها السَّماءَ كَما تَتَقَرّى ٱلأرْضَ، وَتَكْرَهُ ٱلغُرَباءَ الصِّغارَ ٱلَّذين يُعاشِرونَ أحْفادَها، وأبْناءَ أحْفادِها. وَحْدَها، هذهِ ٱلعَمْياءُ ٱلموحِشَةُ، كانَتْ تَضْبُطُنا في لَيالي ٱلقَبْوِ

بَعْضَ ٱلأَحْيانِ. تَقِفُ على أوَّلِ الدَّرَجِ وَتَهْتِفُ بِصَوْتِها ٱلمُتَهَدِّجِ ٱلمُتْعَبِ: «مَنْ هُناكَ؟». إذْ ذاكَ نَتَحَوَّلُ إلى تَماثيلَ مِنَ الظَّلامِ وَٱلكِلْسِ، وَنَحْبِسُ أنْفاسَنا. غَيْرَ أنَّها لا تُصَدِّقُ السُّكونَ الثَّقيلَ: «أسْمَعُ نَبْضَ قُلوبِكُم يا أوْلادَ الشَّيْطانِ»، وَتَنْزِلُ الدَّرَجَ، يَسْبِقُها نَقْرُ الدَّليلِ ٱلخَشَبِيِّ على الإسْمَنْتِ. نَسْتَغِلُّ ضَوْضاءَ ٱلعصا فَنَتَسَلَّقُ سُدَّةً تَعْلو بَيْتَ النّارِ مُباشَرَةً، وَبِرُغْمِ أنْ لا نارَ في ٱلفُرْنِ يَظَلُّ مَزيجُ ٱلحَصى وَٱلمِلْحِ مُلْتَهِباً على السُّدَّةِ، وَهُوَ مَزيجٌ يَضَعونَهُ هُناكَ لاَمْتِصاصِ وَهْجِ النّارِ تَحْتَ أرْضِيَّةِ ٱلبَيْتِ والدُّكّانِ. «يا للسَّمٰواتِ» نَهْتِفُ في أعْماقِنا، وَنَشُمُّ نَشيشَ أحْذِيَتِنا ٱلبلاستيكيَّةِ وَهِيَ تُشْوى في بُطْءٍ.

«ٱخْرُجي» تَجْأَرُ أقْدامُنا. «ٱخْرُجي، باللَّهِ عَلَيْكِ، يا سَليلَةَ ٱلبِغالِ»، لكنَّ ٱلعَمْياءَ تَتَقَرّى الزَّوايا على مَهَلٍ. تَتَقَرّى كَوْمَةَ ٱلكِلْسِ: «أسْمَعُ نَبْضَ قُلوبِكُم يا رُؤوسَ ٱلبَطّيخِ».

«أووه حسينو، لَنْ تَخْرُجَ جَدَّتُكَ. أووه. ذابَتْ مُؤَخَّراتُنا». وَيُتَمْتِمُ حسينو: «ٱنْتَظِروا قَليلاً». وَنَنْتَظِرُ، مُسْتَنَدينَ على أقْدامِنا ٱليُسْرى مَرَّةً، وعلى ٱليُمْنى مَرَّةً ثانِيَةً، كما يَفْعَلُ ٱللَّقْلَقُ. وأخيراً تَخْرُجُ ٱلعَمْياءُ مُتَوَعِّدَةً: «سَأَنْتَظِرُكُم في أعْلى الدَّرَجِ.

سَأَنْتَظِرُكُم سَنَةً في أعْلى الدَّرَجِ. لا بُدَّ أنْ تَخْرُجوا... ها؟»، ثُمَّ تَمْضي لِتَجْلِسَ في أعْلى الدَّرَجِ، شَبَحاً يَحْرُسُ ٱلْكُنوزَ ٱلكِلْسِيَّةَ، وَٱلعَجينَ، وَٱللَّهَبَ ٱلَّذي ٱسْتَقَرَّ في مَزيجِ ٱلمِلْحِ وَٱلحَصى تَحْتَ مُؤَخَّراتِنا.

«أووه حسينو، لَمْ نَعُدْ نُطيقُ ٱلبَقاءَ»، وَيَهْبِطُ حسينو السُّدَّةَ لِيَفْتَحَ لنا بَوّابَةَ ٱلفُرْنِ، وإذْ تُحِسُّ ٱلجَدَّةُ بٱلجَلَبَةِ، وَوَقْعِ ٱلأَقْدامِ ٱلهارِبَةِ، نكونُ قَدْ بَلَغْنا الشّارِعَ ٱلعامَّ، أو ٱمْتَصَّتْنا ٱلبُيوتُ.

وفي الصَّباحاتِ ٱلَّتي تَتْلو مُفاجآتٍ لَيْلِيَّةً كَهذِهِ، تُقْسِمُ ٱلعَمْياءُ للرّائِحِ وَٱلغادي أنَّ هُنالِكَ لُصوصاً يَسْتَكْشِفونَ ٱلمَنْزِلَ وَٱلفُرْنَ، وَهَيْهاتِ يُصَدِّقُها أحَدٌ، ففي كُلِّ صَباحٍ لَدَيْها خَبَرٌ عَنْ راصِدينَ يَرْصُدونَ مَمْلَكَتَها ٱلعارِيَةَ، وَعَنْ غُزاةٍ يُغيرونَ على الدَّجاجاتِ وَٱلبَيْضِ، لكنْ لَمْ يَحْصُلْ أنْ غابَتْ دجاجَةٌ قَطُّ، أو ٱخْتَفَتْ بَيْضَةٌ مِنْ صُنْدوقِ ٱلبَيْتِ ٱلمُغْلَقِ.

كَثيرونَ مِثْلَ جَدَّةِ حسينو ٱلعَمْياءِ يَحْرُسونَ مَمالِكَهُم. كثيرونَ هُمْ حَرَسُ ٱلهَباءِ وَأشْيائِهِ السّاحِرَةِ. لا، إنَّني أنْتَقِصُ مِنَ ٱلأمْرِ، فٱلواضِحُ ـ يَقيناً ـ أنَّ كُلَّ شماليٍّ لَدَيْهِ ما يَحْرُسُهُ. إنَّهم حَرَسٌ أبَدِيّونَ ٱئْتَمَنَتْهُم أشْباحُ أعْماقِهِم على السّيرَةِ ٱلخَفِيَّةِ

لِلأرْضِ، تِلْكَ السّيَرةِ ٱلَّتي لا مَكانَ لِتَعاقُبِ ٱلحُكوماتِ فيها. لا مَكانَ لِقانونٍ، أو نِظامٍ، أو عَلاقَةٍ ٱجْتِماعيَّةٍ. لا مَكانَ إلّا لِلْهاجِسِ، أو لِلدَّليلِ ٱلخَفِيِّ ٱلَّذي يَقِفُ مُشيراً بِكُلِّ يَدٍ إلى جِهَةٍ، فَيَتْبَعُ نِصْفُ أعْماقِكَ إشارةَ يَدِهِ ٱليُمْنى، وَنِصْفُ أعْماقِكَ إشارَةَ يَدِهِ ٱليُسْرى، وَتَبْقى أنْتَ، في مكانِكَ ذاتِهِ، أعْمى، لا تَعْرِفُ غَيْرَ الرّيحِ ٱلَّتي تُداعِبُ غُرَّتَكَ الطَّويلَةَ.

حَرَسٌ يَنْتَظِرونَ مَواثيقَ الرّوحِ ٱلمَكْتوبَةَ، لكِنْ لا وَرَقَ لِلرّوحِ، ولا مَحْبَرَةَ. حَرَسُ ٱنْتِظارٍ، وَهُمْ مُؤْتَمَنونَ على ٱنْتِظارِهِم. حُلَفاءُ ٱلمِياهِ وَٱلغُبارِ. حُلَفاءُ السَّنابِلِ، وَمُنَظِّرو الشُّعاعاتِ. آ آ آ ه.

بليرو يَحْرُسُ جِسْرَيِ ٱلمَدينَةِ، مُتَنَقِّلاً بَيْنَهُما. هكذا، قَرَّرَ وَحْدَهُ أنْ يَكونَ حارِسَ ٱلجُسورِ. يُوقِفُ الشّاحناتِ وَيَصْرُخُ: «حِمْلُكُم ثَقيلٌ»، فَيُناوِلونَهُ تُفّاحَةً، أو عُنْقودَ عِنَبٍ، فَيَتَنَحّى: «لَقَدْ خَفَّ ٱلحِمْلُ. اللَّهُ مَعَكُم». يُوقِفُ ٱلعابِرينَ: «لا تَمْشوا على كُعوبِكُم. الرَّنينُ يُضِرُّ بِٱلجِسْرِ»، وَيَمْشي ٱلعابِرونَ على أمْشاطِ أحْذِيَتِهِم تَكْريماً لِلْكَهْلِ الضّائِعِ في حُبِّهِ ٱلغَريبِ، فَيَبْتَهِجُ.

وسيفي حارِسَةُ آلجَداوِلِ آلوَهْمِيَّة. تَمْشي وَسَطَ الإسْفَلْتِ، وَفَجْأَةً تُشَمِّرُ عَنْ ساقَيْها وَتَقْفِزُ. وَتَفْعَلُ آلأَمْرَ ذاتَهُ أمامَ عَتَباتِ آلبُيوتِ، وَالدَّكاكينِ، وَمَدْخَلِ آلحَديقَةِ آلعامَّةِ، وساحَةِ «السَّبْع بَحْرات». ثَمَّتَ جَدْوَلٌ في طَريقِها بَعْدَ كُلِّ خُطْوَتَيْنِ. ثَمَّتَ جَدْوَلٌ لا يَراهُ أحَدٌ. جَداوِلُ في الإسْفَلْتِ، وَفي آلجُدْرانِ، وَفي آلهَواءِ، وسيفي تَقْفِزُ مِنْ فَوْقِها، لا تُعَكِّرُ مِياهَها قَطُّ، ولا تُقْلِقُ الطّينَ.

عبّاسي قزو يَنْقُلُ في حِزامِهِ، أبَداً، خَطّافَ آلعَتّالِ. خطّافٌ ذو مِقْبَضٍ مَلْفوفٍ بِسُيورٍ جِلْدِيَّةٍ مُلَوَّنَةٍ، وَبِشَرّاباتٍ تَتَدَلّى مِنْهُ. وَحَيْثُما مَرَّ فَفي طَريقِهِ أكْياسُ قَمْحٍ لا تُرى. يَقِفُ مُسْتَلّاً خَطّافَهُ، ثُمَّ يَنْحَني كأنَّما يَرْفَعُ كيساً عَنِ آلأرْضِ، وَيَضَعُهُ فَوْقَ ظَهْرِهِ. يَمْضي خُطُواتٍ وَيُلْقي بآلكيسِ على آلقارِعَةِ. إنَّه مُوكَلٌ بِرَفْعِ آلأكْياسِ عَنِ الطُّرُقِ. مُوكَلٌ إلى ما لا نِهايَةَ، يَتَسَلّى الأطْفالُ بِوَهْمِهِ، فَيُنادونَهُ: «عبّاسي، هَذا كيسٌ... هَذا كيسٌ»، وَيُشيرونَ إلى مَكانٍ لا كيسَ فيهِ، فَيَأْتي عَبّاسي لاهِثاً؛ يُهْوي بِخَطّافِهِ على آلهواءِ وَيَسْتَديرُ فَيَحْمِلُهُ إلى مَكانٍ أمينٍ.

داود كوت يَسوقُ أمامَهُ ـ حَيْثُما مَضى ـ قَطيعاً مِنَ آلغَنَمِ؛

قَطيعاً مِنْ صوفِ حِلْمِهِ. يَنُطُّ هُنا، وَيَنُطُّ هُناكَ. يُهَرْوِلُ، في سَيْرِهِ، وَيُبْطِىءُ. يَرْكُضُ وَراءَ كَبْشٍ شارِدٍ، أو خَروفٍ نَزِقٍ، وَيُعيدُهُ إلى السِّرْبِ. عَصاهُ مَرْفوعَةٌ أبَداً: «حاحا»، وبالطَّبْعِ لَيْسَ أمامَهُ مِنْ غَنَمٍ قَطُّ. إنَّه مُوكَلٌ - مِثْلُهُ مِثْلُ أبْناءِ نَوْعِهِ النُّورانيِّ - بآلحَيَواناتِ آلخَفِيَّةِ. لكِنَّ عَمَّنا الصّوفيَّ مُوكَلٌ بِسِجِلِّ «آلعلاماتِ آلكبيرةِ»، علاماتِ آلخَرابِ آلَّذي يُهَيِّئُهُ آلبَشَرُ السّاهونَ.

إسْمُهُ «الصّوفيُّ»، هكذا عَرَفْناهُ، وَنَسِينا آسْمَهُ آلحَقيقيَّ. لا تَعْتَريهِ حُمّى «آلعلاماتِ آلكبيرةِ» إلّا في الرَّبيعِ. لِثَلاثَةِ أشْهُرٍ في السَّنَةِ يَقْرَأُ السِّجِلَّ آلمَفْتوحَ وُسْعَ آلأُفُقِ. يَقْرَأُ آلحَيَواناتِ، وَخُطى آلبَشَرِ، وَآلغُيومَ، وَمواعيدَ النَّجْمَةِ آلباكِيَةِ قُرْبَ نَجْمَةِ الصَّباحِ. «واكَبِدي». يَهْمِسُ لِنَفْسِهِ بِصَوْتٍ عالٍ. «واكَبِدي. خِرافُنا تَتَكَلَّمُ في آللَّيْلِ بِكلامِ آلإنْسانِ. تَظْهَرُ النَّجْمَةُ آلباكِيَةُ وَتَخْتَفي مِنْ غَيْرِ أنْ يَراها أحَدٌ. واكَبِدي. واكَبِدي. يَرْفَعُ الناسُ أكتافَهم اليُمنى وهُم يَمْشونَ. واكَبِدي. تَتَعَمَّدُ الدَّجاجاتُ أنْ تَضَعَ زَرْقَها على سجّادَةِ الصَّلاةِ. واكَبِدي. الصِّغارُ يَشْتُمونَ آللَّهَ، وَآلكِبارُ يُصَلّونَ مِنْ غَيْرِ وُضوءٍ. واكَبِدي. الإمامُ يُخْطِىء

فـي قِـراءَةِ ٱلآيـاتِ. واكَـبِـدي. الـغُـيـومُ تَـتَـشَـكَّـلُ عـلـى هَـيْـئَـةِ كَلْبِ...». هذهِ علاماتُهُ ٱلكَبيرَةُ؛ علاماتُ ٱلـخَلْخَلَةِ والنَّفيرِ ٱلَّذي سَيَعْلو مِنْ جِهَةِ ٱلغَرْبِ فَتَتَرَاكَضُ ٱلقُبورُ، وَٱلأَوْدِيَةُ، وَٱلبُيوتُ، والنَّباتاتُ، صَوْبَ ميزانٍ يَرْفَعُهُ مَلاكٌ واحِدٌ يَزِنُ بِهِ السَّمٰواتِ وَٱلأَرْضَ كَما يَزِنُ ٱلبَقّالُ ٱلبَصَلَ. لِثَلاثَةِ أَشْهُرٍ، فَقَطْ، يَفْتَحُ السِّجِلَّ وَيُحْصي كَمْ يُراكِمُ ٱلكائِنُ في مَساحَةِ مَوْتِهِ مِنْ عَذاباتٍ. وإذْ يَمْضي الرَّبيعُ يَرْجِعُ الصُّوفيُّ إلى ٱلأَرْضِ، غَيْرَ ذاكِرٍ مِنْ سِجِلِّهِ إلّا نُثاراتٍ مُبْهَمَةٍ.

كانَتْ نَوْباتُ ٱلحُمّى الرَّبيعيَّةُ تُحيلُهُ كائِناً مُرّاً في عَلاقاتِهِ، مُمْتَلِئاً بِٱلمَرارَةِ، كأنَّما هُوَ النَّذيرُ ٱلمُخْتارُ لِشَعْبٍ لَمْ يَعُدْ يَلْتَفِتُ إلى ٱلمُنْذِرينَ. يَقْضي النَّهارَ بَيْنَ تُجّارِ السّوقِ، في ٱلبَلْدَةِ، وَبَيْنَ ٱلبَقّالينَ، ناصِحاً، مُتَوَعِّداً؛ بَلْ يَذْهَبُ بِهِ ٱلأَمْرُ إلى ٱلوقوفِ أمامَ بابِ ٱلمَسْجِدِ، وإذ يُطِلُّ ٱلإمامُ يُمْسِكُ بِهِ مِنْ ذَيْلِ كُمِّهِ ٱلواسِعِ، آمِراً أَنْ يُخَصِّصَ خُطْبَتَهُ عَنْ نِهايَةِ ٱلأَرْضِ ٱلوَشيكَةِ، فَيَعِدُهُ ٱلإمامُ خَيْراً، وَيَنْسى. وفي ٱلمَساءِ يَرْجِعُ مَنْهوكاً، يائِساً مِنْ صَلاحِ ٱلأَنْذالِ، فَيُقْعي لِيُجْهِشَ بِبُكاءٍ حامِضٍ، مُتَمْتِماً: «لا فائِدَةَ يا رَبّ، لا فائِدَةَ».

كُلُّهُم يَعْرِفونَ نَوْباتِ الصُّوفيِّ الرَّبيعيَّةَ، يُداورونَهُ كثيراً، وَيُخَفِّفونَ عَنْهُ بِكَلامٍ وَدودٍ: «إصْبِرْ أيُّها الصُّوفيُّ، النّاسُ يُعيدونَ حِساباتِهِمُ الآنَ، وَيَتَفَكَّرونَ فيما تَقولُ»، فَيُسَرّي ذلِكَ عَنْهُ قَليلاً. لكنَّهُ، في الفُصولِ الثّلاثَةِ الأُخْرى، داهِيَةٌ حقّاً، يُشْرِكُ الكَثيرينَ في مَشاريعِهِ الخاصَّةِ بِزِراعَةِ البَطّيخِ، أو زِراعَةِ العَدَسِ، وإذْ يُسَلِّمونَ إلَيْهِ أموالَهُم يَخْتَفي، عابِراً مِئاتِ القُرى، وَحَفْنَةً مِنَ البَلْداتِ، ثُمَّ يَرْجِعُ صِفرَ اليَدَيْنِ، فَيُضطرُّ إخْوَتُهُ إلى تَمْوينِ عائِلَتِهِ بِمَؤونَةٍ مِنْ أكْياسِ القَمْحِ. وحينَ يُسائِلونَهُ أيْنَ كانَ، يَرُدُّ أنَّهُ مَضى لِمُحاجَجَةِ مُتَصَوِّفي القُرى في شُؤونِ الدّينِ. فَيَصْمُتُ السّائِلونَ أمامَ خِفَّتِهِ، وَطَرافَةِ مَنْطِقِهِ، على مَضَضٍ.

لَمْ يَكُنْ مازِحاً ذلِكَ الحارِسُ الرَّبيعيُّ على سِجِلِّ القِيامَةِ، الَّذي تَرَكَ أمْرَ إعالَةِ أطْفالِهِ لِلآخَرينَ، وأمْضى سَنَواتِهِ بَيْنَ الحُمّى وَبَيْنَ التَّجْوالِ. وَلَمْ يَكُنْ تَجْوالُهُ لِمُناظَرَةِ المُتَصَوِّفينَ كَما يَدَّعي، بَلْ لِلتَّعَرُّفِ عَلَيْهِم فَحَسْبُ. لَمْ يَبْقَ مَلّا، أوْ صُوفيٌّ، أو فَقيهٌ، أو عالِمٌ مِنَ العُلَماءِ الَّذينَ قَرَأوا كِتابَيْنِ، إلّا عَرَفَهُم. تِلْكَ هِوايَتُهُ. وَلَمْ يَكُنْ يُطيلُ المُكوثَ عِنْدَ أحَدٍ. يَسْتَوْدِعُ مُضيفيهِ، في أبْعَدِ قَرْيَةٍ، للذَّهابِ إلى المَسْجِدِ، ولا

يَعودُ. يَقولُ: «التَّعَبُ نِعْمَةُ ٱلْمُؤْمِنِ»، وَيَلْتَفِعُ بالظَّلامِ، وَبِهَذَيانِ الظَّلامِ.

لَقَدْ عَرَفَ ٱلْجَميعَ. عَرَفَ ٱلأبْعَدينَ وٱلأقْربينَ. عَرَفَ مَسالِكَ ٱلقُرى ٱلخَفِيَّةَ وَٱلظّاهِرَةَ، وأشْكالَ مَساجِدِها الطّينيَّةِ واحِداً واحِداً، في مِساحَةٍ تَضُمُّ مَلْيونَ كائِنٍ، يَتَفَقَّدُهُم راجِلاً. وحينَ ٱهْتَدى إلى ٱلأبْجَدِيَّةِ ٱلعَريقَةِ لِأعماقِهِ الشّاسِعَةِ، وَجَدوهُ جالِساً في بِئْرِ مَنْزِلِهِ، ذاتَ فَجْرٍ، على عُمْقِ عِشرينَ مِتْراً، لا خَدْشَ في جَسَدِهِ، ولا أثَرَ لِسُقوطٍ؛ جالِساً كَجُلوسِهِ في مَساءاتِ ٱلحُمّى، حينَ يَرْجِعُ مُمْتَلِئاً بٱلمَرارَةِ وَيَبْكي... وكانَ مَيْتاً.

حَرَسُ الشِّمالِ هُم حَرَسُ ميرو وَطَلائِعُهُ ٱلَّتي تَسْتَكْشِفُ ٱلوَقْتَ. نَعْرِفُ ذلِكَ: جَدَّة حسينو، وبليرو، وسيڤي، وعباسي قزو، وداود كوت، وعَمّي الصّوفيّ، وشكرو، وحبسونو، وعابو، وعقدكي كشومشو، واصطيفو، وإوَزّات بَيْتِ ٱلحاجِّ كوفر ٱلَّتي تَنْقَضُّ على ٱلعابِرينَ كَكِلابٍ مَسْعورَةٍ، وَكَلْبَة هيلانَةَ ٱليُونانيَّةِ، الكَلْبَة ٱلَّتي تَظَلُّ تَلْتَفُّ حَوْلَ نَفْسِها كأنَّما فَقَدَتِ التَّوازُنَ، إلى آخِرِ ما هُنالِكَ مِنْ كائِناتٍ تُسَمّى ولا تُسَمّى؛ كُلُّهُم طلائِعُ

ميرو، الرّاعي آلّذي يَنْتَظِرُ أنْ يَسْتَتِبَّ آلهُدوءُ في آلأرْضِ خَمْسينَ سَنَةً لِيَفْتَحَها بِقُرونِ أكْباشِهِ. لكِنْ، مَنْ يَجْرُؤُ على آلبَوْحِ بآلأمْرِ؟ وَمَنْ يَجْرُؤُ على آضطِهادِ هذِهِ آلكائِنات؟

غَيْرَ أنَّ أمامَنا آلكَثيرَ مِمّا نَضطَهِدُهُ، عَدا هؤلاءِ. لَدَيْنا مَنْ لا يَمُتّونَ إلى ميرو آلخُرافيِّ بِصِلَةٍ. لَدَيْنا حُقولُ عردي آلمارديني لِنَعيثَ فيها نَهْباً، راكِضينَ وَراءَ عَصافيرِ النِّمْنِمَةِ الصَّغيرةِ، مُقْتَلِعينَ في طَريقِنا شُجَيْراتِ آلباذِنْجانِ، وَعَرائِشَ آلكوسا. لَدَينا مِيكروفون قاسمو لِنَقْطَعَ شَريطَه، وَلَدَيْنا دُكّانُ أديبو لِنَبْتَزَّهُ إلى آلأقْصى: «نُريدُ عُلْبَةَ مُرْجانٍ يا أديبو»، وَيَتَمَنَّعُ أديبو قليلاً فَنَتَهَيّأُ للتَّبَوُّلِ على آلواجِهَةِ حتّى يَرْضَخَ. «نُريدُ قُضامَةً سُكَّرِيَّةً أديبو»، وَيَتَمَنَّعُ أديبو، فَنَتَوَعَّدُ بِكَشْفِ كُلِّ شَيْءٍ... وَيَرْضَخُ أديبو.

وما هُوَ آلـ«كُلُّ شَيْءٍ» آلّذي نَتَوَعَّدُهُ بِهِ؟ إنَّه أمْرٌ يَسْتَحِقُّ الرُّضوخَ فِعْلاً، وإلّا قَتَلَهُ والِدُهُ. فَعَلى مَبْعَدَةِ مائَتَيْ مِتْرٍ مِنَ الدُّكّانِ تَسْكُنُ خانمه مَعَ آبْنَيْها، وَهِيَ آمْرَأَةٌ مُطَلَّقَةٌ في آلخَمْسينَ، كُرَوِيَّةُ الشَّكْلِ. وَكُنّا نرى آبْنَها آلأصْغَرَ - وَهُوَ مِنْ جيلِنا - يَتَرَدَّدُ على الدُّكّانِ، خارِجاً مِنْهُ، كُلَّ مَرَّةٍ، حامِلاً سُكَّراً وَتَبْغاً، وَزُجاجاتِ زَيْتٍ. قُلْنا: «أديبو... ما آلّذي يَجْري؟». فَرَدَّ:

«لا شيءَ». قُلْنا: «أديبو... لَيْسَ واضِحاً أنَّ آبْنَ خانمه يَدْفَعُ لَكَ»، فَرَدَّ: «بَلى. أنْتُم واهِمونَ». إذْ ذاكَ قَرَّرْنا مُراقَبَةَ آلوَضْعِ الطّارِىءِ، حتّى جاءَ يَوْمٌ لَمَحْنا فيهِ آبْنَ خانمه يُوَشْوِشُ أديبو، وَيُطيلُ في آلوَشْوَشَةِ، فَعَمَدْنا إلى التَّظاهُرِ بآلانْصِرافِ مِنْ أمامِ الدُّكّانِ، وَمِنْ ثَمَّ آجْتَمَعْنا وراءَ سورِ آلحاجِّ شيخو آلمُتَهَدِّمِ لِنُراقِبَ مِنْ هُناكَ. كانَ آلوَقْتُ مَساءً، بَعْدَ آلغُروبِ بِقَليلٍ. أغْلَقَ أديبو بابَ الدُّكّانِ آلخَشَبِيَّ، وَدَعَمَهُ بِقَضيبٍ حَديديٍّ طويلٍ لَهُ فَتْحَةٌ لِلْقفْلِ في آخِرِهِ، وآتَّجَهَ صَوْبَ بَيْتِ خانمه، مُتَلَفِّتاً في حَذَرٍ. وَحينَ دَلَفَ إلى الزُّقاقِ آلَّذي يُفْضي إلى آلبَيْتِ مُباشَرَةً، رَكَضْنا كَديَكَةٍ لَمَحَتْ ديكاً غَريباً قُرْبَ دَجاجاتِها. وإذْ وَصَلْنا الزُّقاقَ كانَ آلبابُ يُوصَدُ تَوّاً، وَيَدورُ في قفْلِهِ الصَّدىءِ ، مِنَ الدّاخِلِ، مِفْتاحٌ ذو أنينٍ.

حَنَيْنا ظُهورَنا وَهَرْوَلْنا، في خِفَّةِ آلقِطِّ، إلى النّافِذَةِ آلوَطيئَةِ. تَدافَعَتْ رُؤوسُنا وَتَزاحَمَتْ لِتَرى. كانَتْ سِتارَةُ النّافِذَةِ قَصيرَةً. سِتارَةُ النّافِذَةِ آلوَحيدةِ لِلْبَيْتِ الطّينيِّ ذي آلغُرْفَةِ آلوَحيدَةِ. ثَلاثَةُ فُرُشٍ ضَيِّقَةٍ في الدّاخِلِ. هذا ما نَراهُ على ضَوْءِ سِراجِ آلكازِ. وَأوانٍ لِلطَّبْخِ على آلأرْضِ، وكَذلِكَ كُرْسِيّانِ صَغيرانِ مِنَ

آلقَشّ. يَعْلو آلحائِطَ آلمُقابِلَ للنّافِذَةِ رأسُ غَزالٍ مِنَ آلجِبْسِ، وَتَحْتَهُ، تَماماً، كانَ أديبو جالِساً في حُضْنِ خانمه كَطِفْلٍ. كانَتْ تُدَلِّلُهُ. تَضَعُ يَدَها في شَعْرِهِ أوَّلَ آلأمْرِ: «يا ديكي»، ثُمَّ تَرْفَعُ يَدَهُ مِنْ حُضْنِهِ وَتَضَعُها على صَدْرِها «أيُعْجِبُكَ آلبَطّيخُ؟»، وأديبو يَزْدادُ آحْمِراراً في كُلِّ حَرَكَةٍ. وحينَ مَدَّتْ يَدَها إلى أزْرارِ بِنْطالِهِ ضَمَّ فَخْذَيْهِ في حَرَكَةٍ خَفِرَةٍ حَيِيَّةٍ، فَهَمَسَتْ: «لا تَخَفْ يا ديكي، لَنْ أفْتَحَكَ»، وأرْدَفَتْ «فأرُكَ كَبيرٌ أديبو. أوه. دَعْني أراهُ يا ديكي»، وأخْرَجَتْ عُضْوَهُ آلمُتَدَلّي، وَبَدَأَتْ تُدَلِّكُهُ في تَأَنٍّ: «أوه. أووه. سَتَذوقُ آلحلاوَةَ يا ديكي. إجْلِسْ إلى جانِبي». وَنَهَضَ أديبو لِيَجْلِسَ قُرْبَهَا. فَتَحَتْ أزْرارَ بِنْطالِهِ كُلَّها، وَسَحَبَتِ آلبِنْطالَ حتّى عَرَّتْ فَخْذَيْهِ، وَكَذلِكَ فَعَلَتْ بِسِرْوالِهِ الدّاخِليّ.

كانَتْ أفْواهُنا مُرْتَخِيَةً، وَشِفاهُنا السُّفْلِيَّةُ تَتَدَلّى حتّى آلأرْضِ. نُغَمْغِمُ لأنْفُسِنا بِكلامٍ لا نَفْهَمُهُ، جامِدينَ، لا يُزاحِمُ رَأْسٌ رَأْسَ آلآخَرِ، وَآلكُلُّ مُكْتَفٍ أنْ يَرى بإحْدى عَيْنَيْهِ، أو بِطَرَفٍ مِنْها. «أوه يا ديكي» قالَتْ خانمه، وآنْزَلَقَتْ بِفَمِها عَنْ بَطْنِهِ حتى لامَسَتْ فأرَ أديبو. آبْتَلَعَتْهُ تَماماً. وحينَ تَرَكَتْهُ، بَعْدَ دقائِقَ، كانَ فَأْرُ أديبو مُنْتَصِباً أحْمَرَ مِثْلَ صوصٍ تَكَسَّرَتْ

بَيْضَتُهُ قَبْلَ آلأوانِ. «تَمَدَّدْ يا ديكي» قالَتْ لَهُ، فَتَمَدَّدَ. شَمَّرَتْ خانمه عن ثَوْبِها، وَوَضَعَتْ طَرَفَهُ في فَمِها، فَبَدا نِصْفُها السُّفْليُّ عارياً، مُسْتَديراً، كُتْلَةً مِنَ آلاسْتِدارَةِ آلبَيْضاءِ آلَّتي لَمْ تُلامِسْها شَمْسٌ، وَجَلَسَتْ فَوْقَ فأرِهِ.

«لا تَتَحَرَّكْ يا ديكي، سَأَدُلُّ فَأْرَكَ بِيَدي» وتَدُلُّ الفَأْرَ بِيَدِها، صاعِدَةً هابِطَةً في بُطْءٍ. «أوه ديكي... آه دجاجتي»... وآنْحَنى أديبو إلى أمامٍ بِنِصْفِهِ الأعْلى، دافِعاً رأْسَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْها في تَشَنُّجٍ، ثُمّ آرْتَخى.

نَهَضَتْ خانمه عَنْهُ قائلةً: «لا تَتَحَرَّكْ»، فَبَدا لنا مِنَ النّافِذَةِ كَمَنْ نَهَضَ مِن نومِهِ تَوّاً. وأرْدَفَتْ: «يَحْصُلُ الأمْرُ سَريعاً أوَّلَ مرَّةٍ يا ديكي»، ثُمَّ جاءَتْهُ بخِرْقَةٍ ومَسَحَتْ فَأْرَه. «أُريدُ بَعْضاً من غُلَبِ كِنْتْ يا ديكي»، وكَأنَّما أفاقَ أديبو من تَحْتِ آخرِ غِشاءٍ لنَشْوَتِه الأولى مع آمْرَأَةٍ: «آلكِنْتْ غالٍ، وآلغُلَبُ مَعْدودةٌ. سَأُفْتَضَحُ يا خانمه إذا فَعَلْتُ ذلك». «أووه يا ديكي، لَمْ أعُدْ أسْتَمْتِعُ بتَبْغِ ينيجه وَالبافره. أرْسِلْ إليَّ ما هو أفْخَرُ، على الأَقَلِّ». ويُتَمْتِمُ أديبو: «سَأُرْسِلُ ما هُوَ أفْضَلُ»، ويَتَّفِقانِ عِنْدَ هذا الحَدِّ.

حاوَلَ أديبو أنْ يَنْهَضَ، ليَتَدَبَّرَ أمرَ نَفْسِهِ السّارِحَةِ في حَقْلِ مُشاهداتِه الأولى، فأشارَتْ عَلَيْهِ خانمه: «إخْلَعْ ثيابَكَ كُلَّها». نَظَرَ أديبو في آسْتِغرابٍ، فَتَدارَكَتْه: «إخْلَعْها. سأُريكَ الأجْمَلَ يا ديكي»، فخَلَعَ ثيابَهُ كُلَّها، وآتَّكَأ على الوِسادةِ مُتَمَدِّداً.

أووه خانمه، نَحْنُ نَرى، هذا أوّلُ نِصْفٍ لآمْرَأةٍ، في أعْمارِنا المُتَدَلِّيَةِ مِنْ زَهْرِ اليَقْطينِ. هذا أَوّلُ نِصْفِ عارٍ يُشْهَرُ على دِرْعِ أعْمِارنا. خانمه. مُسْتَديرَةٌ في البياضِ المُسْتَدَيرِ. نِصْفٌ أجملُ ما رأينا، لأنّنا لم نَرَ الأجملَ. نِصْفٌ أوّلَ رُؤْيةٍ. نِصْفٌ لآسْتِعاراتِنا القاصِرَةِ. أووه خانمه... وحَمَلَتْ خانمه إلى أديبو كوبَ شايٍ: «تَمَتَّعْ يا ديكي، أنْتَ تَسْتَأْهِلُ». وآسْتَوَتْ تَتَعَرّى بِدَوْرِها.

جَلَسا عارِيَيْنِ، يُلْقي أديبو بنَظَراتٍ فُضوليّةٍ كَثيرةٍ على جَسَدِها، مُرْتَشِفاً الشّايَ، وهي تُلْقي بِيَدِها كَثيراً على جَسَدِه، تَتَحَسَّسُ الأُفُقَ الغَضَّ لعُمْرِهِ الغَضِّ أو تَسْتَكْشِفُ الأُبَّهيِّ - وهي العارفَةُ بأُبَّهَةِ الرِّجالِ - في البَلاغَةِ الأولى لِأعْضاءِ صَبِيٍّ لمْ يَبْلُغِ الرابِعَةَ عشرةَ بَعْدُ. واثقةٌ وغَيْرَ واثقةٍ. تَمْتَحِنُ نَفْسَها لا أديبو. تَمْتَحِنُ ما مَضى مِن جَسَدِها، وما يَأْتي من جَسَدِه.

ونَحْنُ... ماذا؟ سِتارَةٌ قَصيرةٌ، وقاماتٌ أقْصَرُ. رُؤوسٌ مِثْلُ العَجّورِ في حَقْلٍ مِن الذُّهولِ آلـمَرْمَريِّ: «إذْبَحْها أديبو. آذْبَحْها». نَسينا أنَّنا قَدِمْنا لِنَكْتَشِفَ أديبو. نسينا لُعْبَتَنا: «أُدْخُلْها من الخَلْفِ أديبو. آدْخُلْها بَجَسَدِكَ، وَبِدُكّانِكَ، وبعُلَبِ تَبْغِكَ، وبِبَنْطالِكَ، وبِحِذائِكَ... أُدْخُلْها مِن كُلِّ ثَقْبٍ أديبو».

عارِيانِ في المَهَبِّ الحَريريِّ لقُلوبِنا المُرْتَعِشَةِ. عارِيانِ أمامَ خريطَةِ آللُّهاثِ، يَتْبَعانِ بأصابِعِهِما آلأنْهارَ، وآلـهَضَباتِ، وآلجِبالَ، وبأعيُنِهِما آلقُرى، وآلمُدُنَ، والسُّدودَ. عارِيانِ كَحَقْلِ عَدَسٍ، والمُداعَباتُ تَتَكاثَفُ في فَضائِهِما الرَّخْصِ ثُمَّ تُمْطِرُ، فتَقولُ خانمَه: «كُنْ مِظَلّتي يا ديكي»، وتَسْتَلْقي، فيَجْثو أديبو بَيْنَ عَمودَيْنِ من غُيومٍ وحَبَقٍ. «إدْفَعْ ساقَيْكَ إلى وَراءٍ، وآحْتَضِنْ كَتِفَيّ» تَهْمِسُ خانمه، وتَفْتَحُ العَمودَيْنِ على وِسْعِهِما، ثُمّ تُطْبِقُهُما على خاصِرَتِه. «إدْفَعْ... إدْفَعْ»، وتَحْتَويه كُلَّهُ. تَحْتَوي آلـمِظَلَّةَ، والرَّعَشاتِ، والدُّكّانَ، وَرْأسَ آلغَزالِ آلـمُعَلَّقَ إلى الحائِطِ فَوْقَهُما، وسِراجَ آلكازِ والنّافِذَةَ وذُهولَنا.

في اليَوْمِ التّالي نَرْمُقُ أديبو بحَسَدٍ وخُبْثٍ، ونَتَقَدَّمُ من الدُّكّانِ واثِقينَ أنّنا سَنَحْصُلُ على تَبْغٍ لأشْهُرٍ: «هاتِ عُلْبَةَ بافره

أديبو»، ويَتَمَنَّعُ أديبو: «أَأَنا مُسْتَودَعُ تَبْغٍ؟ حلّوا عنّي»، وعِنْدَها نَتَصَنَّعُ لَهْجَةَ دَلالٍ: «ولوْ يا ديكي؟ بافره»، فيُصْعَقُ أديبو من كَلِمةِ «ديكي» لِكنَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ في حَرَكَةٍ آليّةٍ إلى الرَّفِّ، ويُعْطينا ما نُريدُ. وبالطَّبْعِ لا تُقْتَصرُ مَطالِبُنا على التَّبْغِ: «هاتِ ثَمَنَ تَذاكِرَ للسّينَما. هاتِ قُضامةً سُكَّرِيَّةً. هاتِ علبَةَ سَرْدينٍ. هاتِ. هاتِ. هاتِ»، ويَكادُ أبو أديبو يُعْلِنُ إفلاسَهُ بينَ مَطالِبِنا ومَطالِبِ خانمه، فيَعودُ إلى إدارَةِ دُكّانِهِ بنَفْسِهِ، مُدْرِكاً أنَّهُ سَها لوقْتٍ طَوِيلٍ عَنْ تِجارتِهِ الصَّغيرةِ، بفِعْلِ ٱنشغالِهِ الدّائِمِ بزَوْجَتَيْهِ، ٱلقَديمَةِ أُمِّ أديبو، وٱلجَديدَةِ الَّتي لَمْ يَكْتَفِ مِنْها بَعْدُ. وَكانَتا تَتَناحَرانِ لَيْلَ نَهارَ، يُسانِدُ ٱلقديمَةَ أولادُها، ويُسانِدُ الزَّوجُ زَوْجَتَهُ ٱلجَديدَةَ. حَرْبٌ في ساحَةِ ٱلبيتِ تَئِزُّ فيها ٱلأحْذِيَةُ ٱلمَقْذوفَةُ، وَنَهبٌ في الدُّكّانِ. بَلْ نَهْبٌ في الدَّكاكينِ كُلِّها. ٱلأولادُ يَسْرِقونَ آباءَهُم حينَ يَأْتَمِنُهُم هَؤلاءِ على ٱلبَيْعِ، في ساعاتِ ذَهابِهِم إلى ٱلمَسْجِدِ، فَكَمْ بٱلحَرِيِّ إذا سافَروا؟... وعلى مَضَضٍ يُسافرُ مرادو إلى الحَجِّ. إنَّه يَعْرِفُ أبْناءَهُ جَيِّداً؛ يَعْرِفُهُم مِن «غَلَّةِ» الفرنِ ٱلّتي كانَتْ تَتَناقَصُ يَوماً بَعْدَ يَوْمٍ، ولَمْ تَنْفَعِ ٱحتياطاتُهُ، وتَحَرِّياتُهُ، لِرَدْعِهِم، حتّى ٱضْطُرَّ ـ

كَحَلٍّ أخيرٍ ـ أنْ يَتَّفِقَ مَعَ أولادِه عَلى حِصَّةٍ يَوْمِيَّةٍ ثابتةٍ مِنْ دَخْلِ آلفرنِ يُؤَدّونَها لَهُ، ولهُمْ بعدَ ذلِكَ أن يَرْبَحوا ما يَقْدِرونَ عَلى رِبْحِهِ. وفِعْلاً نَشِطَ آلأولادُ، وَصاروا يَخْبِزون كيسَيْنِ مِنَ الطَّحينِ بَدَلَ كيسٍ واحِدٍ، وتَفَنَّنوا في صُنْعِ نَوْعٍ من الگاتوه لا يُشْبِهُ الگاتوه، وآسْتَأْجَروا فِتياناً لبَيْعِهِ في آلحاراتِ، يَحْمِلونَهُ عَلى رُؤوسِهِم في صاجاتٍ مُرَبَّعةٍ، تَحُفُّ بها هالاتٌ نورانيَّةٌ من الذُّبابِ، والزَّنابيرِ الشَّرِهَةِ.

لَقَدْ حَلَّ مرادو مُشْكِلَةَ الفُرْنِ، أمّا الدُّكّانُ... آه يَقولُ مرادو. آه. وسَلَّمَهُمُ الدُّكّانَ: «لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ...»، مُتَوَكِّلاً عَلى اللَّهِ، ثُمَّ مَضى.

وَوَفَّقَ أولادُ مرادو بَيْنَ شُغْلِهِم في آلفُرنِ وشُغلِهِم في الدُّكّانِ. كانَ يَمْضي أحَدُهُم باكراً، وبالتَّحْديدِ مُحَمَّد، آلأصغرُ مِن بشيرو وحسينو آلفَرّانَيْنِ، وَيأْتي بالطَّحينِ على عَرَبةٍ، وَبِصناديقِ آلبَنَدورةِ، وآلكوسا، والسُّكَّرِ، على عَرَبَةٍ ثانيَةٍ. عَرَبَتا جَرٍّ، كلُّ عَرَبَةٍ يَقودُها رَجُلٌ بَدَلَ آلحِمارِ. وقَدِ آتَّفَقَ آلإخْوَةُ على أنْ يُديرَ مُحَمَّدٌ الدُّكّانَ، وكانَ بشيرو يَرْشونا لمُراقَبَتهِ: «أَنْتَ» يَهْتِفُ. «أنْتَ، قِفْ على مَقْرُبَةٍ مِنْهُ، وأبْلِغْني أيْنَ يُخَبِّىءُ

ما يَسْرِقُ». ويَرْجِعُ ٱلـمُراقِبُ سَريعاً: «ثَمَّتَ ثَقْبٌ في حِزامِهِ ٱلعَريضِ. يا أللَّهُ. ثَقْبٌ يَحْشُرُ فيهِ النُّقودَ ٱلوَرَقيَّةَ بشيرو». وفي كُلِّ وِشايةٍ يُغادِرُ بَشيرو ٱلفُرنَ، ويُهَشِّمُ صُنْدوقاً خَشَبيّاً على رَأْسِ مُحَمَّد، ثُمّ يَعودُ كَأنَّ شَيْئاً لـمْ يَكُنْ. وبعدَ كُلِّ صُنْدوقٍ يُغَيِّرُ مُحَمَّد مَخْبَأَ النُّقودِ. ومُحَمَّد ضَخْمُ ٱلـجُثَّةِ. كانَ أمْهَرَ مَنْ يَسْلَخَ ٱلقِطَطَ بسِكّينِ ٱلقَصّابِ، وأمْهَرَ مُبَدِّدٍ لِنُقودِهِ ٱلـمَسْروقةِ على آستئجارِ الدَّرّاجاتِ. لكِنَّهُ، في تَفَتُّحاتِ مُراهَقَتِه الآن، يدَّخِرُ النقودَ لأشياءَ أُخْرى، ودليلُه في ٱلإنفاقِ هو أديبو نَفْسُه. آهِ خانمه. باتَتْ تَضُمُّ ٱثْنَيْنِ إلى صَدْرِها ٱلعَريضِ؛ ٱثْنَيْنِ أكْثَرَ سَخاءً، في لَحَظاتِ حَياتِهِما، مِن ٱلكِبارِ ٱلَّذينَ يَدْفَعونَ لها بمِقْدارِ ما يُساويهِ جَسَدُها مِن ثَمَنٍ. أمّا ٱبْناها، فَلَدَيْهِما غَريزَةُ مُغادَرَةِ ٱلبَيْتِ في ٱسْتِمْرارٍ، حينَ يَطْرُقُ زَبونٌ ما ٱلبابَ.

يَتَعَرّى أديبو ومُحَمَّدٌ معاً، وتَتَعَرّى خانمه. يَبْدَأُ أَحَدُهُما، ويَنْتَظِرُ ٱلآخَرُ على كُرْسِيٍّ ٱلقَشِّ. هذا ما يَقولانِه لنا، آنَ لَمْ يَعُدِ ٱلأمْرُ سِرّاً. ويَتَفَكَّهُ مُحَمَّد ضاحِكاً: «تَبْدو مُؤَخَّرَةُ أديبو ككُرَةِ قَدَمٍ في مَرْمى خانمه. تَرْتَجُّ هكَذا: طط، طط». ويَحْتَدُّ أديبو: «لَوْ تَرى نَفْسَكَ يا ٱبْنَ ٱلبَغْلِ، تَتَبَوَّلُ على فَخْذِكَ قَبْلَ أنْ

تَقْتَرِبَ مِنْها، ورائِحَتُكَ كَرائِحَةِ الزَّريبَةِ»، ويَتَعارَكانِ في خُشونَةٍ. ما هَمَّ. خانمه تَسْتَأْهِلُ خَمْسينَ صُندوقاً مُهَشَّماً على رَأْسِ مُحَمَّد، وثَلاثَةَ دَكاكينَ مَلأى بالنُّقولاتِ من مِثْلِ دُكّانِ أديبو. لكِنَّ ٱلأُمورَ تَبَدَّلَتْ بَعْدَ مُعاوَدَةِ أبو أديبو دُكّانَه، وبَعْدَ عَوْدَةِ مرادو مِنَ ٱلحَجِّ. ومُذْ ذاك يحومُ ٱلمُراهِقانِ حَوْلَ بَيْتِ خانمه فَلا تَسْتَقْبِلُهُما: «يا لَلْعاهِرَةِ. دَفَعْنا لَكِ وَزْنَ مُؤَخَّرَتِك الضَّخْمَةِ ليراتٍ وَرَقيَّةً. يا لَلْعاهرةِ. مَرّةً واحِدَةً بِاللَّهِ عَلَيكِ»، وَتُوصِدُ خانمه ٱلبابَ: «راجِعاني إذا خَشْخَشَتْ جُيوبُكُما يا عَنْزَتَيَّ»، فَيقْذِفانِ بابَها بآلحِجارَةِ: «سَنُحْرِقُ بَيْتَك يا خانمه. سَنَجْعَلُك تُغادِرينَ ٱلحَيَّ مِن غَيْرِ فَرْجٍ»، ثُمّ يُخْرِجانِ عُضْوَيْهِما وَيَتَبوَّلانِ في آتِّجاهِ بابِها.

كانَتْ عَوْدَةُ مرادو من ٱلحَجّ حَدَثاً. الرَّجُلُ الصَّلْبُ ٱلعَصَبِيُّ ـ بائِعُ ٱلبَنَدورةِ ٱلمُعَطِّنَةِ، وآلبيضِ ٱلمَكْسورِ لِلْقَرَوِيّاتِ ـ عادَ رَصيناً جِدّاً، يُطَأْطِئُ في وَرَعٍ لِلْمُهَنِّئينَ: «حَجّاً مَبْروراً»، ويَتَبادَلُ مَعَهُمُ ٱلقُبَلَ عَلى ٱلأكتافِ، وَهِيَ قُبَلُ التَّواضُعِ وآلاحترامِ ٱلجَمِّ. ثَلاثَةَ أيّامٍ يَدْخُلُ النّاسُ لِلتَّهْنِئَةِ، ويَخْرُجونَ بِآلهَدايا مِنْ خواتِمِ ٱلفِضَّةِ الرَّقيقَةِ، والسُّبَّحاتِ ٱلمُطَعَّمَةِ

بَشَذَراتِ الذَّهَبِ، كلٌّ بحَسَبِ مَقامِهِ. وتِلكَ عادَةُ ٱلعائِدينَ من ٱلحَجِّ، يَجْلِبونَ ٱلخَواتِمَ والسُّبَّحاتِ، وَقَواريرَ من ماءِ زَمْزَمَ لا يَذوقُها إلّا ٱلخاصَّةُ، وَسَجّاداتٍ، مَرايا مَرْسومٌ على أقْفِيَتِها ٱلكَعْبَةُ وٱلمَسْجِدُ ٱلحَرامُ؛ خَرْدَواتٍ، ومَلاليمَ رَشاديَّةً كانَتْ زَهيدَةَ الثَّمنِ آنَذاك. هَدايا... هَدايا. حتّى الصِّبْيَةُ، مِنْ أمْثالِنا، لَهُم حِصَّتُهم. وَلِأوّلِ مَرَّةٍ نَقْدِرُ على مُجابَهَةِ مرادو بِوَقارٍ مُتَصَنَّعٍ كَوَقارِه. نُقَبِّلُ يَدَهُ تَبَرُّكاً، فَيَنْحَني لِيَدُسَّ في أيْدينا شَيْئاً من مَعادِنِهِ. وَحينَ نَخْرُجُ نَتْفُلُ عَلى ٱلأرْضِ، وَنَجْمَعُ هَدايانا كُلَّها لِنَبيعَها لصائِغِ فِضّةٍ، مُشْتَرينَ بثَمَنِها رَغيفاً عَلَيهِ حَلاوَةٌ حَمَويَّةٌ، ومِنْ ثَمَّ نَقْتَسِمُهُ في طَريقنِا إلى مُسْتَنْقَعِ قاسمو للسِّباحَةِ.

بالطَّبْعِ، لَمْ يَمْضِ أُسبوعانِ إلّا وَعادَ مرادو إلى طَبيعَتِهِ الثّابتَةِ. يَطْرُدُنا مِنَ الفُرْنِ ومِن أَمامِ الدُّكّانِ، مُشْتَبِهاً بِنا أبَداً. صارِخاً هُنا، صارِخاً هُناكَ: «فَلْتَبْتَعِدِ ٱلقَرَوِيّاتُ عَنْ صَناديقِ ٱلبَنَدورَةِ»، وٱلقَرَوِيّاتُ يَتَجَمَّعْنَ أمامَ دُكّانِهِ كُلَّ ظَهيرةٍ، يَشْتَرينَ ٱلبَنَدورَةَ ٱلمَعْوسَةَ، وٱلبَطّيخَ ٱلأَصْفَرَ ٱلمَعْطوبَ، بأسعارٍ بَخْسَةٍ، ثُمّ يَمْضينَ إلى قُراهُنَّ مَشْياً على ٱلأقْدامِ، بَعْدَما جِئْنَ إلى

آلمَدينَةِ فَجْراً بِأوعِيَتِهِنَّ آلمَعْدِنِيَّةِ الصَّغيرةِ لبَيْعِ آللَّبَنِ، أو ما تَيَسَّرَ مِنَ الدَّجاجاتِ وآلبَيْضِ.

... وَمُحَمَّد يَحومُ حَوْلَ دُكّانِ والِدِه، وكَذلكَ يَفْعَلُ أديبو، من غَيْرِ أنْ تَسْنَحَ لَهُما فُرْصَةٌ قَطُّ. آه خانمه. العاهِرَةُ تفْتَحُ آلبابَ وتوصِدُ آلبابَ. رائحٌ وَغادٍ. وآلمُراهِقانِ يَنْفَجِرانِ: «بِآللّهِ دَعينا نَرى فَخْذَكِ فَقَطْ... وَلَوْ؟». لا فائِدَةَ. «سَتُغادِرينَ آلحَيَّ من غَيْرِ فَرْجٍ»، يَتَوعَّدانِ.

بَعْدَ أيّامٍ مِنْ ذلِكَ يَكْسِرانِ زُجاجَ النّافِذَةِ. وبَعْدَ أيّامٍ أُخْرى يُلْقِيانِ بِرُزْمَةِ مُفَرْقَعاتٍ هائِلَةٍ مِنَ النّافِذَةِ فيَحْتَرِقُ فِراشُ خانمه. وبعدَ شَهْرٍ يَتَحَيَّنانِ أنْ يَكونَ آلبَيْتُ خالياً فيَخْلَعانِ النّافذَةَ آلخَشَبِيَّةَ بحَبْلٍ يَجُرُّهُ حِمارٌ، ويُلْقِيانِ إلى الداخِلِ بُجُثَّةِ كَلْبٍ... وبِمَنْ تَسْتَنْجِدُ خانمه؟ أهْلُ الحُيِّ يَمْقُتونَها، ولَنْ يُحَرِّكوا ساكِناً. الشُّرْطَةُ؟ لا. وتُغادِرُ إلى حَيٍّ قدرو بك في شَرْقِيِّ آلمَدينةِ، حيثُ تُؤَسِّسُ وَكْراً يَذْهَبُ كالرِّيشِ في أوّلِ مُداهَمَةٍ لِلشُّرْطَةِ؛ وتُسْجَنُ، فَلا نَسْمَعُ عنْها بعدَ ذلِكَ.

آهِ خانمه. سَنَتانِ أو أكْثَرُ بقَليلٍ؛ سَنَتانِ ويَكْتَشِفُ المُراهِقونَ أعْمِدَةً كَثيرَةً مِنَ آللَّحْمِ. يَجْثونَ وَيَلْهَثونَ. فالطَّريقُ إلى السّوقِ

ٱلعُموميَّةِ بَرِّيَّةٌ مَكْشوفَةٌ مِنَ الطّينِ، وَفي آخِرِها تَسْتَوي حَفْنَةٌ مِنَ ٱلبُيوتِ ٱلقَديمَةِ، مُتَّصِلَةٌ بِوساطَةِ أبْهاءٍ مُعْتِمَةٍ رَطْبَةٍ، وَلَها سُقوفٌ خَشَبيَّةٌ تَصُرُّ صَريراً تَحْتَ خِصْيَةِ الرّيحِ. هُناكَ سَيَفْتَتِحونَ زَوْبَعَتَهُمُ الثّانِيَةَ يا خانمه، ولَنْ يُكَلِّفَهُمُ ٱلأمْرُ عُشْرَ ما كُنْتِ تَأْخُذينَهُ. قدْ لا تَكونُ النِّساءُ الشَّبَحِيّاتُ بَيْضاواتٍ مِثْلَكِ تَماماً، لكِنَّهُنَّ مُسْتَديراتٌ أيضاً، يَتَدَلّى لَحْمُهُنَّ عَلى ٱلأَرْضِ إذا جَلَسْنَ عَلى أرائِكِهِنَّ ٱلمُتَفَسِّخَةِ، وَإمّا نَهَضْنَ ٱرْتَجَّتْ أعْضاؤُهُنّ كَسَحْلَبٍ كَثيفٍ على عَرَبَةٍ تَجْتازُ مَطَبّاتٍ. هُناكَ، عَلى مَرْمى شُعاعٍ عُضْوِيٍّ، أو سَهْمٍ مِن سِهامِ ٱللَّهْفَةِ، تَنْهَضُ مَقْبَرَةُ النِّساءِ الشَّبَحيّاتِ بِسُقوفِها ٱلمُنْحَنِيَةِ، وَأنينِها ٱلعابِقِ بِٱلمَراهِمِ الطِّبِّيَّةِ، وَالصّابونِ الرَّخيصِ. مَمْلَكَةٌ مُهْمَلَةٌ، يَدْخُلُها ٱلعابِرونَ بِأسْرارِهِمْ ويَتْرُكونَها على ٱلأسِرَّةِ. يَدْخُلونَها مُمْسِكيْنَ بِصَوْلَجاناتِ ٱلفَراغِ، ويَخْرُجونَ مُعْتَمِرينَ تيجانَ ٱلفَراغِ. عابِرونَ يُشيحونَ بِوُجوهِهِمْ، بَعْضُهُم عَنْ بَعْضٍ؛ يُحَدِّقونَ في أحْذِيَتِهِم، وإذا رَفَعوها فإلى وَجْهِ شَبَحٍ يَخْتارونَه لِاعْتِرافِهِم ٱلجَسَدِيِّ. هُناكَ يا خانمه، هُناك، بَعْدَ سَنَتَيْنِ أو أكْثَرَ قَليلاً، سَيَتَواطَأُ ٱلقادمونَ الصِّغارُ عَلى أجْسادِهِم، وَعَلى آلِهَتِهِم، وَحُكوماتِهِم،

وَأهْلِهِم، وَقوانينِ أهْلِهِم. سَيَتَواطَؤونَ عَلى ٱلمَدْرَسَةِ، وَعَلى ٱلعَصْرِ الَّذي قَدَّرَ لَهُمْ أن يولَدوا في هَذا ٱلعَراءِ ٱلغَضْبانِ، وفي هذِهِ ٱلجِهَةِ مِنَ ٱلأرْضِ، وَتَحْتَ هذا ٱلخَتْمِ الصَّلْصاليِّ، الَّذي يَغْمِسُهُ ٱلجاهِلونَ في الرُّعْبِ، ويَمْهُرونَ بِهِ صَحائِفَ ٱلهَواءِ وَكَراريسَ دَمِنا، هُناكَ، على أسِرَّةٍ غَسَلَها جيلٌ سابِقٌ بعَرَقِ روحِهِ، سَيَجْثو جيلٌ جَديدٌ مُحْتَضِناً بِذِراعَيْهِ، وبِأعْمَقِ أعْماقِهِ، كُراتٍ حَيَّةً، تَنْبِضُ تَحْتَ قِشْرَةٍ سَميكَةٍ مِنْ أحْمَرِ الشِّفاهِ والكُحْلِ؛ كُراتٍ تَتَفَتَّحُ في كَسَلٍ، وتُرَبِّتُ على مُؤَخَّراتِ الرِّجالِ: «نَعيماً»، فيَنْهَضونَ إلى صُنْبورِ ٱلمِياهِ مُتَقَزِّزينَ مِنْ أعْضائِهِم. هُناكَ، كُلُّ شَيْءٍ يَبْدَأُ مِن هُناكَ: ٱلضَّرْبَةُ ٱلأولى لِلرّوحِ، والضَّرَباتُ ٱلألْفُ لِلْمَصائِرِ ٱلحامِضَةِ كَنَبيذٍ فاسِدٍ. مَرْحى جيلي... مَرْحى.

لا يَدومُ إفلاسُ مُحَمَّد طَويلاً، فَمرادو وٱبْنُهُ ٱلفَرّانُ بشيرو على خِصامٍ. يُحِسّ بشيرو، ٱبْنُ ٱلعِشرينَ عاماً، أنَّه باتَ على قَدْرٍ من الثِّقَةِ بِنَفْسِهِ وَبِفُرْنِه لا يَسْمَحُ لِوَساوِسِ والِدِه بزَعْزَعَتِها، ولا لِلَجاجَتِهِ أنْ تَطْغى. وباتَ يَكْرَهُ كَراهِيَةً غَريبَةً تَرَدُّدَ والِدِهِ عَلى بابِ ٱلفُرْنِ، حَيْثُ يُقَرْفِصُ عَلى مَدْخَلِ الدَّرَجِ

وقَدْ تَدَلَّتْ خِصْيَتاهُ الدّاكِنَتانِ مِنْ تَحْتِ دَشْداشَتِهِ، يُلْقي أوامِرَهُ، أوْ يَسْتَوْضِحُ آلأُمورَ مِنْ دونِ داعٍ. وَحينَ بَلَغَتِ آلخُصومَةُ مَداها، ضَرَبَهُ بشيرو بمِجْذافِ آلفُرْنِ فآنْهارَ الأبُ مُتَدَحْرِجاً عَلى الدَّرَجِ إلى القَبْوِ، ومِنَ اليومِ ذاكَ، تَسَلَّمَ مُحَمَّد مَكانَ حسينو، يُرَقِّقُ قِطَعَ آلعَجينِ؛ وآسْتَلَمَ حسينو مَكانَ بشيرو أمامَ آلفُوَّهَةِ آللَّهبيَّةِ، الَّتي تَتَفَجَّرُ داخِلَها، بَيْنَ الحينِ وَآلحينِ، فِئْرانٌ ضالَّةٌ. أمّا بشيرو فَقَدِ آلْتَحَقَ بفُرْنٍ آخَرَ، قُرْبَ آلجِسْرِ آلقَديمِ في شَرْقِ آلمَدينةِ، وَكانَ يَشْتَكي، طَوالَ آلوَقْتِ، مِنْ صاحِبِ آلفُرْنِ باسيل آلأحْوَلِ، آلَّذي يَتْرُكُهُ أثْناءَ آلعَمَلِ وَلا يَعودُ، فيُضْطَرُّ بشيرو أنْ يَعْجِنُ، ويُرَقِّقَ آلعَجينَ، ويَقْذِفَ بِهِ إلى بَيْتِ النّارِ، وَيُخْرِجَ آلأرْغِفَةَ حينَ تَنْضُجُ، وفَوْقَ هذا كُلِّهِ يَقِفُ أمامَ آلميزانِ الصَّدىءِ ذي آلكفَّتَيْنِ النُّحاسِيَّتَيْنِ ليَبيعَ الخُبْزَ.

يَظَلُّ بشيرو مُشْتَكِياً، ويَظَلُّ باسيلُ الأحْوَلُ عَلى حالِهِ. «أيْنَ يَمْضي آبْنُ السَّحْليَّةِ؟» يَقولُها مُتَذَمِّراً، «سَأدْلُقُ آلكازَ على كُلِّ شَيْءٍ وَأمْضي». لكِنَّ تَذَمُّرَه يَخْفُتُ بينَ آلحينِ وَآلحينِ، آنَ تزورُهُ زَوْجَةُ صاحِبِ آلفُرْنِ الشّابَّةُ، مُبْتَسِمَةً دائِماً، تَحْتَضِنُ طِفْلاً إلى صَدْرِها، وتَقودُ آخَرَ من يَدِهِ.

«غابَ كعادَتِه... ها؟» تَسْأَلُ بشيرو، فيُجيبُها بعَيْنَيْنِ خَفيضَتَيْنِ مِلْؤُهُما الرَّغبةُ: «كعادَتِهِ سَيِّدَتي، كعادَتِهِ»، ويَتَكَلَّفُ حَرَكاتٍ سَريعَةً بآلمِجْذافِ لإخْراجِ آلأرْغِفَةِ، حتّى تَلْحَظَ عَضَلاتِ زَنْدَيْهِ، وهيَ تَلْحَظُها بالطَّبْعِ؛ مِن غَيْرِ أن تَلْفِتَ آنْتِباهَهُ إلى إعْجابِها.

كانَتْ تَزورُ آلفُرْنَ لِماماً، في آلأيّامِ آلأولى لِمَجيءِ بشيرو، لكِنَّها باتَتْ تَتَرَدَّدُ عَلَيْهِ كَثيراً، آلآنَ. تُوصي آبْنَها البِكْرَ ذا السَّنواتِ السِّتِّ بِأخيهِ، ثُمّ تُشَمِّرُ كُمَّيْها لِتَقْطَعَ آلعَجينَ وتُرَقِّقَهُ. وكُنّا نُخَفِّفُ عَنْ بشيرو في زِياراتِنا آلمُسْتَديمَةِ، فَنَتَوَلّى آلبَيْعَ، مُتَشَمِّمينَ بُروقاً من الطَّحينِ آلأبيضِ بَيْنَ آلفَرّانِ الشّابِّ وبَيْنَ زَوْجَةِ مُعَلِّمِهِ آلمُهْمَلَةِ. وقدْ تَقَصَّدْنا، ذاتَ مَرَّةٍ، أنْ نوقِفَ سَيْلَ تِلكَ البُروقِ آلخَفِيَّةِ: «أيْنَ يَذْهَبُ آلمُعَلِّمُ باسيلُ يا سَيِّدَتي؟»، وَكَأنَّما أفاقَتْ مِنْ نِعْمَةِ غِيابِه، فَأَشارَتْ بِيَدِها إشارَةَ مَنْ يَطْرُدُ آلآخَرَ في آحْتِقارٍ: «يَذْهَبُ إلى فَرْجِ أُمِّهِ»، فتَدارَكَها بشيرو مُخَفِّفاً: «آلمُعَلِّمُ طَيِّبٌ يا سَيِّدَتي، لكِنَّ هَذِهِ آلعادَةَ...»، فَقاطَعَتْهُ كَمَنْ يُبَرِّرُ لِنَفْسِهِ أمراً مُبَيَّتاً يَتَراءى في آلأُفُقِ: «سيُقامِرُ بآلفُرْنِ كُلِّهِ، وقَدْ يَأْتي دَوْري لِيُقامِرَ عَلَيَّ. شَرَفُهُ أَحْوَلُ

كَعَيْنِهِ ٱلحَوْلاءِ»، وضَرَبَتْ بِقِطْعَةِ عَجينٍ عَلى ٱلمِنْضَدَةِ ٱلخَشَبيَّةِ فَتَطايَرَ الطَّحينُ ٱلخَفيفُ.

هكَذا باسيلُ؟ هكَذا إذَنْ؟ تَأْخُذُ غَلَّةَ ٱلفُرْنِ مِنْ بشيرو صَباحاً وَتَمْضي إلى قَرافَةِ السَّيّاراتِ، وهُناكَ تَجْتَمِعُ بِأَصْحابِكَ حَوْلَ طاوِلَةٍ مُلَوَّثَةٍ بالشَّحْمِ وَبِبُرادَةِ ٱلحَديدِ، حَيْثُ يَتَناوَبُ ٱلمَهْزومونَ عَلى هَزائِمِهِم، وَسْطَ أكْوامٍ مِنَ الدَّواليبِ ٱلمَطّاطيَّةِ ٱلباليةِ، وَٱلمُحَرِّكاتِ ٱلمَكْسورَةِ، وَٱلبَراغي ٱلمُتَفاوِتَةِ ٱلأحْجامِ، وَٱلمَطارِقِ الَّتي تَهْوي بِها أيْدي ٱلعُمّالِ عَلى قُضْبانٍ مُلْتَوِيَةٍ. لا أحَدَ يَسْمَعُ شَيْئاً. ضَجيجٌ في ٱلحَناجِرِ وضَجيجٌ في ٱلحَديدِ. ٱلعُيونُ، وَحْدَها، تَتَقَرّى ٱلعُيونَ وَٱلوَرَقَ ٱلمُسْتَطيلَ الصَّغيرَ. هكَذَا إذنْ؟!

... والزَّوْجَةُ الشّابَّةُ تَحْتَدِمُ: «ٱلأحْوَلُ يَرى ٱلوَرَقَةَ وَرَقَتَيْنِ، فكَيْفَ لا يَخْسَرُ في ٱستِمْرارٍ؟». آهٍ للبُروقِ. آهٍ لِبُروقِ الطَّحينِ. إنَّها تَتَعَمَّدُ أنْ تَدورَ نِصْفَ دَوْرَةٍ مِن حَوْلِ مِنْضَدَتِها إلى الفُوَّهَةِ اللَّهَبيَّةِ، حَيْثُ يَكونُ بشيرو مُنْحَنِياً قَليلاً يُراقِبُ الأرغِفَةَ، فَتَنْحَني بدَوْرِها، لِتَدُلَّهُ، آمِرَةً في تَوَدُّدٍ: «ذاكَ الرَّغيف... بلْ ذاك، يَكادُ يَحْتَرِق»، وهيَ لا تَنْحَني إلّا لتَشُمَّ ظَهْرَهُ العاري، أَوْ

إبْطَهُ، نَشْوى بِنُثاراتِ ٱلعَجينِ الصَّغيرةِ ٱلمُلْتَصِقَةِ بِشَعْرِ يَدَيْهِ.
آه لِلْبُروقِ. آه لِبُروقِ الطَّحينِ، فالَّذي لا يَكْتَمِلُ أمامَ عُيونِنا يَنْقُلُهُ لنا بشيرو: «لَقَدِ ٱنْهارَتْ عَلَيَّ بِثِقْلِ لَحْمِها». يَقولُ ذلِكَ بَعْدَما تَرَكَ الفرّانَ ٱلمُقامِرَ، وصالَحَ أباهُ فَعادَ إلى فُرْنِهِ ٱلخاصِّ: «حَصَلَ ذاتَ فَجْرٍ. جاءَ باسيلُ، أخَذَ الغَلَّةَ ومَضى. كُنْتُ مُنْكَبّاً على ٱلمَعْجَنِ، وقد غاصَتْ يَدايَ في ٱلعَجينِ حتّى ٱلمِرْفَقَيْنِ. وَكانَ بابُ ٱلفُرْنِ الشَّبَكِيُّ مَرْفوعاً إلى نِصْفِهِ فَقَطْ، فَدَخَلَتْ لامو من تَحْتِه مُنْحَنِيَةً، ثمّ أسْدَلَتْهُ وَراءَها، وسَدَّتْه بالسّاتِرِ ٱلخَشَبيِّ مِنَ الدّاخِلِ. فَهِمْتُ حَرَكَتَها، لكنّني تَحاشَيْتُ أنْ أُبادِرَ، بَلْ تَصَنَّعْتُ تَأفُّفي ٱلمُعْتادَ مِنْ زَوْجِها وَمِنْ فُرْنِهِ. لَمْ تَرُدَّ عَلَيَّ. تَقَدَّمَتْ وَطَوَّقَتْ خاصِرَتَيَّ مِنْ وَراءَ. هَمَسْتُ: لامو، ماذا تَفْعَلينَ؟ كانَتْ تَرْتَجِفُ. شَدَّتْ شَعْري بِقُوَّةٍ إلى الخَلْفِ، وأهْوَتْ بفَمِها على فَمي. لامو، ٱلعَجينُ... يَدايَ... ٱلعجينُ. كانَتْ تَرْتَجِفُ وتَلْهَثُ. سَقَطْنا مَعاً على كيسِ طَحينٍ قُرْبَ ٱلمَعْجَنِ. قُلْتُ لِنَفْسي: ما لَكَ يا وَلَد؟! وطَوَّقْتُها بذِراعَيَّ ٱلمُخَضَّبَتَيْنِ بٱلعَجينِ. طَوَّقْتُ شَعْرَها، وخَصْرَها، وفَخْذَيْها، مُتَنَقِّلاً بفَمي بَيْنَ وَجْهِها وقَدَميْها يا شَباب. فَوْقَ ثَوْبِها وتَحْتَ

ثَوْبِها. صِرْنا كَرَغيفٍ حَلَبيٍّ. جَثَتْ هاتِفَةً: مِن وَراءَ... خُذْ شَرَفَ ٱلأَحْوَل. آه يا شَباب. أَرْبَعَ مَرّاتٍ قَبْلَ أَنْ نَسْمَعَ خُطُواتِ أَوَّلِ زَبونٍ. أَرْبَعَ مَرّاتٍ يا شَبابُ وَهِيَ تَعِنُّ وتَئِنُّ»، وَنُعَقِّبُ نَحْنُ عَلى كَلامِهِ: «حلو أبو ٱلبِشْر... حلو».

كانَ ٱلفَصْلُ خَريفاً حينَ تَرَكَ بشيرو مُعَلِّمَهُ ٱلأَحْوَلَ. ولَمّا جاءَ الشِّتاءُ مَوْجَةً مَوْجَةً مِنْ طَحينٍ سَماوِيٍّ أَبْيَضَ، وبُروقاً شارِدَةً من فُوَّهَةِ ٱلفُرْنِ ٱلَّذي يَعْلو ٱلغُيومَ، سَرَتْ قِصَصٌ مُثَلَّجَةٌ عنَ باسيلَ ٱلأَحْوَلِ «غادَرَ ٱلفُرْنَ قَبْلَ شَهْرَيْنِ، ولَمْ يَعُدْ بَعْدُ». «رَأَوْهُ أخيراً، رَأَوا جُثَّتَهُ». أووه. «لا رَأْسَ لها. عَرَفوهُ مِنْ ثِيابِهِ، ومِن نُدْبَةِ ٱلجُدَرِيِّ ٱلكَبيرَةِ عَلى عَضُدِهِ». آهٍ. «عَثَروا عَلى الرَّأسِ ٱلمَقْطوعِ عَلى مَبْعَدَةِ مائتَيْ مِتْرٍ مِن ٱلجُثَّةِ». ها. «ثَلْجٌ أَحْمَرُ في دائِرَةٍ قُطْرُها أَرْبَعونَ مِتراً حَوْلَ ٱلجُثَّة». مِنْ أينَ كُلُّ ذلِكَ الدَّمُ؟ «الرَّأسُ مُهَشَّمٌ بِمِطْرَقَةٍ». أَوْلادُ «قَدّور بك» وَحْدَهُم يَسْتَطيعونَ فِعْلَ ذلِكَ. أَوْلادُ حارَة قدّور بك، ٱلأَكْثَرُ نَهْباً لِلْمَقابِرِ في ٱلأَرْضِ. ونَهُزُّ رُؤوسَنا. نَحْنُ نَعْرِفُهم. وَحْدَهم يَسْتَطيعونَ فِعْلَ ذلِكَ بباسيلَ ٱلأَحْوَلِ. فمِنْ أَجْلِ خاتَمٍ، أو ثَوْبٍ، يَنْبِشونَ أَرْبعينَ قَبْراً قَديماً وَجَديداً في ٱللَّيْلَةِ ٱلواحِدَةِ، ولا يَرْدُمونَها. وَضَعَتِ

آلحُكومَةُ حارِسَيْنِ عَلى آلمَقْبَرَةِ وَلَمْ تَسْلَمِ آلقُبورُ. يَأْتونَ كَبَناتِ آوى إلى مَقْبَرَةِ الرّومِ إذا سَمِعوا بدَفْنٍ جَديدٍ، وقَدْ واكَبْناهُم مَرَّتَيْنِ، لنُعْلِنَ لَهُمْ أنَّ أوْلادَ آلحَيِّ آلغَرْبيِّ لا يَخافونَ. واكَبْناهم برُغْمِ آلخُصومَةِ آلَّتي لا تَنْتَهي بَيْنَنا. نَحْنُ، أولادَ آلحَيِّ آلغَرْبيِّ، نَقولُ لهم، أولادُ آغوات وَمَلالي وتُجّارِ قَمْحٍ، لَسْنا وادِعينَ قَطّ.

في آلمَرَّةِ آلأولى نَبَشوا قَبْرَيْنِ لَمْ يَكونا آلمَقْصودَيْنِ. فاحَتْ رَوائِحُ غَريبةٌ، وَهاجَتْ أشْباحٌ آخْتَلَطَتْ بصُراخِ آلحارِسَيْنِ فَهَرَبْنا. وَفي آلمَرَّةِ الثّانيَةِ أخْرَجوا جُثَّةَ فَتاةٍ في الثّالثةَ عَشْرَةَ، طازَجَةً، لم تَنْفُخْ فيها آلأرْضُ مِن روحِ خَشاشِها بَعْدُ. عَرَّوْها ـ أوْلادُ قدّور بك ـ وَمَثَّلوا أمامَ أعْيُنِنا آللَّيْلِيَّةِ فَصْلَ آغْتِصابٍ مُدَمِّرٍ. قُلْنا لَهُم ـ بَعْدَ تلكَ اللَّيلةِ ـ لا تَسْتَهْوينا آلمَقابِرُ. تَعالَوْا مَعَنا ـ إذا كُنْتُمْ جَريئينَ ـ إلى غابةِ آلهِلاليَّةِ ليْلاً، لكِنَّهُم أبَوْا أنْ يَنْجَرّوا إلى «آلفَخِّ» بحَسْبِ ما سَمّى عُقَلاؤُهُم دَعْوَتَنا. وآفْتَرَقْنا. بَيْدَ أنَّ أوْلادَ قدّور بك آسْتَمَرّوا في نَبْشِ آلقُبورِ بالرُّغْمِ مِنْ حُرّاسِ آلحُكومَةِ، وحينَ آسْتَفْحَلَ آلأمْرُ شَيَّدَتِ آلبَلَديّةُ سوراً ضَخْماً حَوْلَ آلمَقْبَرَةِ، فَحَفَرَ أوْلادُ قدّور بك أساساتِ السُّورِ وعَبَروهُ. إذْ ذاكَ آسْتَسْلَمَتِ آلحُكومَةُ، وآلبَلَدِيَّةُ، وآلمَقْبَرَةُ، لأَمْرِ

لا رادَّ لَهُ؛ لأمْرٍ كَآلقَدَرِ، وَكَآلشِّمالِ آلَّذي خَلَقَتْهُ آلآلِهَةُ، مُصادَفَةً، مِنْ ضَجَرِها.

نَعَمْ. أَوْلادُ قدّور بك قَطَعوا رَأْسَ باسيلَ آلأحْوَلِ، نَقولُ لبشيرو، فيَنْظُرُ إلَيْنا في آستِخْفافٍ: «لا. أصْحابُهُ آلمُقامِرونَ يا بُلَهاءُ. أصْحابُهُ فَعَلوا ذلِكَ». ونَزِنُ آلأمْرَ في رُؤوسِنا فَنَراهُ على حَقٍّ. غَيْرَ أنَّ باسيلَ عادَ حَيّاً بشَحْمِه ولَحْمِه. بجِذْعِه وَرأْسِه مَعاً، يَتَكَلَّمُ ويَشْتَغِلُ في الفُرْنِ كسابِقِ عَهْدِهِ، و... أحْوَلُ. هَرَبَ من دُيونِه إلى آلعاصِمَةِ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ، وعادَ فَسَدَّدَها. يا لَلْحكايَةِ. لكِنَّ جَدَّ عزّو شَغَلَنا بمَوْتِه، فَنَسينا باسيلَ.

فَفي يَوْمٍ لَمْ نَكَدْ نُفيقُ فيهِ مِنَ الضَّحِكِ جاءَنا آلخَبَرُ. كُنّا نَضْحَكُ مِلْءَ رِئاتِنا. نَضْحَكُ وَنَتَلَوّى مِنْ وَجَعِ الضَّحِكِ. نَضْحَكُ وَنَتَمَرَّغُ عَلى التُّرابِ الرَّمادِيِّ، رافِعينَ سيقانَنا في آلهَواءِ كَزيزٍ مَقْلوبٍ عَلى ظَهْرِهِ. نَضْحَكُ مِنَ آبنِ زرزي آلَّذي آبْتَلَعَ عُصْفوراً حَيّاً بكامِلِ ريشِهِ فَحَمَلوهُ عَلى نقّالَةٍ إلى آلمُسْتَشْفى. وآبنُ زرزي أقْرَبُ إلى آلبَلاهَةِ منهُ إلى أيِّ شيْءٍ آخَرَ. كُنّا نُحادِثُه - آنَ آبْتَلَعَ آلعُصفورَ - عَنْ مَغاويرِ آلجَيْشِ: «يَأْكُلونَ آلأفاعِيَ آلحَيَّةَ. آهِ. يَأْكُلونَ آلكِلابَ وَآلعَقارِبَ يا آبنَ

زرزي». وَيُجيبُنا في حَماسَةٍ وتَهَوّرٍ: «أنا آكُلُ آلـحَيَّةَ. هاتوا آلـحَيَّةَ». ويَغْمِزُ بَعْضُنا بَعْضاً: «يَأْكُلونَ آلكِلابَ»، فَيَنْتَفِخُ: «هاتوا كَلْباً. أنا آكُلُ آلكِلابَ». كُنّا نَسْخَرُ مِنْهُ، لكِنَّ إعْجابَنا بِآلـمَغاويرِ إعْجابٌ رَصينٌ. نَحْنُ، حَرَسَ البُطولةِ في ذلِكَ آلعَراءِ، تَسْتَهْوينا آلبُطولَةُ، وكُلُّنا قادِرٌ ـ إذا جَرَّهُ التَّحَدّي ـ على آلْتِهامِ بَقَرَةٍ حَيَّةٍ، وقَدْ نَعَضُّها ـ أوّل ما نَعَضُّ ـ من قَرْنَيْها إذا لَزِمَ آلأَمْرُ. غَيْرَ أنَّنا وَجَدْنا، في غِيابِ أيِّ تَحَدٍّ، مَنْ نَتَفَكَّهُ عَلَيْهِ أكْثَرَ مِنْ أنْفُسِنا. «الـمَغاويرُ يَأْكُلونَ آلقِطَطَ»، ويَصْرُخُ آبْنُ زرزي: «أنا آكُلُ آلقِطَطَ. هاتوا قِطَّةً». ومِنْ أيْنَ نَأْتي لِآبْنِ زرزي بقِطَّةٍ؟ آهٍ، يَهْتِفُ أحَدُنا، سَنَأْتيكَ بعُصْفورٍ. «أنا آكُلُ آلعَصافيرَ» يَرُدُّ آبْنُ زرزي.

نَصْعَدُ إلى سَطْحِ أحَدِ آلبُيوتِ، ونَمُدُّ أيْدِيَنا إلى أوْكارِ آلعَصافيرِ. وبَعْدَ تَهْديمِ آلكَثيرِ مِنَ آلأعْشاشِ، وَكَسْرِ آلكَثيرِ مِنَ آلبَيْضِ الصَّغيرِ، نَعْثُرُ عَلى فَرْخٍ عَلى أُهْبَةِ أنْ يَغْدُوَ عُصفوراً كامِلاً، إذْ لا تَزالُ تُحيطُ بِمِنْقارِهِ هالَةٌ صَفْراءُ لَيِّنَةٌ. «خُذْ يا آبْنَ زرزي». ويَنْظُرُ آبْنُ زرزي إلى آلعُصْفورِ في أوَّلِ آلأَمْرِ، ثُمّ لا يَلْبَثُ أنْ تَنْتَفِخَ أوْداجُهُ، كَمَنْ يَسْتَذْكِرُ عَداوَةً قَديمَةً،

ويَحشُرَ ٱلفَرْخَ في فَمِهِ. يَمْضَغُهُ مَرّتَيْنِ فَتَخْرُجُ زَقْزَقَةٌ أليمَةٌ مِنْ أُذُنَيْهِ. لا يَعْبَأُ بِنَفْسِهِ. يَرْفَعُ يَدَيْهِ عالياً في حَماسَةِ ٱلْمُنْتَصِرِ: «حـ حـ حـ حـ م. بووووو» ويَزْدَرِدُ ٱلفَرْخَ كامِلاً، ثمّ تَنْتابُهُ نَوْبَةُ غَثَيانٍ، فيُحاوِلُ أنْ يَتَقَيّأَ ولا يَسْتَطيعُ. يَتَشَنَّجُ لِساعَتَيْنِ قَبْلَ أنْ تَصِلَ سَيّارَةُ ٱلإسْعافِ ٱلأُبَّهِيَّةُ.

ضَحِكْنا، لِيَوْمَيْنِ، ما يَعْدِلُ ضَحِكَ أهْلِ الشِّمالِ، كُلِّهِم، مَدى سَنَةٍ، حتّى جاءَنا خَبَرُ مَوْتِ جَدِّ عزّو.

كانَ أحَدُهُمْ يَرْكُضُ لاهِثاً، وحينَ جاوَرَنا ـ نَحْنُ حَفْنَةَ الصِّبْيَةِ الضّاحِكينَ ـ صَرَخَ: «أبْلِغوهُمْ أنَّهُ تَحْتَ الرَّدْمِ». جاءَ كَلامُه غامِضاً، مُبَلَّلاً بالنَّشيجِ. قُلْنا: «مَنْ تَحْتَ الرَّدْمِ؟»، فَحاوَلَ أنْ يَتَمالَكَ لُهاثَهُ: «جَدّ... جَدّ عِزّو. إنهار ٱلمَقْلَعُ». وَسَأَلْناهُ في فُضولٍ: «أماتَ؟»، صَرَخَ بِنا: «أبْلِغوهُم... ماتَ»، وَعادَ أدْراجَهُ راكِضاً مِثْلَما جاء.

كُلُّ أبْناءِ ٱلجَدِّ يَعيشونَ في مَنْزِلٍ واحِدٍ، مُقَسَّمٍ مِنَ الدّاخِلِ إلى غُرَفٍ مُتَقابِلَةٍ، يَفْصِلُها مَمَرٌّ يَقودُ إلى زَريبَةِ ٱلبَقَرِ وٱلبِغالِ. أبو عزو أكْبَرُهم، وٱلآخَرونَ حَديثو زَواجٍ.

عَبَرْنا ٱلبَوّابَةَ ٱلمَفْتوحَةَ إلى ٱلمَمَرِّ مُباشَرَةً، فتَطايَرَتْ مِنْ

تَحْتِ أقْدامِنا الدَّجاجاتُ مَذْعورَةً، وَتَنَحَّتِ ٱلبَقَراتُ ٱلـمُدَلَّلَةُ. أمّا ٱلبِغالُ فَلَمْ تَكُنْ هُناكَ، لأنَّها كانَتْ، في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، لا تَزالُ مَرْبوطَةً إلى عَرَبَةِ ٱلـجَدِّ وأحَدِ أبْنائِهِ، في مَقْلَعِ التُّرابِ. صَرَخْنا: «ماتَ الـجَدُّ»، فَقَرْقَعَتِ ٱلأبْوابُ ٱلكَثيرةُ الـمُتَقابِلَةُ، وَخَرَجَ سَيْلٌ مِنَ ٱلبَشَرِ. رِجالٌ، ونِساءٌ، ودَجاجاتٌ، وَأطْفالٌ ثَمانيةٌ هُم إخْوَةُ عزّو. أشَرْنا بأصابِعِنا «هُناكَ... ٱلـمَقْلَع». لَمْ يَنْتَظِروا أنْ نُكْمِلَ، تَدَحْرَجوا إلى الطَّريقِ، ثُمّ تَسابقوا في ٱتِّجاهِ مُسْتَنْقَعِ قاسمو. فَعَلى حَوافِّ ذلِكَ ٱلـمُسْتَنْقَعِ تَتَجاوَرُ حُفَرٌ ضَخْمَةٌ عَميقَةٌ، تَتَخَلَّلُها مَمَرّاتٌ ومَسالِكُ مُنْحَدِرَةٌ لِدُخولِ وخُروجِ ٱلعَرَباتِ.

كانَ جَدُّ عزّو، وَآخرونَ كَثيرونَ، يَكْسِبونَ رِزْقَهُم مِنْ بَيْعِ التُّرابِ ٱلأحْمَرِ، وَالرَّمادِيِّ، بحَسَبِ الطَّلَبِ. الأحْمَرُ لِصُنْعِ طوبِ ٱلبِناءِ، وَالرَّماديُّ كمِلاطٍ لِلتَّمْليسِ. يَأْتونَ بعَرَباتِهِم ٱلَّتي تَجُرُّها ٱلبِغالُ، ثُمَّ يَنْحَدِرونَ إلى أعْماقِ تِلْكَ ٱلـحُفَرِ فَيَنْبِشونَ التُّرابَ بمَعاوِلِهِم ٱلـمُدَبَّبَةِ. وَفي أثْناءِ تَحْميلِ ٱلعَرَباتِ، يَقومُ الصِّبْيَةُ، ٱلَّذينَ يُرافِقونَ هؤلاءِ ٱلحَفّارينَ ٱلأقْوِياءَ، بِفَكِّ ٱلبِغالِ، وَقِيادَتِها إلى نَهْرِ ٱلهِلالِيَّةِ ٱلقَريبِ. يَغْسِلونَها، وَيَلْهونَ برُكوبِها،

ويَكْفي أن يُناديَهُم مُنادٍ ليَعودوا. وَعزّو يُرافِقُ جَدَّهُ عادَةً. وَكانَ أنْ رافقَهُ لِلْمَرَّةِ الأخيرَةِ فَرأى كَيْفَ دُفِنَ الشَّيخُ مَرَّتَيْنِ.

تَبِعْنا ٱلجَمْعَ الرّاكِضَ حتّى مُسْتَنْقَعِ قاسمو، ومِنَ ٱلحافّاتِ ٱلعاليةِ ٱسْتَعْرَضْنا الانْهِيارَ ٱلمُرَوِّعَ: ثَمَّتَ عَرَبَةٌ مُهَشَّمَةٌ في ٱلقاعِ، تَدَحْرَجَتْ بِفعْلِ ٱلانْجِرافِ التُّرابيِّ مِنَ ٱلأَعْلى، وَكَذلِكَ أحَدُ ٱلبِغالِ، وَكانَ موهَناً، يَعْرُجُ في مِشْيَتِهِ، أمّا الرِّجالُ فمُنْهَمِكونَ على الرَّدْمِ، يُبَدِّدونَهُ بِرُفوشِهِم لِيَعْثُروا عَلى ٱلجَدّ.

أوه عزّو، كُنْتَ تَرْتَجِفُ كَنَبْتَةِ ٱلخَرْنوبِ. وكُنّا نَرْتَجِفُ أيْضاً. عَويلٌ وَرَنينٌ، وَشُرودٌ أخْرَسُ لِبِغالٍ خَرْساءَ تَقْتَرِبُ، بِدَوْرِها، لِتَرى. وَأخيراً بانَ قِسْمٌ مِن دَشْداشَتِهِ. جَرّوها فتَمَزَّقَتْ، كَأَنَّما ٱلْتَصَقَتِ ٱلجُثَّةُ بِٱلأرْضِ. رَمَوُا الرُّفوشَ وَحَفَروا حَوْلَ ٱلجُثّةِ بِٱلأَيْدي. آهِ عزّو، كانَ الطَّرفُ ٱلمُدَبَّبُ لِلمِعْوَلِ غائِصاً بتَمامِهِ في خاصِرَةِ ٱلجَدِّ. إنْتَزَعوا ٱلمِعْوَلَ وَلَفّوا ٱلجُثَّةَ بِغِطاءٍ أصْفَرَ ما لَبِثَ أنْ تَبَقَّعَ مِن جِهاتِهِ كُلِّها بالدَّمِ. وَضَعوها في عَرَبَةٍ يَقودُها بَغْلٌ حَزينٌ، وتَبِعْنا ٱلعَرَبَةَ حتّى مُعَسْكَرِ أبْنائِهِ، ودَجاجاتِ أبْنائِهِ، وبَقَراتِهِم. وَبِالطَّبْعِ ظَلَلْنا واقِفينَ وَسَطَ ٱلحُشودِ، في ٱلمَمَرِّ، حتّى تَكْتَمِلَ فُصولُ ٱلمَوْتِ.

ذَهَبوا بِآلـجُثَّةِ إلى آلـمَسْجِدِ. غَسَلوها وَصَلّوا عَلَيْها، ثَمَّ أعادوها إلى عَرَبَةٍ من عَرَباتِهِم، مُتَّجِهينَ بها صَوْبَ قريةِ تُوبْز، مَسْقِطِ رأسِ آلـجَدِّ. وَتُوبْز على مَبْعَدَةِ عَشْرَةِ كيلومتراتٍ مِنَ آلـمَدينَةِ. سِباقٌ بَـيْـنَنا وبَيْنَ آلبِغالِ، والـمُشَيِّعونَ يَتَناوَبونَ مَقاعِدَهُم في آلعَرَباتِ مَعَ الرّاجِلينَ.

فَرَحٌ حَقيقيٌّ أنْ نَرْكَبَ آلعَرَباتِ. فَرَحٌ صَريرُ عَجَلاتِها عَلى آلإسْفَلْتِ، وَقَعْقَعَةُ أخْشابِها. وَجَلالُ آلمَوْتِ لا يَمْحو اللَّهْوَ، إذْ نَقْتَلِعُ في الطَّريقِ جُذورَ آلـحَرْشوفِ آلـحُلْوِ لِنَأْكُلَها، أو نَنْبُشُ جُحورَ عَناكِبِ التُّرابِ، تِلْكَ آلـجُحورَ الضَّحْلَةَ، آلـمَكْشوفَةَ، آلَّتي تَتَراءى واضِحَةً في آلعراءِ كَبراكينَ صَغيرَةٍ جِدّاً. أمّا آلعَناكِبُ، هذِهِ، فبَطيئَةٌ طَريفَةٌ، نَضَعُها فَوْقَ حَفْنَةِ التُّرابِ في أيْدينا فتَدورُ على نَفْسِها قَليلاً، ثُمّ تَدْفَعُ التُّرابَ مَرَّةً إلى أمامَ، ومَرَّةً إلى وَراءَ، حتّى تَخْتَفيَ تَحْتَ قِشْرَةٍ هَيِّنَةٍ مِنْها. وَتَكْفي قَطْرَةُ ماءٍ لِتَخْرُجَ مِنَ الجُحْرِ، وَحينَ لا نَجِدُ آلماءَ نَبْصُقُ فيها، وَسِيّانِ عِنْدَها آلماءُ وَالتُّفْلُ.

آه عزّو، هذِهِ هِيَ تُوبْز إذَنْ؟ لَقَدِ آنْحَرَفْنا عنِ الطَّريقِ آلإسْفَلْتيِّ إلى مَسالِكَ تُرابيَّةٍ رَسَمَتْها آلعَرَباتُ وَأظْلافُ آلأغْنامِ،

وَعَصْراً أَلْفَيْنا أنْفُسَنا أمامَ أَشْباحِ كَهْلَةٍ لا لَوْنَ لها؛ أشْباحِ مَنازِلَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْها أحَدٌ لِيَرى ٱلْمَوْكِبَ. ما هَمَّ يا تُوبْز، الدِّيكَةُ وَحْدَها مَدَّتْ أعْناقَها في فُضولٍ، ثُمَّ رَجَعَتْ إلى بَحْثِها ٱلأزَليِّ عن بِذْرَةٍ ضائِعَةٍ.

مرَّ ٱلْمَوْكِبُ بمُحاذاةِ ٱلْقَرْيَةِ. جاوَزَها قَليلاً ليَقِفَ في مُواجَهَةِ ٱلْمَقْبَرَةِ تَماماً. مَحْضُ كُتَلٍ مُسْتَطيلةٍ من التُّرابِ تَكادُ تَنْدَثِرُ. لا شَواهِدَ حَجَريَّةً، لا رَقائِقَ مِنَ ٱلآجُرِّ أوِ ٱلْخَزَفِ. تُرابٌ مُحْدَوْدِبٌ يَكادُ يَسْتَسْلِمُ لِآخِرِ فُكاهَةٍ تُطْلِقُها الرّيحُ. تُرابٌ سَيَتَفَجَّرُ بِٱلقَهْقَهَةِ ويَمْضي، وسَتَبينُ ٱلهُوَّةُ ٱلعَمْياءُ تَحْتَ أساساتِ تُوبْز الرَّخْوَةِ، حَيْثُ يَجْلِسُ ٱلْمَوْتى، مُنْذُ آلافِ السِّنينِ، حَوْلَ قِدْرٍ يَغْلي عَلى نارٍ خَفيفَةٍ، وَفي أيديهِم صُحونٌ مِنَ التّوتياءِ، وَأرْغِفَةٌ مِنْ دَقيقِ الشُّوفانِ، وقُرْبَ ظِلالِهِمُ ٱلْمُسْتَطيلَةِ تَجْثُمُ بِغالٌ لَمْ يَبْقَ مِنْها إلّا هياكِلُ مُضيئَةٌ، تَمْضَغُ مَناديلَ ٱلآلِهَةِ وَأذْيالَ عَباءاتِها.

الْحُفْرَةُ جاهِزَةٌ. ثَمَّتَ مَنْ سَبَقَنا وأعَدَّ ٱلْمَرْقَدَ. أنْزَلوا ٱلْجُثَّةَ ٱلْمُكَفَّنَةَ في جَلالٍ. «وَسِّعوا قَليلاً يَرْحَمْكُمُ ٱللَّهُ»، والرُّؤوسُ ٱلْفُضوليّةُ تَتَدافَعُ مِنْ فَوْقِ ٱلأكْتافِ، أمّا ٱلأرْجُلُ فَكانَتْ تَطَأُ

التُّرابَ الرَّطْبَ على حَوافِّ ٱلحُفْرَةِ، وتُبَعْثِرُ ثُلَّةً من ٱلعِظامِ، إذْ بَدا واضِحاً أنَّهُم حَفَروا مَكانَ قَبْرٍ قَديمٍ، لكِنَّهم لَمْ يُكَلِّفوا أنْفُسَهم ـ بَعْدَ عَناءِ ٱلحَفْرِ ـ تَرْكَ الضَّيْفِ ٱلعَظْمِيِّ فَأَقْلَقوهُ. رَمَوْهُ مَعَ التُّرابِ خارِجاً: «وَسِّعوا لِلْكَريمِ ٱبْنِ ٱلكَريمِ يَرْحَمْكُمُ ٱللَّهُ». وَها نَحْمِلُ جُمْجُمَةَ ٱلكائِنِ ٱلَّذي لا ٱسْمَ لَهُ. جُمْجُمَةٌ مُهْتَرِئَةٌ ضاعَ صَفٌّ مِنْ أسنانِها. وَحينَ أهالوا التُّرابَ على ٱلحُفْرَةِ لَمَحوها بَيْنَ أيْدينا، فَصَرَخوا: «هاتوها. هاتوا كُلَّ عَظْمَةٍ تَرَوْنَها خارِجاً لِنَدْفِنَها مِنْ جَديدٍ»، فَٱنْحَنَيْنا عَلى ٱلأَرْضِ في بَحْثٍ مَحْمومٍ عَنِ ٱلعِظامِ، حتّى جَمَعْنا قَدْراً هائِلاً ٱخْتَلَطَ فيه عَظْمُ ٱلمَيِّتِ بعَظْمِ الدَّجاجِ، وٱلخِرافِ، وحَيَواناتٍ أُخْرى جَرَّتْها ٱلكِلابُ إلى ٱلمَقْبَرَةِ. لَمْ يُعايِنْها أحَدٌ. رَمَوْها في ٱلحُفْرَةِ، بدَوْرِها، وَطَمَروها. «تَغَمَّدَكُمُ ٱللَّهُ...»، ثُمَّ جَلَسَ المُشَيِّعونَ في حَلْقَةٍ كَبيرةٍ حَوْلَ ٱلقَبْرِ، وَبَدَأَ النُّواحُ والنَّدْبُ. وَبَعْدَ ساعةٍ مِنْ أداءِ ٱلجَوْقَةِ فَتَحَ أعْمامُ عزّو صَفيحَةَ ٱلحَلاوَةِ، نَثَروها على أرغِفَةِ التَّنّورِ وقَسَّموا ٱلأَرْغِفَةَ بَيْنَ ٱلمُشَيِّعينَ: «كُلُوا عَنْ روحِهِ...». وَأكَلَ ٱلجَميعُ، حتّى أولئِكَ ٱلأكثرُ حُزْناً لِفَقْدِ ٱلجَدّ. «عَنْ روحِهِ. عن روحِ ٱلكَريمِ ٱبْنِ ٱلكَريمِ. كُلوا لِيَهْدَأ».

كانَ آلمَغيبُ يَسْتَلُّ ظِلالَهُ آلبارِدَةَ مِنْ غِمْدِها آلأَرْضِيِّ، ويَنْثُرُ آلوَحْشَةَ. هُرِعْنا إلى آلعَرَباتِ، أو مَشْياً وَراءَها، وَعُدْنا، بَيْنَما بَقِيَ آثْنانِ مِنْ أوْلادِ آلجَدّ جالِسينَ قُرْبَ آلقَبْرِ لِمُؤانَسَةِ جَدِّهِم. هكَذا تَقْضي آلعادَةُ، فَآلقَبْرُ موحِشٌ، وَعَلى بَعْضِ آلأَحْياءِ أنْ يُؤازِروا آلمَيِّتَ في ساعاتِ دَفْنِهِ آلأولى، إذْ يَأْتي آلمَلَكانِ، مُنْكَرٌ ونَكيرٌ، يَحْمِلانِ مِطْرَقَتَيْنِ وَحَفْنَةً مِنَ آلأَسْئِلَةِ، كُلَّما أخْطَأَ آلمَيِّتُ في الإجابَةِ عَلَيْها دَفَعوهُ إلى آلأَعْماقِ، بضَرْبَةٍ واحِدَةٍ، ألْفَ ذِراعٍ، أوْ ضَيَّقوا عَلَيْهِ آلحُفْرَةَ حتّى تَخْتَنِقَ روحُهُ ألفَ مَرّةٍ. وإنْ أصابَ في الإجابَةِ نَفَحوهُ بَعْضَ طَعامِ آلجَنَّةِ، وَوَسَّعوا عَلَيْهِ آلحُفْرَةَ إلى يَوْمِ آلقِيامَةِ. وَوُجودُ أحْياءٍ حَوْلَ آلقَبْرِ يُسْعِفُ آلمَيِّتَ في تَمالُكِ أعْصابِهِ لآجْتِيازِ الآمْتِحانِ.

والشِّمالُ آمْتِحانٌ. جِهَةُ الضَّجَرِ آلكَبيرَةُ سَيِّدَةُ الجِهاتِ في آمْتِحانِها. تَأْخُذُ كُلَّ شَيْءٍ لِتُعْطِيَكَ آلبَسالَةَ والتَّهَوُّرَ. وفي أضْعَفِ حالٍ تَجْعَلُكَ وَكيلاً عَلى مِلْكٍ لا يُرى، أو حارِساً لِلْهَواءِ. لكِنَّ آبْنَ حجي كفر وَكيلُ الضَّحِكِ في آلأَرْضِ، لَمْ يَنْقَطِعْ عَنْ ذلِكَ في أثْناءِ عَوْدَتِنا مِنْ جَنازَةِ جَدِّ عزّو. ولَمْ يَنْقَطِعْ قَبْلَ ذَلِكَ بِالطَّبْعِ. يُوَبِّخونَهُ فَيَضْحَكُ. يَضْرِبونَهُ

فَيَضْحَكُ. يَشُجّونَ رَأْسَهُ، أوْ يَكسِرونَ ساقَهُ، فَيَضحَكُ. لَيْسَ أبْلَهَ قَطُّ، لكِنْ مَنْ يَراهُ لِلْمَرَّةِ الأولى لا يَشُكُّ في بَلاهَتِهِ: آبْتِسامَةٌ عَريضَةٌ في وَجْهٍ عَريضٍ، تَحْتَ عَيْنَيْنِ لا تَثْبُتانِ عَلى شَيْءٍ، دائِمَتَي آلحَرَكَةِ كَنواسِ السّاعةِ.

إسْمُهُ أمينٌ، ونُسَمّيهِ آبْنَ حجي كفْر، أيِ آبْنَ آلحاجِّ حَجَر، لِأنّ والِدَهُ لا يُخْطِىءُ في رَمْيِ آلحَجَرِ. يَرْمي دَجاجاتِ آلجيرانِ إذا آقْتَرَبَتْ مِنْ حَقْلِ آلبَصَلِ والرَّشادِ فَتَهْوي. وحَقْلُهُ لا يَتَعَدّى خَمْسَةَ أمْتارٍ مُرَبَّعَةٍ... خُصومَةٌ أبَدِيَّةٌ بينَهُ وَبَيْنَ الدَّجاجِ، وخُصومَةُ الدَّجاجِ تَجُرُّ عَلَيْهِ خُصومَةَ جيرانِهِ. خِصامٌ في خِصامٍ، وَآلحاجُّ يَحومُ كَديكٍ في عَباءَتِهِ الصَّيْفِيَّةِ آلمُقَصَّبَةِ: «يا آبْنَةَ الكَلْبِ»، ويَرْمي بحَجَرٍ. «يا آبْنَةَ آلبَوْلِ»، ويَرْمي بحَجَرٍ. وتُضْطَرُّ الدَّجاجاتُ أنْ تُراقِبَ حَقْلَهُ مِنْ بَعيدٍ، وَفي وُدِّها أنْ تَنْقَرِضَ آلحِجارَةُ لِيَتَكافَأَ الصِّراعُ.

كُنّا نُمْضي آللَّياليَ آلخَمْسَ آلأخيرَةَ مِنْ رَمَضانَ في آلمَسْجِدِ، بَدْءاً مِنَ آلغُروبِ حَتّى السَّحَرِ، نَتَلَمَّسُ لَيْلَةَ القَدْرِ غَيْرَ آلمَعْلومَةِ، عَسى تَمْتَلِىءُ خَزائِنُ بُيوتِنا آلفارِغَةُ بالسَّمْنِ أَوْ بِالذَّهَبِ. وَفي صِبانا ذاكَ، لَمْ نَعُدْ مُقْتَنِعينَ بِآلأمْرِ، لا أحَدَ

أخْبَرَنا، ذاتَ صَباحٍ، أنَّ لَيْلَةَ ٱلقَدْرِ نَثَرَتْ عَلى بَيْتِهِ شَذَراتٍ مِنْ قِشْرِ العَدَسِ، أوْ مِنَ الطّينِ. لكِنّ ٱلمَسْجِدَ تَحَوَّلَ إلى مَكانِ مُؤانَسَةٍ خَفِيٍّ، وَٱجْتِماعاتٍ لَيْلِيَّةٍ قانونيَّةٍ كانَ يَحْظُرُها آباؤُنا عَلَيْنا في ٱلأيّامِ ٱلعاديَّةِ مِنَ السَّنَةِ. وَنَحْنُ نَعْرِفُ كَيْفَ سَيَتَصَرَّفُ ٱلكِبارُ سَلَفاً، وَكَيْفَ سَيُخْلونَ لنا السّاحَةَ. ففي الشَّوْطِ ٱلأوَّلِ مِنَ ٱللَّيلِ يَأْتونَ خاشِعينَ، وَنَتَصَنَّعُ ٱلخُشوعَ مَعَهُم. يَتَثاءَبونَ، بَعْدَ ذلك، ويَنْسَلّونَ، واحِداً وَراءَ ٱلآخَرِ، فَنَبْقى نَحْنُ. وإذْ يَنْفَضّونَ عَنِ ٱلمَسْجِدِ تَتَزاحَمُ شَياطينُنا. نَصْعَدُ فَنُقَلِّدُ ٱلإمامَ. أمّا ٱبْنُ حجي كفر فيُقَلِّدُ قاسمو في ٱلأذانِ. ويُلَعْلِعُ صَوْتُهُ ٱلحادُّ: «حَيَّ على..»، وَقَبْلَ أنْ يُكْمِلَ تَفْجَؤُهُ ٱلقَهْقَهَةُ «ها ها... على بَلَدي ٱلمَحْبوب». يَنْقَلِبُ ٱلأذانُ إلى غِناءٍ. لا يُكْمِلُ أمينُ شَيْئاً. القَهْقَهَةُ كُلَّ ثانِيَتَيْنِ. قَهْقَهَةٌ تُرَدِّدُها الجُدرانُ ٱلإسْمَنْتِيَّةُ ٱلعالِيَةُ، قَبْلَ أنْ تَتَدَحْرَجَ على ٱلحُصُرِ وَالسَّجاجيدِ، وتَرْتَطِمَ بِٱلأحْذِيَةِ ٱلمَصْفوفَةِ أمامَ ٱلبَوّابَةِ. وَنَسْأَلُ أنْفُسَنا: مَنِ ٱلَّذي ضَحِكَ، أوّلَ مَرَّةٍ، آنَ وُلِدَتِ ٱلأَرْضُ؟ أيُّ دَعابَةٍ، في ذلِكَ الزَّمَنِ ٱلموحِشِ، جَعَلَتْ شَفَتَيْهِ تَفْتَرّانِ عَنْ أسْنانِهِ، وصَعِدَتْ مِن حَنْجَرَتِه ٱلقَهْقَهَةُ؟ سَنَظَلُّ نَسْأَلُ عَنِ النَّشْءِ

آلأوَّلِ لِلأُمورِ، إلهي. سَنُرَدِّدُ: أيُّ آبْنِ قَحْبَةٍ عَرَفَ آلبَصَلَ، مَثَلاً؟ وأيُّ آبْنِ جَرادَةٍ عَرَفَ التَّبْغَ؟ مَنْ تَذَوَّقَ آلإجّاصَ، وَنَهْنَهَهُ آلبُكاءُ؟ لِماذا نَتَكَهَّنُ بِآلمَصادِرِ آلأولى، إلهي؟ كانَ حَرِيّاً بِالَّذينَ عَرَفوا جُذورَ سُؤالاتِهِم أنْ يَكْتُبوها. كانَ حَرِيّاً بِكَ، إلهي، أنْ تُلْهِمَ آبْنَ آلعاهِرَةِ آلأوَّلَ، الَّذي ضَحِكَ عَقِبَ تواجُدِهِ في آلأرْضِ، أنْ يَشْرَحَ على وَرَقَةٍ، أو حَجَرٍ، هَذا الآنْفِعالَ، ولِماذا هُوَ تَعْبيرٌ عَنْ تَرْفيهٍ، أو تَعْبيرٌ عَنِ الشَّطْرِ آلمُهَرِّجِ مِنْ روحِهِ؟ وما آلَّذي جَرى لِيَضْحَكَ؟ كانَ حَرِيّاً بكَ، إلهي، أنْ تُلْهِمَ آلجَمْعَ آلأوَّلَ كَيْفَ يَكْتُبُ سَبَبَ الرَّقْصِ، وَالرُّعْبِ، وَآنْشِغالِ آلآباءِ بِآلأبْناءِ، وَآلمِلْكِيَّةِ، وإيمانِهِم بِكَ أنْتَ. فنَحْنُ آلقَريبينَ مِنْ عَصْرِ آنْبِجاسِ آلكائِنِ كنافورَةٍ مُعْتِمَةٍ في الظَّلامِ نَتَكَهَّنُ بِكُلِّ ذلِكَ. نَتَكَهَّنُ فَحَسْبُ. نُخَمِّنُ، ونُقَلِّبُ آلأُمورَ على وَجْهِها حتّى تَمَّحيَ آلوُجوهُ، فَكَيْفَ بآلبَعيدينَ، آلمُقْبِلينَ مِنْ عُصورٍ، في آلمُسْتَقْبَلِ، أكْثَرَ بُعْداً مِمّا يُصيبُهُ الظَّنُّ؟ سَيَتَكَهَّنونَ. سَتَزْدادُ كَهانَتُهُم وَتَخْمينُهم، وَسَيَكونونَ أقَلَّ يَقيناً مِنّا، وَمَنْ يَقِلُّ يَقينُهُ يَتَسَلّى بآخْتِراعِ آليَقينِ. لكنَّنا نَعْلَمُ، سَلَفاً، أنَّ جُنونَهُم سَيُجاوِزُ جُنونَنا، ولَنْ يَقِفوا عِنْدَ حُدودِ عِظامِ جَدٍّ

عزو وَأساساتِ تُوبْز آلَّتي سَتَنْدَثِرُ. لَنْ يُحاوِلوا مَعْرِفَةَ شَيْءٍ عَنّا، فَنَحْنُ وَصْلَةٌ مُهْمَلَةٌ لا يُؤْبَهُ لها في تاريخٍ مُهْمَلٍ بِرُمَّتِهِ، لكِنَّهُم سَيَقِفونَ طَويلاً عِنْدَ ضِحْكَةِ آبْنِ حجي كڤر، وسَيُحَلِّلونَ ـ عَبْرَها ـ آلبُنى، وَآلهَنْدَسَةَ وَآلخُسوفَ، وَآلكُسوفَ، وَآلكِتابَةَ آلحَمْقاءَ، وَآلمُصادَفَةَ آلَّتي خَلَقَتِ الشِّمالَ كُلَّهُ. ضِحْكَةٌ تَفْتَحُ التّاريخَ عَلى مِصْراعَيْهِ لِآلاتِ آلمُسْتَقْبَلِ آلكَلْبِ، وَتَجْعَلُ رُؤوسَ كائِناتِهِ تَتَدافَعُ مِنَ آلبابِ لِتُلْقِيَ نَظْرَةً عَلى بِغالِنا آلمُضيئَةِ.

أمينُ... أمينو... آبْن حجي كڤر، أَوْقِفْ ضَحِكَكَ كَيْ لا توقِظَ ميرو وأكْباشَهُ، كَيْ لا توقِظَ آلحُكومَةَ، وَمُوَظَّفي مَسْحِ آلأراضي. لكِنْ، هَيْهاتَ، الضَّحِكُ سَمادُ أمينٍ، سَمادُ خَلاياهُ، وَهُوَ آلآنَ أَشَدُّ صَخَباً. فَآليَوْمَ عُرْسٌ. وَنَقولُ لَهُ: «سَيُفَصِّلُ دريج قُبَّعَةً لِأُخْتِكَ، وقُبَّعَةً لَكَ»، فَلا يَزْدادُ إلّا ضَحِكاً.

إنّه عُرْسُ بِنْتِ حجي كڤر أخْتِ أمينٍ، الفَتاةِ الضَّخْمَةِ آلَّتي لا تُجاوِزُ السّادِسَةَ عَشْرَةَ. وَدريج هُوَ خَطيبُها، في آلعِقْدِ آلخامِسِ مِنْ عُمْرِهِ. لهُ زَوْجَةٌ وَسِتَّةُ أوْلادٍ، وأخْتُ أمينٍ سَتَكونُ الثّانيَةَ، بَعْدَما دَفَعَ مَهْراً مُجْزِياً. «سَيَصْنَعُ قُبَّعَةً لكَ يا أمينُ»، نَقولُها، ونَحومُ مِنْ حَوْلِهِ، وَآلمَعْنى آلخَفِيُّ للعِبارَةِ الشّائِعَةِ،

هذِهِ، أنَّ آلعَريسَ سَيَجْعَلُ مِنْ غِشاءِ آلبَكارَةِ قُبَّعَةً لعُضْوِهِ. وَأمينُ يَضْحَكُ، أمّا أُخْتُهُ فَتَتَصَنَّعُ آلوَقارَ وَآلحُزْنَ ـ مِثْلَما دَرَّبَها أهْلُها ـ وَسَطَ حَلَقاتِ النِّساءِ آلمُحيطاتِ بِها، وَوَسَطَ أغانٍ تَقْضَمُ آلمُغَنِّياتُ نِصْفَ كَلِماتِها، فَالصَّخَبُ هُوَ آلمُرادُ، لِذلِكَ لا يَأبَهْنَ لِلْمَعاني.

وقُرْبَ آلجَمْعِ آلمُغَنّي ذاكَ، كانَتْ زَوْجَةُ دريج آلأولى تَحومُ كَباشِقٍ، تَهْجُمُ عَلى آلمُعَرِّسينَ فَتَتَطايَرُ أسْرابٌ مِنْ مَناديلِ النِّساءِ قَبْلَ أنْ يَرْدُدْنَها. وَبَعْدَ آستِراحةٍ قَصيرةٍ مُزْبدَةٍ تُعيدُ الكَرَّةَ، فَتَتَطايَرُ أسْرابٌ مِنَ آلأوْشِحَةِ، وتَتَناثَرُ عُقودٌ مِنْ خَرَزٍ. وَحينَ تَنْكَفِىءُ تَصْرُخُ: «حجي كڤر، أنا سَأَفُضُّ آبْنَتَكَ، لا دريج»، ويُشيحُ حجي بِوَجْهِه عَنْها، نابِحاً: «أبْعِدوا المَسْعورَةَ، بِآللَّهِ عَلَيْكُم».

في تِلْكَ آللَّيْلَةِ، وَفي غُرْفَةِ الزَّوْجَةِ الأولى ذاتِها، دَخَلَ دريج عَلى عَروسِهِ. وَدريج لا يَمْلِكُ إلّا هَذا آلبَيْتَ بغُرَفِهِ الثَّلاثَةِ، وَعَلى عِيالِهِ أنْ يَناموا في غُرْفَةٍ ثانِيَةٍ بَعْدَ الآنَ. لكِنَّ الزَّوْجَةَ الأولى ظَلَّتْ في آلباحَةِ، تَهْجُمُ بَيْنَ آلحينِ وَآلحينِ عَلى النّافِذَةِ آلمُضيئَةِ: «أيُّها آلمُتَهدِّلُ، بِأيِّ شَيْءٍ سَتَفْتَضُّها؟ خُذْ مَعَكَ

آلمِكْنَسَةَ يا عِنّينُ». ولَمْ يَطُلْ مُكوثُ دريج في الدّاخِلِ. خَرَجَ مُرْتَعِداً: «إنّها كَآلمَذْبوحِ». وهُرِعُ بَعْضُ النِّساءِ إلى الداخِلُ: «يا أللَّهُ!! هاتوا سَيّارةً». جاءَتِ السَّيّارَةُ لتَتَوَجَّهَ بِآلعَروسِ إلى المُسْتَشْفى. «مَزَّقَها»، تَهْمِسُ النِّساءُ في شَبَقٍ خَفِيٍّ. «دريج حِصانٌ آبْنُ حِصانٍ». ولَمْ يَطُلِ آلأمْرُ بدريج مَعَ عَروسِه بَعْدَ ذلِكَ. سِتّةَ أشْهُرٍ فَقَطْ، وعادَتْ أُخْتُ أمينِ إلى بَيْتِ أبيها، والسِّرُّ عِنْدَ آللَّهِ. أمّا أمينٌ فَيَضْحَكُ. «أخَذوا أخاكَ الأكْبَرَ إلى السِّجْنِ»، ويَضْحَكُ. «هَجَمَ أخوكَ لَيْلاً على جارَتِهِ آلبَدَوِيَّةِ آلمَوْشومَةِ»، ويَضْحَكُ. «كانَ عَشيقَها لفَتْرَةٍ طَويلَةٍ، فلِماذا صَرَخَتْ تِلْكَ آللَّيْلَةَ؟»، ويَضْحَكُ. «أخوكَ آلمُتَأنِّقُ، آلَّذي لا يُسَلِّمُ عَلى أحَدٍ، كأنَّهُ مِن عالَمٍ آخَرَ. أخوكَ آلمُتَرَفِّعُ آلَّذي تَصْحَبُهُ حَقيبَتُهُ دائِماً. أخوكَ آلَّذي آخْتَلَسَ ألْفَ ليرةٍ من صُنْدوقِ عَمَلِهِ، يَدْخُلُ السِّجْنَ لِلْمَرَّةِ الثّانيَةِ»، ويَضْحَكُ. «أخوكَ... أخوكَ» ويَضْحَكُ أمينٌ. يا لَلآلِهَةِ. وَلْتَحْرُسِ آلحِجارَةُ حَقْلَ حجي كِفْر.

النَّفير الثّاني

لَيْسَ سُقوطَ حُكومَةٍ ما نَراهُ؛ لا، لَيْسَ صُعودَ حُكومَةٍ. بَلِ آلبَدْوُ يَهْجُمونَ عَلى سينما شَهْرَزاد. كانَ آلبَدْوُ يَقْتَحِمونَ آلمَدينَةَ مِن كُلِّ آلجِهاتِ. بَدْوٌ راجِلونَ، وَبَدْوٌ في عَرَباتٍ تَجُرُّها آلبِغالُ، وَبَدْوٌ عَلى آلحَميرِ، وَبَدْوٌ في شاحِناتٍ كَبيرَةٍ. بَدْوٌ إذْ يَنْفُضونَ آلغُبارَ عن ثِيابِهِمْ تَعْلو غَيْمَةٌ صَفْراءُ عَلى طولِ الطُّرُقِ وَعَرْضِها، وَلَرُبَّما غَطَّتِ آلمَدينَةَ لِيَوْمَيْنِ. مُعْظَمُهُم حُفاةٌ، وَآخَرونَ يَرْتَدونَ نِعالاً مِن مَطّاطٍ، مَشْدودَةً إلى سيقانِهِم بِخُيوطِ آلقِنَّبِ. يَفِدُونَ فَوْجاً فَوْجاً، ويَقْتَعِدونَ آلأرْصِفَةَ، أو يَفْتَرِشونَها، وَكُلُّ خَمْسَةٍ، أَوْ أَكْثَرُ، يَتَوَزَّعونَ آلبَطّيخَ آلمُهَشَّمَ بِآلأيْدي، حَيْثُ تَسيلُ آلعُصارَةُ آلحَمْراءُ على ذُقونِهِمْ وَصُدورِهِم، وإذْ يَنْتَهونَ يَمْسَحونَ أفْواهَهُم بِأرْدانِ دَشْداشاتِهِم، ثُمَّ يَتَجَشَّؤونَ ويَسْتَلْقونَ.

في آلفصلِ الرّابعِ مِنَ السَّنَةِ، حينَ تَتَهَدَّلُ السَّماءُ كَأثْداءِ

ٱلكَلْبَةِ ٱلمُرْضِعِ، وَتَغْلي الظِّلالُ، تَفْتَحُ دارُ السّينَما الصَّيفيَّةِ أبْوابَها ـ سينَما شَهْرَزاد، ذاتِ ٱلمَقاعِدِ الخَشَبِيَّةِ الطَّويلَةِ، ٱلمُبْتَلَّةِ أبداً بٱلماءِ ٱلَّذي يَرُشّونَه عَلى أرضِيَّتِها، عَصْراً، للتَّخْفيفِ مِنْ وَهْجِ ٱلإِسْمَنْتِ. سينَما شَهْرَزاد ٱلَّتي نَسْتَطيعُ أنْ نُشاهِدَ عُروضَها مِنَ التِّلالِ ٱلواقِعَةِ في شِمالِ ٱلمَدينةِ. وَكانَ ٱلبَدْوُ يَصْعَدونَ تِلْكَ التِّلالَ أيْضاً، بَيْنَ ٱلعَرْضِ وَٱلعَرْضِ، في ٱنْتِظارِ دَوْرِهِم لِلدُّخولِ إلى فيلم عَنْتَرَةَ بْنِ شَدّادٍ، ٱلَّذي ٱسْتَمَرَّ عَرْضُهُ صَيْفاً كامِلاً، وَبَعْضاً مِنْ أيّامِ ٱلخَريفِ.

البَدْوُ في كُلِّ مَكانٍ، وَلِلرَّصيفِ الَّذي يُفْضي إلى السّينَما حَظُّهُ الأوْفَرُ مِنْهُم. يَأْتونَ في الصَّباحاتِ وَيَنْتَظِرونَ حتّى ٱلمَساءِ، حَيْثُ تَسْتَقْبِلُ السّينَما ٱلَّتي لا سَقْفَ لها أوَّلَ الدّاخِلينَ. وإذْ يَخْرُجونَ يَنامونَ عَلى ٱلأرْصِفَةِ، ليَمْضوا في الصَّباحِ إلى قُراهُمُ ٱلبَعيدةِ. لا نَعْرِفُ مَنْ دَلَّهُم على هَذا ٱلفيلم، لكِنَّهُم أتَوْا. وَمِنْهُم مَنْ شاهَدَه عَشْرَ مَرّاتٍ. كانوا مَبْهورينَ بعَنْتَرَةَ. يَصِلُ صُراخُهُم إلى أقْصى ٱلمَدينَةِ في لَحَظاتِ حَماسَتِهِمْ: «هاي هاي، ٱنْتَبِهْ يا عَنْتَرَة. هاي هاي، ٱنْتَبِهي يا عَبْلَة»، وَقَدْ يَسْتَلّونَ خَناجِرَهُمُ ٱلمُخَبَّأَةَ تَحتَ السُّتْراتِ،

كَأنَّهُم في طِرادٍ حَقيقيٍّ يُحاوِلونَ حَمْلَ جُزْءٍ من ثِقْلِ ٱلحُروبِ عَنْ كاهِلِ مَعْبودِهِمُ ٱلأسْوَدِ. لكنّ حُروباً صَغيرةً حَقيقيَّةً كانَتْ تَنْتَظِرُهُم، دائِماً، أمامَ بَوّابَةِ السّينَما، إذْ يَنْخَرِطُ النَّشّالونَ الصِّغارُ في جَمْهَراتِهِمْ، وَبَيْنَ ٱلحينِ وَٱلحينِ تَعْلو المَنْدَبَةُ: «سَرَقوني يا ااااي»، وَتَلْحَقُ ثُلَّةٌ مِنْهُم بشَخْصٍ راكِضٍ، سَرْعانَ ما يَخْتَفي في أزِقَّةِ سوقِ ٱلخُضارِ. غَيْرَ أنَّ نَشّالينَ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ كانوا يَنْصُبونَ لِهؤلاءِ السُّذَّجِ أحابيلَ مُرَّةً، وَهُم لاعِبو ٱلكُشْتُبانِ، وَٱلوَرَقاتِ الثَّلاثِ، وَيانَصيبِ ٱلعَشْرَةِ قُروشٍ. يَأْتونَ مع شُرَكائِهِم، فيُلاعِبُ بَعْضُهُم بَعْضاً في طَريقَةٍ تَجْعَلُ الرِّبْحَ سَهْلاً، أمامَ أعْيُنِ ٱلبَدْوِ، وَإذْ تَنْطَلي ٱللُّعْبَةُ عَلَيْهِم يَكونُ قَدْ فاتَ ٱلأوانُ. يَنوحونَ ويَنْدُبونَ، بَيْنَما يَنْسَلُّ أوْلادُ الكُشْتُبانات في هُدوءٍ، بَحْثاً عَنْ فَرائِسَ أُخْرى.

مَوْسِمُ ٱلبَدْوِ مَوْسِمُ يَقَظَةِ ٱلحِيَلِ وَٱلأحابيلِ. يَرْبُطُ ٱلأطْفالُ السَّكاكينَ إلى خُيوطٍ رَفيعةٍ، وَيُلْقونَ بها في طَريقِ ٱلبَدْوِ ثُمَّ يَخْتَبِئونَ، وإذْ يَنْحَني هَؤلاءِ لاَلْتِقاطِها يَجُرُّ ٱلأطْفالُ ٱلخُيوطَ فَيَرْكُضُ ٱلبَدْوُ وَراءَها. وَالصِّبْيَةُ الرّاشِدونَ يَدُلّونَهُم عَلى طَريقِ السّوقِ ٱلعُموميّةِ، فَتَنْتَهِبُهُمُ ٱلعاهِراتُ وَٱلقَوّادونَ. يَأْخُذونَ مِنْهم

ٱلأسْعارَ مُضاعَفَةً، وَقَدْ تَكْتَفي عاهِرَةٌ ما أنْ تُري ٱلبَدَويَّ فَخْذَها، أَوْ ثَدْيَها مُقابِلَ ما يَدْفَعُ. أو قَدْ يَكْتَفي ٱلبَدَوِيُّ بِبَعْضِ ٱلمُداعَباتِ الشَّفَهِيَّةِ، بَلْ يَكْتَفي آخَرونَ مِنْهم بُقبْلَةٍ، ويَنْتَهي ٱلأمْرُ. وَهُمْ يَعودونَ مِنَ السّوقِ ٱلعُموميَّةِ مُبْتَهِجينَ، عَلى أيَّةِ حالٍ. «يا لَلشِّفاه ٱلحَمراءِ والرِّقابِ ٱلبَضَّةِ»، وَٱلحَقُّ مَعَهُم، فَنِساؤُهُم لا يَغْتَسِلْنَ قَطُّ، داكناتُ ٱلجُلودِ، وَعَليهِنَّ طَبَقَةٌ مِنَ الصَّدَأِ في سَماكَةِ ثِيابِهِنَّ. «جوجو... آه جوجو»، يَلْفُظونَ ٱلأسْماءَ في بَهْجَةٍ تَعْدِلُ ٱكْتِشافَ كَوْكَبٍ؛ «زوزيكا». يا لَعَنْتَرَةَ ٱلعَبْسِيِّ.

ويَنْتَهي الصَّيْفُ وَالزِّحامُ عَلى أشُدِّهِ أمامَ دارِ السّينَما. تَأْتي ٱلغُيومُ ٱلأولى بِقطَراتِها وَٱلبَدْوُ لا يُغادِرونَ ٱلمَقاعِدَ ٱلخَشَبِيّةَ. يَنْهَمِرُ ٱلمَطَرُ فَيَجْلِسُ ٱلبَدْوُ تَحْتَ ٱلمَقاعِدِ. تُغْلِقُ السّينَما أبْوابَها وبَعْضُهُم يَنْتَظِرُ الدُّخولَ.

وَفي الصَّيْفِ الثّاني ٱفْتَتَحَتِ الدّارُ مَوْسِمَها بِالفيلمِ ذاتِه، لكِنَّ اللُّعْبَةَ لَمْ تَنْطَلِ عَلى ٱلبَدْوِ. كانوا يَخْرُجونَ وَيَهْتِفونَ بِالآخَرينَ: «شاخَ عَنْتَرَةُ يا إخْوانُ، هُوَ لا يَصْرُخُ جَيِّداً هذِهِ السَّنَةَ». وفِعْلاً، ٱنْفَضَّ ٱلبَدْوُ وَلَمْ يَرْجِعوا قَطُّ، فَٱسْتَبْدَلَتِ الدّارُ ٱلفيلمَ بفيلمٍ آخَرَ، في ٱلأُسبوعِ الثّاني مِنْ عَرْضِهِ.

كانَ في ٱلـمَدينَةِ دارانِ صَيْفِيَّتانِ. سينَما شَهْرَزاد، وَسينَما كربيس. أَغْلَقَتِ الثّانيةُ أبْوابَها نِهائِيّاً، حينَ شُيِّدَتِ ٱلعِماراتُ ٱللَّبِنِيَّةُ مِنْ حَوْلِها، إذْ كانَتْ شاشَتُها وَطيئَةً، يَسْتَطيعُ النّاسُ مُشاهَدَةَ عُروضِها مِنْ أيِّ ما سَطْحٍ. وقدْ عَمَدَ سُكّانُ ٱلبُيوتِ ٱلـمُقابِلَةِ لِلشّاشَةِ إلى تَأْجيرِ ٱلأسْطِحَةِ لِلصِّبْيَةِ مُقابِلَ قُروشٍ قَليلةٍ عَنْ كُلِّ عَرْضٍ، حتّى كادَتِ الصّالَةُ أنْ تَخْلُوَ إلّا مِنْ عَدَدٍ هَيِّنٍ. وقَدِ ٱنْتابَنا حُزْنٌ حَقيقِيٌّ عَلى سينَما كربيس، ذاتِ ٱلأرْضِيَّةِ ٱلحَصَويَّةِ، وَٱلكَراسي ٱلـمُنْفَصِلَةِ، حَيْثُ تَقْدِرُ أنْ تَأْخُذَ كُرْسِيَّكَ إلى أيِّ رُكْنٍ تَشاءُ، وَأنْ تَجْلِسَ بِالطَّريقَةِ ٱلَّتي تَشاءُ، وتَأْكُلَ حَبَّةً مِنَ ٱلبَطّيخِ غَيْرَ خائِفٍ مَنْ أحَدٍ.

لا بَدْوَ في ٱلـمَدينَةِ ٱلآنَ. لَمْ يَعُدْ مِنْ بدْوٍ، لاعِبو الكُشْتُبانِ لا يَسْتَدْرِجونَ إلّا ضَيْفاً طارِئاً. وأمامَ ٱلجَذْبِ ٱلـمُحْدِقِ يُغيرُ بَعْضُ هؤلاءِ عَلى أسْواقِ الصّاغَةِ قُرْبَ ٱلحَيِّ ٱليَهودِيِّ، لكِنَّهُم يَنْكَشِفونَ عاجِلاً، لا مِنْ دَليلٍ ثابِتٍ، أو وِشايةٍ، بَلْ مِنَ الرّائحَةِ ٱلَّتي تَعْلَقُ بأجْسادِهِم. فالشُّرْطَةُ تَجْمَعُ ٱلـمُشْتَبَهَ بِهِم. وتَشُمُّهُمْ فَقَطْ، وبَعْدَ ذلِكَ تَكُرُّ الاعْتِرافاتُ.

لا رائحةَ تُشْبِهُ رائحَةَ دكاكينِ ٱلعَطّارينَ في ٱلحَيِّ

آليَهوديِّ. مَزيجٌ من آلحِنَّةِ، والتَّوابِلِ، وَأزاهيرِ آلخاتونِ وَالأُقْحُوانِ آلمُجَفَّفَةِ، وَآلكُحْلِ الرَّطْبِ، والنِّشارَةِ، وَالسُّمّاقِ، وَالصَّنْدَلِ، وَآلمُرِّ، وآللُّبانِ، وعِرْقِ السّوسِ، والتَّمْرِ آلهِنْديِّ، وَآلعَنْبَرِ، وَكَفشِ آلعَجوزِ، ومَكاحِلَ مُطَيَّبَةٍ مِنْ عِظامِ آلهُدْهُدِ، وَدَقيقِ آلجفْيت آلأحْمَرِ آلَّذي يُلوِّنونَ بِهِ بُطونَ آلأكباشِ أوانَ السِّفادِ، وَصابونِ آلغارِ، وآلهَليونِ، والصَّعْتَرِ، وَحَجَرِ آلفُساءِ، وَدِبْسِ آلعِنَبِ، وَقُشورِ الرُّمّانِ، وَآلجِلْدِ، وَأَشْياءَ أُخْرى لا يَعْلَمُها إلّا آللَّهُ وَالنِّساءُ، إضافَةً إلى الضَّوْءِ آلغامِضِ لِلْخَوْفِ ـ خَوْفِنا مِنَ آلبُيوتِ آلمُتَراصَّةِ الرَّطْبَةِ، حَيْثُ نَسْمَعُ آلأنينَ آلأبَدِيَّ لِطِفْلٍ في سَريرِ آلإبَرِ، يَجْمَعُ آليَهودُ دَمَهُ مِنْ أجْلِ كَعْكَةِ آلفِصْحِ.

نَعَمْ. تَعْرِفُ الشُّرْطَةُ مَنْ مَرَّ بآلحَيِّ مِنْ رائِحَتِهِ. فَلْيَحذَرِ السّارِقونَ، وَلْتَدُمْ تِلْكَ الرّائِحَةُ آلَّتي تَحْرُسُ سوقَ الصّاغَةِ حينَ يَنامُ حَرَسُ آلمَدينَةِ. غَيْرَ أنَّنا لَسْنا سارقينَ لِنَخافَ الرّائِحَةَ، بَلْ قيلَ لَنا: آحْذَروا سَريرَ الإبَرِ فَتَمَلَّكَنا آلخَوْفُ مِنْ ظَلامِ آلحَيِّ ذاكَ، وَمِنْ رُطوبَةِ آلمَداخِلِ آلمُعْتِمَةِ لبيُوتٍ تَخافُ مِنّا.

فَلْنَهْدَأْ قَليلاً: كُلُّ فَتاةٍ تَجْمَعُ شَعْرَها في جَديلَةٍ واحِدَةٍ

تَتَدَلّى حتّى الرِّدْفَيْنِ. تِلْكَ هُنَّ ٱليَهودِيّاتُ. فَلْنَهْدأْ قَليلاً: جَميلاتٌ هُنَّ ولَعوباتٌ كَبَناتِ حارَةِ قَدّور بك، وَأجْمَلُهُنَّ بِنْتُ عزرا ٱلعَطّارِ، حَتّى لَيَكادُ يَكونُ شارِعُ بَيْتِها مَزاراً يَرْفَعُ ٱلمُراهِقونَ فيه بَراعِمَ فُحولَتِهِمُ ٱلعتيدَةِ، مِنْ دونِ أن تُفارِقَ زَوايا أفْواهِهِم لُفافاتٌ مُشْتَعِلَةٌ، كأنَّما يُنافِسونَ ٱلكِبارَ. آهِ بِنْتَ عزرا، فَهِمْنا تَرَفُّعَكِ فيما بَعْدُ. فَهِمْنا لِماذا كُنْتِ تَرُدِّينَنا - نَحْنُ الصِّبْيَةَ - بالهَدايا ٱلَّتي يُكَلِّفُنا ٱلمُراهِقونَ بِنَقْلِها. هذا يَبْعَثُ بِرِسالَةٍ، وَذاكَ بمنديلٍ مُعَطَّرٍ، وثالثٌ بِمِكْحَلَةٍ. فَهِمْنا كُلَّ ذلكَ حينَ هَرَبْتِ مَعَ برو آبْنِ عَمْشَه؛ هَرَبْتِ مَعَ ناضِجٍ فَحْلٍ، وَتَرَكْتِ هؤلاءِ ٱلمُهَرِّجينَ ذوي الثِّيابِ ٱلمُضْحِكَةِ حَيارى، يَنْظُرونَ بَراعِمَ فُحولَتِهِم تَتَفَتَّحُ، مِنْ شارِعٍ إلى شارِعٍ، في طَقْطَقَةٍ صاخِبَةٍ، مِنْ غَيْرِ أنْ تَلْتَفِتَ أُنْثى إلى ٱلأريجِ.

... وَما هَمَّ، سَتَظَلُّ ٱبْنَةُ عزرا في هَذِهِ ٱللاّمَدينَةِ على ٱلأقَلِّ، بَيْنَما ٱلأُخْرَياتُ يَمْضينَ أبْعَدَ. فَفي كُلِّ شَهْرٍ تَخْتَفي فَتاةٌ، بَلْ تَخْتَفي عائِلَةٌ بِأكْمَلِها. يَعْبُرونَ ٱلحُدودَ خِلْسَةً، أوْ تَواطُؤاً، إلى تُرْكيّا، وَمِنْ ثَمّ يَنْتَهي ٱلمَطافُ بِهِمْ في فِلسْطينَ. وَنَبْقى، نَحْنُ الصِّبْيَةَ حامِلي رَسائِلِ ٱلمُراهِقينَ، مَشْدودينَ إلى الشّارِعِ ذاتِهِ

ٱلَّذي يَبْدَأُ بسوقِ الدَّجاجِ، مُروراً بٱلكَنيسِ ٱليَهودِيِّ، وَٱنْتِهاءً بِسوقِ ٱلعَطّارينَ؛ مَشْدودينَ إلى الرّائِحَةِ، وَإلى شُرْطَةِ الرّائِحَةِ، وَإلى ٱلحَيِّ ٱلمُلاصِقِ لِلْحَيِّ ٱليَهودِيِّ شَرْقاً، حَيْثُ تَحُفُّ بِٱلبُيوتِ أسْوارٌ ضَيِّقَةٌ مِنْ مُكَعَّباتِ الرَّوْثِ ٱلمجفَّفِ. وَنَعْجَبُ حَقّاً، مِنْ هَنْدَسَةِ الرَّوْثِ هذِهِ. ففي ٱلحَيِّ ٱلغَرْبِيِّ أسْوارٌ مِنَ ٱلرَّوْثِ أَيْضاً، لكِنَّهُم يَصْنَعونَه دائِرِيّاً، مُسْتَخْدِمينَ إطارَ الغِرْبالِ كَقالِبٍ يَصُبّونَ فيه الرَّوْثَ ٱلمائِعَ، ثُمَّ يَتْرُكونَه حتّى يَجِفَّ. وَأسْطُواناتُ الرَّوْثِ، هذِهِ، هِيَ وَقودُ الشِّتاءِ في ٱلمَدافِىءِ، وَوَقودُ التَّنّورِ في ٱلفُصولِ كُلِّها. لكنّ ٱلهَنْدَسَةَ التَّكْعيبيَّةَ ٱلَّتي يُمارِسُها سُكّانُ ٱلحَيِّ ٱلمُلاصِقِ لِلْحَيِّ ٱليَهوديّ تُدْهِشُنا: «الرَّوْثُ أجْمَلُ هُنا. مَحْظوظونَ هؤلاءِ بمُكَعَّباتِهِمْ». غَيْرَ أنَّ أضْخَمَ سورٍ مِنَ الرَّوْثِ، في هذِهِ ٱللاّمَدينَةِ، يَمْلِكُهُ يعقوبو مصارو. سورٌ يَسْتَديرُ مِنْ حَوْلِ ٱلبَيْتِ، في عُلُوٍّ ثَلاثَةِ أمْتارٍ صَيْفاً، ثُمّ يَخْتَفي في ٱلفُصولِ ٱلأُخرى، إذْ يَنْقُلونَهُ، بِرُمَّتِهِ إلى الدّاخِلِ. ولَمْ نَعْرِفْ حَتّى ٱلآنَ كَيْفَ يَتَّسِعُ مَنْزِلُ يعقوبو، بُغْرفَتِهِ ٱلوَحيدَةِ، للسّورِ كُلِّهِ، وَلَهُ، ولِزَوْجَتِه، وَلِٱبْنِهِ، ولِدَرّاجَتِهِ ذاتِ ٱلمَقْعَدِ وَالدَّواليبِ الثَّلاثَةِ، ٱلَّتي يَقودُها بيَدَيْهِ، لا بِرِجْلَيْهِ.

ويعقوبو مَشْلولٌ مُقْعَدٌ. نِصْفُهُ السُّفْليُّ ضامِرٌ بتَمامِهِ أو يَكادُ، وَكَذلِكَ لِسانُهُ ٱلَّذي لا يَنْطِقُ إلّا فَأْفَأَةً. غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ عَمَلِهِ قَطُّ. يَرْتَدي طَرْبوشَهُ ٱلأحْمَرَ ذا الشَّراريبِ، ويَرْتَدي سُتْرَةً فَوْقَ بِنْطالٍ لَهُ مُؤَخَّرَةٌ مِنَ ٱلمَطّاطِ السَّميكِ لِلزَّحْفِ، ثُمّ تَحْمِلُهُ زَوْجُهُ إلى دَرّاجَتِهِ، فَيَقودُها بيَدَيْهِ بوِساطَةِ مِقْوَدٍ ذي مِقْبَضَيْنِ.

شَحّاذٌ لَيْسَ كالشَّحّاذِ. حَسْبُهُ أنْ يَمُرَّ بأسْواقِ ٱلمَدينَةِ حتّى تَنْهالَ عَلَيْهِ ٱلقِطَعُ ٱلمَعْدِنيَّةُ. ذَقْنُهُ مُتَّكِئَةٌ على صَدْرِهِ، وَعَيْناه تَتَفَرَّسانِ ٱلعابرينَ في كَسَلٍ ساحِقٍ. وإذْ يَتْعَبُ مِنَ ٱلقِيادَةِ يَنْزِلُ عَنْ دَرّاجَتِهِ مُتَدَحْرِجاً، ثُمّ يَزْحَفُ على مُؤَخَّرَتِه ٱلمَطّاطِيَّةِ لِيَتَّكِيءَ بظَهْرِه إلى حائِطٍ ظَليلٍ. بَيْدَ أنَّ ٱبْنَهُ يُرافِقُهُ في مُعْظَمِ ٱلأحْيانِ إلى كَدِّهِ ٱليَوْمِيِّ، دافِعاً دَرّاجَةَ أبيهِ مِنْ أمامِهِ، لاهِثاً في ٱلمُرْتَفَعاتِ ٱلهَيِّنَةِ مِنَ الطُّرُقِ، مُسْتَريحاً في ٱلمُنْحَدَراتِ، إذْ تَجْري الدَّرّاجَةُ وَحْدَها. هذا دَأْبُهُما. ويَزْعُمُ الكَثيرونَ أنَّهُ يَحْتَفِظُ في أرْضيَّةِ بَيْتِهِ بِصَناديقَ مُقْفَلَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، غَيْر أنَّ لِلْمَزاعِمِ عَنْ عُضْوِه الضَّخْمِ مُبالَغاتُها الأكْثَرُ رَنيناً من ذَهَبِهِ ٱلخَبيءِ: «يَلُفُّهُ مَرَّتَيْنِ على وَسَطِهِ... مَرَّتَيْنِ». وَيَسْتَرْسِلونَ: «قَتَلَ زَوْجَتَهُ ٱلأولى. دَفَعَهُ في أسْفَلِها فَخَرَجَ مِنَ ٱلأعْلى». وهُمْ لا

يَشْرَحونَ الأمْرَ سَرْداً، بَلْ يُضيفونَ إليهِ رَغْوَةَ أعْماقِهِم، وَطَفَراتِ آلحَنينِ إلى آغْتِصابِ غامِرٍ. وإذْ نَسْأَلُ: «لِماذا لَمْ تَمُتْ زَوْجَتُهُ الثّانيَةُ؟» يُجيبونَ: «إنَّها تَعْقِدُ لَهُ عُقْدَةً فَوْقَ آلقَضيبِ لا تَسْمَحُ بدُخولِ أكْثَرَ مِمّا هُوَ مُرادٌ». هاي يعقوبو. نَمُرُّ ببَيْتِهِ آلمُنْعزِلِ في شِمالِ آلمَدينَةِ، وَنَهْتِفُ: «هاي يعقوبو مصارو. عَلِّقْ عُضْوَكَ إلى السَّقْفِ يعقوبو»، فَتَخْرُجُ آمْرَأَتُهُ وَهِيَ تُمْطِرُنا بِوابِلٍ مِنَ الشَّتائِمِ. نَبْتَعِد عَنْها قَليلاً، وَنَرفَعُ خَيْزُراناتِنا في آلهَواءِ: «أيُّها أطْوَلُ يا زَوْجَةَ يعقوبو، عُضْوُهُ أمِ آلخَيْزُراناتُ؟»، فيَنْتابُها آلجُنونُ: «أَدْخِلُوها في أمَّهاتِكُمْ». وخَيْزُراناتُنا خَيْزُراناتُ حَرْبٍ، تُواكِبُنا إلى آلحُقولِ آلقَريبَةِ، حَيْثُ يَرْتَفِعُ نَوْعٌ مِنْ آلأرضي شَوْكي، مِقْدارَ مِتْرٍ، عَلى أسواقٍ نَحيلَةٍ. نَضْرِبُ رُؤوسَها فَتَتَطايَرُ. نَضْرِبُ حتّى آلإعْياءِ، وَحَتّى تَسْتَحيلَ آلخَيْزُراناتُ خَضْراءَ مِنْ عُصارَةِ النَّباتِ آلقَتيلِ. هذا لَهْوُنا، غَيْرَ أنَّ لِزَوْجاتِ الفُقَراءِ، وَبناتِهِمْ، لَهْواً مِنْ نَوْعٍ آخَرَ في آلحُقولِ ذاتِها آلَّتي تَشْهَدُ حُروبَنا، ومِنْهُنَّ - بِالطَّبْعِ - زَوْجَةُ يعقوبو.

إنّهُنّ يَتْبَعْنَ آلبَقَرَ شِبْراً شِبْراً، حامِلاتٍ صَفائِحَ فارِغَةً، أوْ أكْياساً من آلخَيْشِ، يَجْمَعْنَ فيها الرَّوْثَ. يُسْرِعْنَ حيناً، ويُبْطِئْنَ

حيناً، يَتَصادَمْنَ إذْ يَنْحنينَ، في ٱللَّحْظَةِ ذاتِها، عَلى كُراتٍ سَقَطَتْ تَوّاً مِنْ مُؤَخَّرَةِ بَقَرَةٍ. فإنْ كَنَّسْنَ بِأيْديهِنَّ الحَقْلَ كُلَّه ٱنْتَظَرْنَ، وَهُنَّ يُسْنِدْنَ الصَّفائِحَ إلى مُؤَخَّراتِ ٱلحَيَواناتِ، ولَرُبَّما مَضَتْ ساعَةٌ على حالِهِنَّ تِلْكَ قَبْلَ أنْ تَجودَ بَقَرَةٌ بحَفْنَةٍ مِنَ ٱلعَجينةِ الدّاكِنَةِ، وَٱلأمْرُ لا يَنْتَهي دائِماً بعَوْدَتِهِنَّ ضاحِكاتٍ مِثْلَما ذَهَبْنَ، فَقَدْ يُنْشِبْنَ أصابِعَهُنَّ ٱلمُحَنّاةَ بعُصارَةِ الرَّوْثِ بَعْضُهُنَّ في شُعورِ بَعْضٍ. هذِهِ تَتَّهِمُ تِلْكَ بمُغافَلَتِها، وَهيْكَ تَتَّهِمُ تِيْكَ بِالسَّرِقَةِ، وذِنْكَ تَتَّهِمُ تِنْكَ بِوَضْعِ حَصىً في صَفيحَتِها... إلى آخِرِه. وقَدْ تَرْفُسُ إحداهُنَّ صَفيحَةَ ٱلأُخْرى، أو تُفْرِغُ كيسَ ٱلخَيْشِ على بِكْرَتِهِ... إلى آخِرِهِ، أَوْ يَتَشاتَمْنَ في طَريقِ ٱلعَوْدَةِ، ومَنْ لا يَسْمَعُهُنَّ لَنْ يَشُكَّ في أنَّهُنَّ يَتجاذَبْنَ ٱلحَديثَ، لا الشَّتائِمَ... إلى آخِرِه.

لَهْوٌ كَلَهْوِ ساكني ٱلعَراءِ الأوَّلِ. جِراءٌ، وفِراخٌ تَنْقُرُ ٱلفِراخَ تَحْتَ ٱلقِشْرَةِ ٱلقاسِيَةِ لِلأبَدِ السّاكِنِ، وما مِنْ أحَدٍ يَحْفِلُ بٱلوَقْتِ إلّا الدِّيَكَةُ. ومَعَ أوَّلِ صِياحٍ بارِدٍ تَنْهَضُ زَوْجَةُ شيخموس، ٱبْنِ طمبورقان. تَحْمِلُ صَفيحَتَها وَتَمْضي. غَيْرَ أنَّها لا تَتَّجِهُ إلى ٱلحُقولِ الشِّماليَّةِ لِجَمْعِ الرَّوْثِ، بَلْ تُوغِلُ جُنوباً

حَتّى تُخومِ قَرْيَةِ حلكو، حَيْثُ مُسْتَنْقعاتُ ٱلقَصَبِ ٱلمُحيطَةُ بِالنَّهْرِ، وَأَسْرابُ ٱلجَواميسِ كَأَنَّها ٱنْحَدَرَتْ تَوّاً مِنْ سَفْحِ حُلْمٍ وَحْشِيٍّ لَيْسَ فيه غَيْرُ وَقْعِ ٱلحَوافِرِ، وصَرَخاتُ حَيَوانٍ فَقَدَ وَليدَهُ. ومَعَ الصِّياحِ ٱلبارِدِ، أَيْضاً، يَتْبَعُها شَبَحٌ، مُتَسَتِّراً بأخاديدِ ٱلأَرْضِ الطَّويلَةِ هُناكَ، ثُمّ يَلْتقيانِ وَسَطَ حَقْلٍ ويَخْتَفِيانِ.

مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ لشيخموس زَوْجَةً؟ إنَّه صَبِيٌّ مِثْلُنا، وقَدْ دَرَجَتْ عاداتٌ عَلى عَقْدِ خُطوبَةِ صَبِيٍّ على صَبِيَّةٍ في ذلِكَ ٱلعُمْرِ، لكِنَّ الزَّواجَ لا يَتِمُّ إلّا بَعْدَ ٱلبُلوغِ. غَيْرَ أَنَّ شيخموس تَزَوَّجَ، وَأَنْجَبَ ٱبْنَةً... يا أَللَّهُ. كُلُّنا نَعْرِفُ ٱبْنَةَ مَنْ هِيَ، إلّا شيخموس . إنّه يَنامُ في فِراشِ زَوْجَتِهِ، ويَظُنُّ ٱلأَمْرَ كافِياً لإِنْجابِ طِفْلٍ... يا أَللَّهُ. «أرِنا عُضْوَكَ شيخموس»، نَقولُ له فَيَكادُ يَبْكي. «لَوْ وَضَعْتَهُ في أُذُنِ زَوْجَتِكَ ما أَحَسَّتْ بِهِ» نُضيفُ، ومَعَ ذلك لا يَعْتَورُهُ شَكٌّ في دَمِ ٱبْنَتِهِ.

لا بَأْسَ. في ٱللَّيْلَةِ ٱلأولى لِزَواجِ شيخموس دَخَلَ عَلَيهِ والِدُهُ ووالدَتُهُ. قالا له: «أُخْرُجْ حتّى نَسْتَدْعيكَ، فٱلعَروسُ في حاجَةٍ إلى بَعْضِ ٱلإرشاداتِ». خَرَجَ شيخموس وأَوْصَدَ وَراءَهُ ٱلبابَ. سَأَلَهُ المُحْتَفِلونَ خارجاً: «ما بِكَ؟». أجابَ: «يُسَوِّيانَ ٱلأَمْرَ مَعَ

آلعروسِ، وَيُعَلِّمانِها». وفي آللَّحظاتِ آلَّتي باتَ يَرُدُّ فيها على آسْتِفْساراتِ الآخَرينَ، كانَتْ أُمُّهُ تَحْشُرُ مِنْديلاً في فَمِ آلعَروسِ، وَتُمْسِكُ بيَدَيْها، بَيْنَما يُعَرّيها والِدُهُ في نِصْفِها آلأسْفَلِ، وَيَخْتَرِقُها حتّى أحْشائِها. لَقَدِ آنْتَقَمَ آلوالدانِ مِنْ والدِ آلعَروسِ آلمَدِينِ لَهُما، وَآلَّذي لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَدْفَعَ إلّا آبْنَتَهُ كَجُزْءٍ مِنَ الدَّيْنِ. وحينَ خَرَجا نادياه: «أُدْخُلِ آلآنَ»، فَدَخَلَ إلى ظَلامِ آلغُرْفَةِ، مُتَلَمِّساً آلفِراشَ، ثُمّ نامَ إلى جِوارِها حتّى الصَّباحِ، مُتَقَلِّباً بِجلبابِه فَوْقَ بِرْكَةِ الدَّمِ.

الكُلُّ يَعْرِفونَ، إذاً، إلّا شيْخموس. والزَّوْجَةُ تَنْتَقِمُ عَلى طَريقَتِها. فآلَّتي تُنْجِبُ مَرَّةً تَسْتَطيعُ أنْ تُنْجِبَ مَرّاتٍ. وَفي مَدى ثَلاثِ سِنينَ، بَعْدَ ذلِكَ، كانَ طِفْلانِ آخرانِ يَعْبَثانِ بهُدوءِ آلبَيْتِ، وَآلكُلُّ يَعْرِفونَ طِفْلا مَنْ هُما، إلّا شيخموس. لكِنَّهُما ليَسْا مِنْ صُلْبِ أبيهِ كالطِّفْلِ آلأوّلِ، بَلْ مِنْ صُلْبِ الشَّبَحِ آلَّذي يَتْبَعُ الزَّوْجَةَ إلى تُخومِ حلكو، وما مِنْ شاهِدٍ غَيْرُ الجَواميسِ.

إذَنْ، تَنْهَضُ زَوْجَةُ شيخموس مَعَ الصِّياحِ آلبارِدِ للدِّيَكَةِ، وَتَمْضي حامِلَةً صَفيحَتَها. وَعَلى مَقْرُبَةٍ مِنَ آلمُسْتَنْقَعاتِ، حَيْثُ

يَنْسَدِلُ حِجابٌ كَثيفٌ مِنَ السَّنابِلِ، يُدْرِكُها الشَّبَحُ. وَهُوَ عَجولٌ لاهِثٌ، يَرْفَعُها بَيْنَ يَدَيْهِ كِطِفْلةٍ، ثُمّ يَنْحَني آنْحِناءَةَ آلْمُقْتَدِرِ، فتُكَلِّلُ آلْمَرْأةُ آنْحِناءَتَهُ بِبَراعِمِ آلعَرَقِ، وتُطَوِّقُهُ كَما يُطَوِّقُ آلكَشّافُ الصّارِيَةَ بساقَيْهِ، مُسْتَشْرِفاً آلْمَدى آلأبْعَدَ في حُلُمِ آلبَحْرِ. وإمّا آنْتَهَيا من كَشْفٍ عادا إلى آلبَحْثِ عَنْ كَشْفٍ. شَبَحٌ وآمْرَأةٌ، وسَنابِلُ يَقْظى كآلْحَرَسِ فَوْقَ كَنْزِ آلْجَسَدَيْنِ، غَيْرَ أنَّ السّاعاتِ آلأولى لِلصَّباحِ تُشَرِّدُ الشَّبَحَ، فيَعودُ أدْراجَهُ ـ كَما جاءَ ـ مُتَسَتِّراً بأخاديدِ آلأرْضِ. أمّا آلْمَرْأةُ فَتَبْدَأُ حَصادَها بَيْنَ سِرْبٍ مِنَ النِّساءِ سَبَقْنَها إلى آلْمُسْتَنْقَعِ، حَيْثُ يَرْفَعْنَ، جَميعاً، أثْوابَهُنَّ حتّى آلْخُصورِ، ويَخُضْنَ آلْماءَ الأخْضَرَ آلَّذي تَطْفو مِنْ فَوْقِهِ كُراتٌ مُلْتَمِعَةٌ مِنْ رَوْثِ آلْجَواميسِ.

.... يا لَلْمُسْتَنْقَعِ آلْجَميلِ. كُنّا نَأْتيهِ في السَّنواتِ آلأولى لِتَفَتُّحِ خَمائِرِنا. نَسْتَلْقي على عُشْبِ الرّابِيَةِ مُتَلَصِّصينَ على حاصِداتِ الرَّوْثِ. ومُعْظَمُهُنَّ صَبايا، تَلْتَمِعُ أفْخاذُهُنَّ في آلْماءِ كَقَهْقَهةٍ أطْلَقَتْها النِّعْمَةُ. لكِنَّ الرِّياضِيّينَ، آلَّذينَ يَسْتَعْرِضونَ أجْسادَهُم في قُمْصانِهِمُ آلْمَفْتوحَةِ، شَتَّتوا آلْحاصِداتِ بِتَرَدُّدِهِم على آلْمَكانِ.

جاءَ واحِدٌ مِنْهُم مُصادَفَةً، ثُمّ جاءَ آثْنانِ، ثُمّ تَكاثَروا: أجْلافٌ. كُلُّ رِياضِيٍّ، هُنا، جِلْفٌ بالضَّرورَةِ. لا يَفْقَهونَ أيَّ جانِبٍ صِحِّيٍّ في تَدْريباتِهِمْ، ولا يَدْخُلونَ نادِياً إلّا شَغَفاً بِآلعِراكِ. هكَذا هُم، هكَذا هُوَ الشِّمالُ.

كانوا، في بادِىءِ آلأمْرِ، لا يَقْتَرِبونَ مِنَ آلـمُسْتَنقَعِ، بَلْ يَبْقَونَ عَلى مَبْعَدَةِ مائَتَيْ مِتْرٍ، يَسْبَحونَ في النَّهْرِ، ويَسْتَعْرِضُ بَعْضُهم بَعْضاً، ثُمّ تَدِبُّ فيهِمُ آلحَمِيَّة فيَتَصارعَونَ، وُدِّياً، وما تَلْبَثُ آلـمُصارَعَةُ آلوُدِّيَّةُ أنْ تَتَحَوَّلَ إلى لَكَماتٍ، ورَكْلٍ، وَطَقْطَقِة عِظامٍ. كانوا يَظُنّونَ أنَّهُمْ يَلْفِتونَ آنْتِباهَ حاصِداتِ الرَّوْثِ إليْهِم، لكِنَّهُنَّ لَمْ يَأْبَهْنَ قَطُّ. فَأَمْعنوا آقْتِراباً. جالِبينَ مَعَهُمْ كُراتٍ يَقْذِفونَها، قَصْداً، صَوْبَ آلـمُسْتَنْقَعِ، ثُمّ يَرْكُضونَ لِآلتقاطِها، وَهذا ما أَجْفَلَهنَّ تَماماً، فَنَأيْنَ إلى أماكِنَ أُخرى، أو بدَّلْنَ أوْقاتَ حَصادِهِنَّ.

أجْلافٌ. ونَحْنُ مُعْجَبونَ بِهِمْ، مُعْجَبونَ بِالشَّرِّ آلـمُتَفَتِّحِ بَيْنَ آلعَضَلِ. وَفي اللّامَدينَةِ هذِهِ نادِيانِ لتَخْريجِ أباطِرَةِ الشّارِعِ وَقَبَضاياتِه: «نادي إسكندر نيسانه»، و«نادي آلحَلَبي»، آلَّذي يُشْرِفُ عَلَيْه ڤورا سَليلُ النَّوَرِ. وقَدِ آسْتَفْحَل العَداءُ بَيْنَ رِياضِيّي

النّادِيَيْنِ، حينَ حاوَلَ كُلُّ طَرَفٍ الاَسْتِئْثارَ بِحَنّا اَللّوطيِّ. وحنّا في اَلعِقْدِ الرّابِعِ، ماسِحُ أَحْذيَةٍ مِنْ نَوْعٍ خاصٍّ، ما تَكادُ تَضَعُ قَدَمَكَ على صُنْدوقِهِ حتّى يُبادرُكَ بإشارَةٍ مُقْتَضَبَةٍ مِنْ تَحْتِ قُبَّعَتِهِ اَلأمْريكيَّةِ: «أَهُوَ كَبيرٌ، يا هُوْ؟». وجُمْلَتُه هذِهِ، مَدارُ سُخْرِيَةٍ عَلى أَلْسِنَةِ الصِّبْيَةِ حيـنَ يَمُرُّونَ بهِ: «حنّا... كَبير يا هُوْ». «حنّا... هذا عُضْوُه كَبيرٌ يا هُوْ»، ويَتَوَقَّفُ حَنّا مُنْتَظِراً أنْ يَفُكَّ أحَدٌ ما أزْرارَ بِنْطالِه، فهو يَتَمَتَّعُ بآسْتِعدادٍ أبَدِيٍّ لِأَنْ يُعَرِّيَ مُؤَخَّرَتَه لأيٍّ كانَ، وفي أقْرَبِ زاويةٍ أو حَقْلٍ، وَهُوَ عَلى آسْتِعْدادٍ لأنْ يُكافِئَ مُقابِلَ ذلِكَ، فَيَمْسَحَ حِذاءَكَ مَجّاناً مَدى شَهْرَيْن.

لَقَدِ آتَّفَقَ بَعْضُ الرِّياضِيّينَ من نادي آلحَلَبي على موعِدٍ مَعَهُ، فآلْتَقَوْهُ قُرْبَ سورِ آلمَلْعَبِ البَلَدِيِّ آلَّذي يُطِلُّ جُنوباً على مَقْبَرَةِ السُّرْيانِ. وَآلمَكانُ مُنْعَزِلٌ هُناكَ. خالٍ مِنَ آلبُيوتِ. وفي آلمَوْعِدِ آلمُحَدَّدِ لِلِّقاءِ داهَمَهُمْ بَعْضُ رِياضِيّي نادي إسكندر نيسانه، وَعَلا آلجِدالُ. هؤلاءِ يُريدونَ الدَّوْرَ أوَّلاً، وَأولئكَ يُريدون الدَّوْرَ أوَّلاً. وكانَ في وُدِّ حَنّا إقناعُهُم أنَّهُ قادرٌ على تَلْبِيَتِهِمْ جَميعاً، لكِنَّهُم أنانيّونَ. يا لَحنّا، يا لَلْخاسِرِ آلأَوْحَدِ:

ارْتَفَعَتِ ٱلقَبَضاتُ الصَّلْبَةُ وصَرَّتِ ٱلأسْنانُ. سَقَطَ ٱلبَعْضُ تَحْتَ ٱلأرْجُلِ، وٱرْتَفَعَ آخَرونَ في ٱلهَواءِ. وحْدَهُ حَنّا يَرْكُضُ مِن جِهَةٍ إلى جِهَةٍ مُتَوَسِّلاً: «كفى يا هُوْ. أنا لَكُمْ يا هُوْ». وَلَمْ يَتَفَرَّقوا إلّا بَعْدَما نالَهُمُ التَّعَبُ، وَأرْهَقَتْهُمُ الرُّضُوضُ. «سَتَرَوْنَ» قالَ أولئِكَ لِهؤلاءِ. «سَتَرَوْنَ» قالَ هؤلاءِ لأولئِكَ. وبَقِيَ ماسِحُ ٱلأحْذِيَةِ ٱلَّذي لا يَرى مِنَ ٱلأَرْضِ إلّا ما يُشْبِهُ قَضيباً أو خِصْيَةً.

ولا يُشْبِهُ حنّا، في سُهولَةِ النَّيلِ، إلّا بَناتُ أبي سامي، حَفّارِ ٱلمَجاريرِ. أعْطِهِنَّ نِصْفَ ليرةٍ، أو رُبْعَ ليرَةٍ، أو تُفّاحَةً، أو سُكَّرَةً، وسيُدْخِلْنَك إلى بَيْتِهِنّ حالَما يُغادِرُ ٱلأبُ إلى مَجاريرِه، وَٱلأُمُّ إلى بَيْعِ مَكانِسِ ٱلقَشِّ بَيْنَ ٱلحاراتِ.

ثَلاثُ بَناتٍ. كُبْراهُنَّ في الثّالِثةَ عَشْرَةَ. وَبالرُّغْمِ مِنْ صِغَرِنا كانَ ٱلأمْرُ مُمْتِعاً حَقّاً. وفي مُكْنَةِ ٱلواحِدِ مِنّا أنْ يَظْفَرَ بِالثَّلاثِ مَعاً. يُعَرّي نِصْفَهُنَّ السُّفْلِيَّ ويَلْتَصِقُ بِهِنّ بلا حِراكٍ. نِصْفَ ساعَةٍ. ساعَةً كامِلَةً. ساعَتَيْنِ. الحَبْلُ على ٱلغارِبِ ما دامَتْ ٱلأُمورُ على هذا النَّحْوِ. لكِنَّهُنَّ - إذْ كَبِرْن قَليلاً - صِرْنَ يَتَمَنَّعْنَ عَلَيْنا... فَلْتَغْضَبِ ٱلمَجاريرُ عَلَيْهِنَّ إذن ولْتَحْتَرِقْ مَكانِسُ القَشِّ.

«لَنْ نَسْكُتَ على ٱلأمْرِ يا مَراحيضُ»، قُلْنا لَهُنَّ، فَلَمْ يَأْبَهْنَ لِوَعيدِنا. إسْتَدْرَجْنا ٱبْنَ بيري الأكْثَرَ رَشاقَةً في السَّرِقةِ، مُتَوَعِّدينَه بكَشْفِ ما نعْرِفُ من غزَواتِهِ، ومُؤَمِّلينَهُ بِكيسٍ مِنْ كُراتِ ٱللَّعِبِ الزُّجاجِيَّةِ، مُقابِلَ أنْ يَسْرِقَ دَجاجَتَيْ أبي سامي. وقَدْ سَرَقَهُما فِعْلاً. فَنَتَفْنا ريشَهُما وَراءَ ٱلبُيوتِ، وأخَذْناهُما إلى فُرْنِ مرادو، حَيْثُ أقَمْنا وَليمَةً دَسمَةً مِنَ اللَّحْمِ المَشْوِيِّ، في صاجٍ مُخَصَّصٍ لصُنْعِ الكَعْكِ.

أوِ ٱبْنَ بيري. يَدْخُلُ سِجْنَ ٱلأحْداثِ بِضْعَةَ أيّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ. والدُهُ عَتّالُ قَمْحٍ، وأُمّهُ مُتَفَرِّغَةٌ لِرَسْمِ ٱلخِطَطِ لآبْنِها، وتَحْميهِ إذا ٱتَّهَمَهُ أحَدٌ. بَذيئةٌ، وَقَبْقابُها في يَدِها أبَداً. آوِ ٱبنَ بيري. يَسْرِقُ أباريقَ ٱلوُضوءِ مِنَ ٱلمَسْجِدِ، وَأحْذِيَةَ المُصَلّينَ، يَسْرِقُ دِلاءَ ٱلآبارِ، وَالدَّجاجَ، وَٱلبَطّيخَ مِنَ ٱلعَرَباتِ. يَسْرِقُ الدَّرّاجاتِ، وَٱلحُقولَ، وَإسْفَلْتَ الطُّرُقِ، وَالتُّرابَ، وَٱلهَواءَ. أشْقَرُ، لا يَعْرِفُ أحَدٌ مِنْ أيْنَ جاءَ بشُقْرَتِه، بَلْ نَزْعُمُ أنَّه سَرَقَ ذَلِكَ اللَّوْنَ مِنْ عابِرٍ ما. لا يُخالِطُنا إلّا لِماماً. مَهمومٌ لأنَّ ٱللَّهَ لَمْ يُعْطِهِ مائَةَ يَدٍ. مَهمومٌ إذْ يَرى ٱلكَوْنَ غَيْرَ قابِلٍ للسَّرِقَةِ دُفْعَةً واحِدَةً. لكِنَّهُ مَلْجأُنا إذْ تَضيقُ سُبُلُ ٱلحُصولِ عَلى تَذْكَرَةٍ

للسّينَما، أو يَنْفَدُ تَبْغُنا: «تَعال آبْنَ بيري» فَيَأْتي. نَحْنُ قُساةٌ مَعَهُ، وَطَبْعُه جَبانٌ بِرُغْمِ جَسارَتِهِ في السَّرِقَةِ. «ابن بيري... نَحْنُ مُفْلِسونَ»، ويَتَباكى: «وَآللَّهِ لا أمْلِكُ شَيْئاً». ونَحْتَدِمُ: «لا نُريدُ مِنْكَ نُقوداً يا آبْنَ آلهِرَّةِ. نَعْرِفُ أنَّ أُمَّكَ تَأْخُذُ مِنْكَ حتّى آخِرِ قرشٍ لتُخَبِّئَه في سِرْوالِها»، فَيَفْهَمُ قَصْدَنا، ويَرَدُّ مُتَباكِياً من جَديدٍ: «واللّهِ لَمْ أعُدْ أسْرِقُ. لَقَدْ تُبْتُ»، فَنَأْخُذُه مِنْ خِناقِه: «مَنْ سَرَقَ إبريقَ بَيْتِ حجّو؟ ها؟ آلبارحَةَ ضاعَ آلإبْريقُ، وَآلبارحَةَ آخْتَفى جَرَسُ بَقَرَةِ حسّو آلمحَلّمي... ها؟». وَيَذْرِفُ آبْنُ بيري دُموعاً بارِدَةً بقُدْرَةِ قادِرٍ، فلا نَتْرُكُهُ: «إسْمَعْ. الباحَةُ آلخَلْفِيَّةُ لمَحَطَّةِ إسّو مَلأى بصَفائِحِ آلبنْزينِ آلفارِغَةِ...»، ولا نُضْطَرُّ لإكْمالِ آلجُمْلَةِ، إذْ يَنْسابُ آبْنُ بيري أمامَنا خَفيفاً مُبْتَسِماً بقُدْرَةِ قادِرٍ، أيضاً. وحينَ نَصِلُ إلى مَقْرُبَةٍ مِنَ الشَّجَراتِ آلمُحيطةِ بمَحَطَّةِ إسّو، نوهِمُ مَنْ يَرانا أنَّنا نَتَصَيَّدُ آلعَصافيرَ بنُقَّيْفاتِنا، بَيْنَما يَصْعَدُ السّارِقُ آلأشْقَرُ إحْدى الشَّجَراتِ، ومِنْها إلى السّورِ، ثُمّ يُناوِلُنا الصَّفائِحَ واحِدَةً إثْر أُخْرى. وتَكْفينا خَمْسٌ مِنْها، نبيعُها لأصْحابِ مَحَطّاتٍ أُخْرى بنِصْفِ ليرةٍ لِلْواحِدَةِ، بَلْ بخَمْسَةٍ وسَبْعينَ قِرشاً أحياناً، وَآلْمَبْلَغُ

كافٍ لدُخولِ أرْبَعَةِ صِبْيَةٍ إلى السّينَما، ومَعَهُم عُلْبَةٌ من تَبْغِ «مرجان».

وَلِأنَّنا هكَذا. لأنّنا جُزْءٌ مِنْ لُهاثِ الشِّمالِ آلأبَدِيِّ، وأبْناءُ آباءٍ آنْحَسَرَتْ جِباهُهُمْ تَحْتَ مَطارِقِ آلحُكوماتِ فَلَمْ يَعودوا يَأْبَهونَ أنْ يَرَوْنا هكَذا؛ وَلِأنّنا، مِثْلَ آبائِنا أيْضاً، مَحْزومونَ حُزْمَةً واحِدَةً بحَبْلٍ مِنَ آلغَضَبِ عَلى لا أحَدٍ، بَلْ عَلَيْنا وعلى آللّاأحدِ، بَلْ عَلى آلغُيومِ وَآلحُقولِ وَالسَّنابِلِ آلّتي تَنْمو أمامَ أعْيُنِنا ثُمّ تَخْتَفي... لأنّنا هكَذا، يَتَرَفَّعُ عَلَيْنا آلمُوَظَّفونَ آلّذينَ تَنْتَدِبُهُمُ آلحُكوماتُ عَلى أُمورِ الشِّمالِ، ويَتَرَفَّعُ عَلَيْنا سُكّانُ آلمُدُنِ آلوافِدونَ عَلى هذِهِ آللّامَدينَةِ، آبْتِغاءَ التِّجارَةِ آلعابِرَةِ أو الدّائِمَةِ؛ فَآلمَكانُ خَصْبٌ إلّا عَلَيْنا. يَبْعثونَ بأوْلادِهِمْ إلى آلمَدارِسِ فَيَتَجَنَّبونَنا، ويَلْهونَ في زُمَرٍ مُنْفَرِدَةٍ. أوْلادٌ نَظيفونَ، يَحْمِلونَ في جُيوبِهِمْ مَناديلَ بَيْضاءَ. أوْلادٌ مِنْ ذَهَبٍ، يُحِبُّهُم آلمُديرُ وآلمُعَلِّمونَ، ويُحِبّونَ أُمَّهاتِهِمْ وَأخَواتِهِمُ النَّضِراتِ. يَبْعثونَ إلى آبائِهِم برَسائِلِ التَّقْديرِ عَنْ نَجابَةِ أبْنائِهِمْ، فَتَكونُ الرَّسائِلُ مَدْخَلاً إلى آلبُيوتِ النَّظيفَةِ، وَآلآبْتِساماتِ آلعائِلِيَّةِ الرَّطْبَةِ الشَّبِقَةِ. لكِنَّ مهدي درباس طائِرٌ خارِجَ سِرْبِهِ. ابْنُ مُساعِدٍ أوَّلَ

مَسؤولٍ عَنِ السِّجْنِ ٱلمَدَنيِّ، تَجري في عُروقِهِ دِماءٌ كُرْدِيَّةٌ لا تُفْصِحُ عَنْها ٱلعائِلَةُ ٱلَّتي تَتَكَلَّمُ ٱلعَرَبيَّةَ بِلُكْنَةِ ٱلمُدُنِ الكَبيرَةِ.

مَهْدي كَالسَّيْلِ. مَهْدي أُلْعوبَتُنا، كأنَّما نَنْتَقِمُ عَبْرَهُ مِنَ ٱلأَوْلادِ النَّظيفينَ جَميعاً. وبالرَّغْمِ من فَظاظَةِ صَداقَتِنا لا يُفارِقُنا قَطُّ. نُحِبُّهُ لأَنَّهُ مِثْلُنا، ونَحْقِدُ عَلَيْهِ لأَنَّهُ ٱبْنُ ٱمْرَأَةٍ أنيقَةٍ تَنْظُرُ إلينا مِنْ بابِها شَزْراً. وتُناديهِ كُلَّما رَأَتْهُ مَعَنا: «هؤُلاءِ بَجَمْ. أُدْخُلْ إلى ٱلبَيْت». ونَلْتَفِتُ إلى أُمِّه صارِخينَ: «لَمْ نَطْلُبْ مِنْهُ مُصاحَبَتَنا يا سَيِّدَة»، ثُمّ نُحَدِّجُ مَهْدي: «إذْهَبْ يا ٱبْنَ ٱلماما»، ونَعْرِفُ كَمْ يُؤْلِمُهُ ذلِكَ. غَيْرَ أنَّه يُحاوِلُ، مِراراً، أنْ يَكْسِبَ وُدَّنا، مُتَشَبِّهاً بِنا ـ ٱبْنُ ٱلمَدينَةِ ٱلغَضُّ ـ فَيَقْفِزُ مِنْ فَوْقِ سورٍ عالٍ، ويَلْعَبُ كُرَةَ ٱلقَدَمِ بحَجَرٍ، لا بِكُرَةِ مَطّاطٍ أو جِلْدٍ، مِثْلَنا، ويَرْجِعُ آخِرَ النَّهارِ مَشْرومَ الحِذاءِ فَتُعَنِّفُهُ أُمُّه.

لكنَّ مَهْدي رَضَخَ لقَطيعَتِنا آخِرَ ٱلأَمْرِ، ولَمْ تَكُنِ ٱلقَطيعَةُ نابِعَةً مِنّا، بَلْ مِنَ التَّهْديداتِ ٱلجادَّةِ ٱلَّتي مَلأَتْ والِدَتُهُ بِها بُيوتَنا.

فٱلأنيقَةُ تِلْكَ، زَوْجَةُ آمِرِ السِّجْنِ ٱلمَدَنيِّ، حينَ كَلَّتْ مِنْ تَقْريعِها لنا، وَمِنْ تَهْديدِها، قَصَدَتْ بُيوتَنا واحِداً واحِداً. قالَتْ

لأُمَّهاتِنا: «سَيَتَدَبَّرُ أبو مَهْدي أمْرَ أزْواجِكُنَّ»، وأُمَّهاتُنا يُجْفِلْنَ مِنْ ذِكْرِ ٱلعَسْكَرِ فَقالوا لنا: «أتُريدونَ أنْ نَذْهَبَ إلى السِّجْنِ؟» فَأجْفَلْنا: «لا»، لِيَذْهَبْ مَهْدي وأُمُّهُ إلى الشَّيْطانِ. وهكَذا ٱجْتَمَعَ مَجْلِسُنا ـ نَحْنُ الصِّبْيَةَ ـ تَحْتَ هاجِسِ أنْ نَرى آباءَنا ٱلمُتْعَبينَ تُعَنِّفُهُم الشُّرْطَةُ فَيَضْرِبونَ الشُّرْطَةَ حتّى تَتَطايَرَ قُبَّعاتُهُم. وَنَعْرِفُ ماذا يَعْني سُقوطُ قُبَّعَةِ الشُّرْطِيِّ: السَّجْنُ سَنَةً كامِلَةً... «لا» قُلْنا في مَجْلِسِنا، لا لِمَهْدي بَعْدَ ٱليَوْمِ. وَتَرَفَّقَتِ السَّماءُ بِمَهْدي ٱلخاسِرِ، إذِ ٱنْتَقَلَ والِدُهُ إلى سِجْنِ مَدينَةٍ أُخْرى، فَٱنْتَقَلَتِ ٱلعائِلَةُ كُلُّها.

كان حُزْنُنا على مَهْدي يَعْدِلُ حُزْنَنا على فِراقِ جعفرو ٱلأعْرَجِ، صاحِبِ سيجاراتٍ يَنيجِه بِعَشْرَةِ قُروشٍ. ماتَ مِنْ دونِ مُقدِّماتٍ. ٱرْتَفَعَ صَوْتُ قاسمو في مُكَبِّرِ ٱلمَسْجِدِ: «فَلْيَأْتِ ٱلمُؤْمِنونَ لِلصَّلاةِ عَلى جعفرو»، وَتَوافَدَ ٱلمُصَلّونَ. لَقَدْ غادَرَهُم كَما غادَرَنا، وَسَيَفْتَقِدونَ ذلِكَ ٱلَّذي يُصَلّي جالِساً وَسَطَ ٱلواقِفينَ، وَقَدِ ٱمْتَدَّتْ ساقُهُ ٱلمُتَصَلِّبَةُ أمامَهُ كَعَمودٍ خَشَبيٍّ.

ماتَ جعفرو. ماتَ مِنْ دونِ تاريخٍ وَراءَهُ أَوْ أمامَهُ. لَنْ يَعْرِفَكَ أحَدٌ جعفرو، وَلَيْسَ لَدَيْكَ مالٌ يُغْري بِٱلمَعْرِفَةِ.

لا نَسْلَ، لا نَسَبَ. عاديٌّ كالصِّنْفِ ٱلعادِيّ، وما مِنْ حادِثَةٍ في حياتِكَ تَجْعَلُ شَخْصاً ما يَهْتِفُ: «فَعَلَ جَعْفرو كَذا، أو كَذا»، لا. حتّى مَوْتُكَ لَيْسَ بِحادِثَةٍ. كَلَّفْتَهُمْ عَشْرَ دَقائِقَ لِلصَّلاةِ عَلَيْكَ، ثُمّ ٱنْفضّوا. وَضَعَكَ أَحَدُ أعْمامِ عزّو في عَرَبَةٍ يَقودُها بَغْلٌ كَسولٌ، وَلَمْ يَتْبَعِ ٱلعَرَبَةَ إلّا حَفّارٌ تَبَرَّعَ بِجُهْدِهِ لِلآخِرَةِ.

وَلِماذا لَمْ تُسَجِّلْ لِنَفْسِكَ حادِثَةً تُؤَجِّجُ ٱلمَديحَ، أوِ الشَّتْمَ، جعفرو؟ لِماذا لَمْ تَتَواطَأْ عَلى شَأْنِكَ ٱلعادِيِّ؟ كانَ في مُكْنَتِكَ أنْ تُحْرِقَ بَيْدَراً، أوْ تَغْتَصِبَ طِفْلَةً تَشْتَري مِنْكَ السَّكاكِرَ. كانَ في مُكْنَتِكَ أنْ تَتَّخِذَ الأتانَ زَوْجَةً، أنْتَ العَزَبُ، وأنْ تَشْتَرِيَ ثَوْراً فَحْلاً لِلإِخْصابِ. لَقَدْ مُتَّ الآنَ، وَبَقِيَ بابُ بَسْطَتِكَ مَفْتوحاً، يَحارُ ٱلجيرانُ أيُغْلِقونَهُ أمْ يَتْرُكونَهُ وَشَأْنَهُ.

ماتَ جعفرو. ماتَ أَيُّها ٱلكِلابُ. ماتَ، ماتَ ماتَ ماتَ مااااات.

... وغَداً يَموتُ ٱلآخَرونَ أيْضاً، تِباعاً أو مُجْتَمِعينَ، وَسَيَكونُ أَوَّلُهُم شاور ٱلكِلْدانيّ، ٱلجُثَّةَ ٱلواقِفَةَ أمامَ أبوابِ السّينَما، مُلْتَصِقَةَ الظَّهْرِ بِٱلبَطْنِ.

شاور، بَطَلُ يانصيب ٱلعَشْرَةِ قُروشٍ، يُقامِرُ على عُلْبَةِ لوكي،

أوْ كِنْتْ، مِنْ غَيْرِ أنْ يَرْبَحَها مِنْهُ أحَدٌ، إذْ لَيْسَ مِنْ رَقَمٍ رابِحٍ تَحْتَ آلبُقْعَةِ السَّوْداءِ. يَمْحوها. وَمَنْ يَرْبَحُ رَقَماً غَيْرَ مَوْجودٍ؟ لا يَرْبَحُ أحَدٌ، ولا يَرْبَحُ شاور مِنْ أحَدٍ.

الكُلُّ يَعْرِفونَ وَرَقاتِ يانَصيبِهِ آلمَغْشوشَةِ. وَمَعَ ذلكَ يَقِفُ الشَّبَحُ صَباحَ مَساءَ عَلى أبْوابِ السّينَما مُتَرَنِّحاً. تَتَلأْلأُ فُوَّهَةُ بَطْحَةِ آلعَرَقِ في جَيْبِ بِنْطالِهِ آلخَلْفِيِّ. «يلّلا يا شَباب. اللّوكي بعَشْرَةِ قُروش. يلّلا»، وَيَسْرُدُ عَبْرَ فَكِّهِ آلمُرْتَخِيَةِ أنَّه كانَ ضابِطاً في جَيْشِ نوري السَّعيدِ... يَلّلا، ثُمَّ يُؤَدّي التَّحِيَّةَ لِدَوْرِيَّةِ الشُّرْطَةِ آلَّتي تَبْحَثُ عَنِ آلمُقامِرينَ، وَهُوَ مُتَّكِىءٌ عَلى عَرَبَةٍ لِبَيْعِ آلمِياهِ آلغازِيَّةِ... يَلّلا، وَتَضْحَكُ الشُّرْطَةُ الأنيقَةُ.

سَيَموتُ شاور. نَعَمْ، سَيَموتُ مُهْمَلاً كَهذا آلجَنينِ آلمُلْقى في حُفْرَةٍ قُرْبَ مَدْرَسَتِنا. جَنينٌ مَكْسورُ آلجُمْجُمَةِ، يَتَدَلّى مِنْ بَطْنِهِ حَبْلُهُ السُّرِّيُّ كأَفْعى. عارٍ تَماماً، لَمْ يُكَلِّفْ مَنْ رَمَوْهُ أنْفُسَهم مَشَقَّةَ لَفِّهِ بكيسٍ وَرَقِيٍّ. عارٍ، مَفْتوحُ آلفَمِ. عارٍ أزْرَقُ كَأَنَّما ماتَ بَرْداً بَعْدَ رَمْيِهِ. ما هَمَّ، سَيَموتونَ جَميعاً. سَتَموتُ آلمَدْرَسَةُ، وَسَتَأْتي أشْباحُنا لِتَسْرَحَ بَيْنَ خَرائِبِها غَيْرَ خائِفَةٍ مِنْ

أحَدٍ. لكِنَّنا سَنَحْتَفِلُ بِأشْباحِنا ٱلحَيَّةِ قَبْلَ ٱلمَوْتِ. سَنَحْتَفِلُ وَسَطَ الظَّلامِ وَأرواحِهِ كَٱلقِدّيسِ ٱلفِضِّيِّ سانتو.

فَجْأَةً هَبَطَ عَلَيْنا سانتو. هَبَطَ في دارِ سينَما حَدّاد، بَطَلُ أفْلامٍ مَكْسيكِيَّةٍ رَديئَةٍ، مُصارِعٌ يَرْتَدي قِناعاً وَيُطارِدُ مَصّاصي الدِّماءِ، وٱلمَوْتى ٱلمُتَسلِّلينَ إلى ٱلحَياةِ. فَلْنَكُنْ سانتو.

كُنّا نَسْرِقُ المُلاءاتِ. نَسْرِقُ أكْياسَ الطَّحينِ ٱلفارِغَةَ مِنْ فُرْنِ مرادو، ونَصْنَعُ ٱلأقْنِعَةَ. بَدَأَ الأمْرُ لَهْواً، وٱنْتَهى بِأنْ صارَ لِكُلِّ حَيٍّ مِنَ ٱلأحْياءِ قِناعُهُ.

أنا ٱلَّذي بَدَأْتُ. فَفي بَيْتِ أُختي آلَةُ خِياطَةٍ مِنْ نَوْعِ سِنْجِرْ، تُدارُ بِوساطَةِ ٱلقَدَمِ، وَكُنْتُ ماهِراً في خِياطَةِ ٱلقُبَّعاتِ التُّرْكِيَّةِ، وسَراويلِ السِّباحَةِ، مِنَ ٱلقِماشِ، ومِنَ ٱلخَيْشِ، أوْ مِنْ أيِّ شَيْءٍ يُمْكِنُ أنْ يُرْتَدى. وفي بَيْتِ أُخْتي صَنَعْتُ أوَّلَ قِناعٍ. ثُمَّ ٱسْتَعَرْتُ عَباءَةَ أُمّي خِلْسَةً، وَتَرَصَّدْتُ ٱلعابِرينَ، لَيْلاً، في ٱلعَراءِ ٱلَّذي يَلي ٱلبُيوتَ جُنوباً.

هاجَمْتُ ٱلفَرائِسَ تِباعاً. وَلْوَلَتِ ٱمْرَأَةٌ، وَوَلّى رَجُلٌ كَهْلٌ ٱلأدْبارَ. صَرَخَ طِفْلٌ مِنْ هُناك، وَعَوى كَلْبٌ مِنْ هُنا. كُنْتُ

تَوْأَمَ الظَّلامِ وَراءَ ٱلقِناعِ، تَوْأَمَ ٱلخَوْفِ ذاتِهِ. قُلْتُ لِنَفْسي: «سَأَجْعَلُهُم يُجَنّونَ». وَصَدَّقْتُ ٱلأمْرَ. صِرْتُ أَرْكُضُ بَيْنَ ٱلحُقولِ ٱلبَعيدَةِ ٱلَّتي لَمْ تَكُنْ لِتَطَأَها أَقْدامُنا لَيْلاً. دُرْتُ وَسَطَ ٱلبُيوتِ ٱلمَعْزولَةِ صارِخاً مِنْ شَبابيكِها فَيُجْفِلُ السّاكِنونَ، ولا يَلْحَقونَ بي. «أنا ٱلخَوْفُ» قُلْتُ لِنَفْسي، وَصَدَّقْتُ. هاجَمْتُ ٱلكِلابَ أيْضاً، وَكُنّا لا نَجْرُؤُ على ٱلاَقْتِرابِ مِنْها. وَرَفَعْتُ عَقيرتي كَٱبْنِ آوى: «هووووو». وَساعَةً بَعْدَ ساعَةٍ، مِنْ ذلِكَ ٱلمَساءِ، بَدَأَ النّاسُ يَتَجَمْهَرونَ. يَصْرُخونَ في فَزَعٍ ظاهِرٍ: «مَنْ هُناكَ؟»، وأرُدُّ: «هووووو». وأخيراً أخْبَرَهُمْ أخي ٱلأصْغَرُ حَقيقَةَ اللُّعْبَةِ. هَجَمَ الصِّبْيَةُ عَلَيَّ في فَرَحٍ لا يُعادِلُهُ فَرَحٌ، أمّا ٱلكِبارُ فَشَتَموني بِما فيهِ ٱلكِفايَةُ، وَٱنْصَرَفوا.

في ٱليَوْمِ التّالي كانَ كُلُّ صَبِيٍّ يَحْمِلُ قِناعاً مُخَيَّطاً بٱليَدِ في جَيْبِهِ.

في ٱليَوْمِ الثّالِثِ كانَ لِكُلِّ حَيٍّ نَوْعٌ خاصٌّ بِهِ مِنَ ٱلأقْنِعَةِ. مِنْهُمْ مَنْ أضافَ إليْها آذاناً كَآذانِ ٱلقِطَطِ، ومِنْهُمْ مَنْ أَلْصَقَ بِها الرّيشَ، ومِنْهُمْ مَنْ طَوَّرَها فَجَعَلَها مِنَ ٱلجِلْدِ ٱلمُخَيَّطِ بالسُّيورِ.

أقْنِعَةٌ... أقْنِعَةٌ... أقْنِعَةٌ لا تُضيفُ شَيْئاً إلى قِناعِ ٱلأرْضِ

آلكَبيرِ: الشِّمالِ. أقْنِعَةٌ لا تَعْدِلُ قِناعَ ميرو آلحَقيقيَّ؛ قِناعَ وُقوفِهِ هُناكَ، عَلى التُّخومِ آلخَفِيَّةِ لِلاّمَدينَةِ، وَسَطَ أكْباشِهِ. يَتَحَيَّنُ سُكوناً غامِراً لِيُبَدِّدَ السُّكونَ. ومِنْ أيْنَ لَنا بالسُّكونِ ميرو؟ لَوْ لَمْ نَجِدْ مَدينَةَ آلمَلاهي آلَّتي هَدَمْناها لَهَدَمَ آلعَتّالونَ آلمَدينَةَ. عاطِلونَ عَنِ آلعَمَلِ، هؤلاءِ، ميرو. يَشْرَبونَ الشّايَ بالدَّيْنِ في مَقاهي سوقِ التُّجّارِ، ويَعِدونَ أصْحابَها بسَدادِ الدَّيْنِ حينَ تُقْبِلُ أوَّلُ شاحِنَةٍ، وما مِنْ شاحِنَةٍ تَجيءُ ميرو. الحُكومَةُ أكَلَتِ الشّاحِناتِ. الحُكومَةُ أكَلَتِ القَمْحَ. الحُكومَةُ أكَلَتِ المَطَرَ والرِّياحَ وآلبُروقَ. الحُكومَةُ أكَلَتِ النُّجومَ. أوْ رَصَّعَتْ بِها أكْتافَ ضُبّاطِها. الحُكومَةُ أكَلَتِ الحُكومَةَ ميرو... والشِّمالُ يَأْكُلُ أقْدامَنا.

أمّا أنا وَفَوْزي فَنَأْكُلُ آلبَطّيخَ. حُقولٌ كآلبَحْرِ مِنَ آلبَطّيخِ، وأنا وَفَوْزي، ودَرّاجتانِ تَفَرْقَعَتْ عَجَلاتُهُما.

كُنّا ذاهِبَيْنِ لِزِيارَةِ أقربائِهِ في قَرْيَةِ هرم شيخو، عَلى دَرّاجَتَيْنِ آسْتَأْجَرْناهُما. وَوَسَطَ آلبَراري آلَّتي تَقَلَّدَتْ سُيوفَ الظَّهيرَةِ حَرَدَتِ الدَّرّاجتَانِ. آرْتَخَتا رُوَيْداً رُوَيْداً كَأَنَّ عَجَلاتِهِما مِنْ شَمْعٍ، فآضْطُرِرْنا أنْ نَجُرَّهُما جَرّاً بأقْدامِنا آلغائِصَةِ في تُرابِ

ٱلطُّرُقِ، ثُمَّ تَفَتَّقَتْ فِكْرَةٌ في رَأْسِ فَوْزي، فَخَبَّأْناهُما في أُخْدودٍ جانِبِيٍّ مِنَ ٱلأخاديدِ ٱلَّتي حَفَرَتْها السُّيولُ، عَلى أنْ نَسْتَعيدَهُما في ٱلعَوْدَةِ.

ومَا ٱلَّذي يُغْري، في هذِهِ الظَّهيرَةِ، غَيْرُ البَطّيخِ الأحْمَرِ بِصُفوفِهِ المُتَوازِنَةِ؟ كُنّا عَطِشَيْنِ، فٱسْتَدْبَرْنا الطَّريقَ وَفَتَحْنا أذْرِعَتَنا لِلنَّباتِ ٱلحَيِّ. أَكَلْنا ٱلبَطّيخَةَ ٱلأولى السّاخِنَةَ في ذلِكَ الوَهْجِ. أكَلْنا الثّانِيَةَ فٱرْتَوَتْ أحْشاؤُنا، وظَلَّتْ عُيونُنا عَطْشى. كَسَرْنا الثّالِثَةَ وبَلَّلْنا بعُصارَتِها رَأْسَيْنا. كَسَرْنا الرّابِعَةَ وتَراشَقْنا بِها. كَسَرْنا ٱلخامِسَةَ، والسّادِسَةَ، والسّابِعَةَ... وٱلعِشْرينَ، ونَحْنُ نَتَراشَقُ باللُّبِّ ٱلأحْمَرِ حتّى تَحَوَّلَ ٱلمَكانُ إلى بِرْكَةٍ مِنَ الطّينِ. تَدَحْرَجْنا عَلى التُّرابِ فَلَمْ نَعُدْ نُفَرِّقُ بَيْنَ أعْضائِنا وَبَيْنَ التُّرابِ. صِرْنا كُتْلَتَيْنِ لا مَلامِحَ لَهُما، يَطِنُّ فَوْقَ شَعْرِهِما الدَّبِقِ ذُبابٌ أزْرَقُ وأسْوَدُ خَرَجَ مِنَ الشُّقوقِ ٱلجافَّةِ حينَ ٱشْتَمَّ الرّائِحَةَ السُّكَّرِيَّةَ.

كانَتْ ثِيابُنا مُلْتَصِقَةً بأجْسادِنا، ولَها خَشْخَشَةُ ٱلوَرَقِ بِفِعْلِ ٱلعُصارَةِ ٱلَّتي يَبِسَتْ. وكَذلِكَ كانَتْ شِفاهُنا، وأهْدابُنا. يا لَحنينِنا إلى بِرْكَةِ ماءٍ نَسْتَلْقي فيها. يا لَحنينِنا إلى دَلْوِ ماءٍ

نَدْلُقُه مِنْ فَوْقُ. أمّا هَرَمَ شيخو فَكانَتْ تَنْبُضُ في آلمَدى آلبَعيدِ كَخَرَزَةٍ رَمادِيَّةٍ.

حينَ آقْتَرَبْنا مِنَ آلقَرْيَةِ مَدىً يُمَكِّنُنا مِن رُؤْيَةِ عَمودَيْ بِئْرِها، والدَّلْوِ الأسْوَدِ الضَّخْمِ، رَكَضْنا مُتَسابِقَيْنِ، وإذْ جاوَزْتُ فَوْزي دَفَعَني فَتَدَحْرَجْتُ إلى الأُخْدودِ آلَّذي يُجاوِرُ الطَّريقَ. كانَ عَميقاً ضِعْفَي ما تَراءى لَنا مِنْ الأعْلى. لَمْ أُكَلِّفْ نَفْسي آلخُروجَ مِنْهُ. صِرْتُ أرْكُضُ فيهِ، وفَوْزي يَرْكُضُ مِنَ آلأعْلى. غَيْرَ أنَّ ثُغْرَةً كَبيرَةً آسْتَوْقَفَتْني؛ ثُغْرَةً كَبابٍ في جِدارِ آلأُخْدودِ، إلى آليَمينِ. نادَيْتُ فَوْزي فَلَمْ يَتَوَقَّفْ؛ ظَنَّها حيلَةً لِأسْتَبْطِئَهُ.

دَخَلْتُ الثُّغْرَة مُتَهَيِّباً أوَّلَ آلأَمْرِ، غَيْرَ أنَّها كانَتْ مُضاءَةً مِنَ الدّاخِلِ، كَأنَّها تُفْضي إلى جِهَةٍ يَتَسَرَّبُ إلَيْها ضَوْءُ الشَّمْسِ. وبَعْدَ خُطُواتٍ آسْتَوْقَفَني مُدَرَّجٌ تُرابِيٌّ يُحيطُ بباحَةٍ صَغيرةٍ مَلأى بِبَعْرِ آلغَنَمِ، وبآلكَثيرِ مِنْ قِشْرِ آلبَطّيخِ. نادَيْتُ، ثانِيَةً، فَوْزي، فَما سَمِعْتُ إلّا صَوْتي، كانَ واضِحاً أنَّ في الطَّرَفِ المُقابِلِ مِنَ آلباحَةِ باباً ما. جاوَزْتُها فَوَجَدْتُ آلبابَ آلَّذي يَسْتُرُهُ حاجِزٌ مِنْ جِدارِ آلكَهْفِ، بِحَيْثُ لا يُرى إلّا حينَ تَصيرُ في آلجانِبِ الآخَرِ مِنَ آلباحَةِ. يا اللَّهُ. كُلَّما آقْتَرَبْتُ مِنَ آلبابِ كُلَّما آتَّسَعَ

آلمَشْهَدُ: سُهوبٌ مِنْ وَرَقِ الحُمَّيْضِ آلَّذي لا يَنْمو إلّا بِجانِبِ آلأنْهارِ. سُهوبٌ مَديدَةٌ يَحُدُّها أُفُقٌ بَنَفْسَجِيٌّ. نادَيْتُ: «فوزي»، فتَقَطَّعَتْ حُروفُ الآسْمِ، إذْ مَرَّ، في آللَّحْظَةِ ذاتِها، كَبْشٌ هائِلٌ مِنْ أمامِ آلبابِ. آلْتَفَتَ إليَّ في لِينٍ وآخْتَفى. سِرْتُ خُطْوَتَيْنِ فأَلْفَيْتُ نَفْسي خارِجاً، وَسَطَ مَكانٍ لا يُشْبِهُ الشِّمالَ؛ وَسَطَ مَكانٍ لا ظَهيرَةَ فيه، بَل هُبوبٌ رَخِيٌّ للغَمامِ. وَعَلى مَبْعَدَةٍ لا تُقاسُ، كمَسافاتِ آلحُلُمِ، آلْتَمَّتْ بُيوتٌ غَريبَةٌ من قَصَبٍ وَغُصونٍ.

نَسيتُ آلكَبْشَ آلَّذي مَرَّ مِنْ أمامِ آلبابِ، إذْ كانَتْ أسْرابٌ مِنْها، في حَجْمِ آلحَميرِ وآلبِغالِ، تَرْعى هُنا وهُناكَ، ذاتُ قُرونٍ خَضْراءَ كَآلفَيْروزِ آلأخْضَرِ. وَلَمْ أسْتَرْسِلْ في آلذُّهولِ طَويلاً، إذْ خَرَجَ مِنَ آلبُيوتِ رِجالٌ يَتَدَثَّرونَ بالصّوفِ. رِجالٌ لا حَواجِبَ لَهُمْ. خُضْرُ العُيونِ كَقُرونِ آلأكْباشِ تَماماً. كانوا مُتَشابِهينَ. أصْلٌ تَرَكَ صورَتَه لِلْمَرايا وآخْتَفى.

تَقَدَّمَ واحِدٌ فَقَطْ. تَقَدَّمَ في هُدوءٍ كَأَنَّما يُراعي ذُهولي. جَلَسَ عَلى آلأرْضِ، وأشارَ عَلَيَّ بآلجُلوسِ فآمْتَثَلْتُ. كانَ يَنْظُرُ في عَيْنَيَّ وأَنْظُرُ في عَيْنَيْهِ. بادَرَني سائِلاً: «أجِئْتَ وَحْدَكَ؟»،

أجَبْتُ مُضْطَرِباً: «فَوْزي... خَبَّأْنا الدَّرّاجَتَيْنِ... إلى هرم شيخو». بَدا واضِحاً أنّه لَمْ يَفْهَمْ شَيْئاً. كُنْتُ أتَحَدَّثُ بِيَدي كَٱلأَبْلَهِ، لا بِلِساني. جاوَزَ سُؤالَهُ، وتَمْتَمَ ثانِيَةً: «تَنْتَظِرونَنا»؟ ها؟». لَمْ أفْهَمْ بِدَوْري، لكِنَّني أجَبْتُ عَنْ سُؤالٍ تَرَدَّدَ في أعْماقي، لا في أعْماقِهِ هُوَ: «فَوْزي رَماني بالبَطّيخِ... ٱنْظُرْ»، وأَشَرْتُ إلى ثِيابي وَوَجْهي. زَمَّ جَفْنَيْهِ، وكَرَّرَ سُؤالَهُ: «أتَنْتَظِرونَنا؟ أنْتُمْ تُؤَجِّلونَ ذلكَ بكَفاءَةٍ». ثُمّ ٱلْتَفَتَ إلى الرِّجالِ، وَراءَه، فَتَقَدَّمَ واحِدٌ مِنْهُم. قالَ لَهُ ٱلجالِسُ أمامي: «أَخْبِرِ ٱلأكْباشَ أنْ تُؤَجِّلَ أسْئِلَتها. الأُفُقُ حامِضٌ اليومَ»، فَأَوْمَأَ ٱلواقِفُ برَأْسِهِ، وَمَضى. أمّا ٱلجالِسُ أمامي فَقَدْ تابَعَ: «كانَتْ هُناكَ ثُغْرَةٌ في ٱلجانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ هذا السَّهْبِ»، وأشارَ بِيَدِهِ شَرْقاً. «هُناكَ، حَيْثُ تَبْتَرِدُ الصّاعِقَةُ في بِرْكَةِ الرَّئيسِ الرّاعي». قُلْتُ: «لا أعي شَيْئاً مِمّا تَقولُ أيُّها السَّيِّدُ»، قالَ: «سَتَعي. حُكوماتُكُم تَعي ذلِكَ. أكْباشُكُمُ الصَّغيرَةُ تَعي ذلِكَ، ودُيوكُكُمْ أيْضاً»، وٱسْتَدْرَكَ فَسَأَلَ مُحْتَدّاً: «لِماذا تَصيحُ دِيَكَتُكُم طَوالَ الوَقْتِ... بٱللَّهِ لِماذا تَصيحُ؟ أتَنامونَ حتّى توقِظَكُمْ؟»، أجَبْتُ: «نَعَمْ. نَنامُ». فأضافَ: «لا بَأْسَ. يَظَلُّ لَدَيْكُم مُتَّسَعٌ مِنَ ٱلوَقْتِ،

أبداً، لتُوَفِّروا عَلَيْنا المَجيءَ إلَيْكُمْ». قُلْتُ: «لا أَفْهَمُكَ سَيِّدي»، قالَ: «لا بَأْسَ. أتَعْرِفُ بليرو؟»، أجَبْتُ: «نَعَمْ. مَجْنونٌ يَتَوَهَّمُ أنَّهُ موكَلٌ بحِراسَةِ آلجُسورِ». قالَ مِنْ جَديدٍ: «أتَعْرِفُ عَبّاسي قزو؟»، أجَبْتُ: «نَعَمْ. مَجْنونٌ يَتَوَهَّمُ أنَّ الطُّرُقَ مَلأى بأكياسِ آلقَمْحِ. فَيَرْفَعُها بخُطّافِهِ». قالَ: «أتَعْرِفُ سيقي؟»، أجَبْتُ: «نَعَمْ. تَتَوَهَّمُ أنَّها حارِسَةُ آلجَداوِلِ». قالَ: «أتَعْرِفُ داود كوت؟»، أجَبْتُ: «نَعَمْ. مَجْنونٌ يَسوقُ قَطيعاً وَهْمِيّاً مِنَ آلأغْنامِ». قالَ: «أتَعْرِفُ الصّوفيَّ؟»، صَرَخْتُ: «عَمّي. إنَّه عَمّي. سَقَطَ في آلبِئْرِ وماتَ». إلْتَفَتَ إلى آلوراءِ ناظِراً إلى الرِّجالِ آلواقِفينَ، واحِداً واحِداً، كَأَنَّما يَسْتَشيرُهُمْ في أمْرٍ غامِضٍ. تَقَدَّمَ واحِدٌ فَقَطْ. إنْحَنى هامِساً: «نَعَمْ ميرو».

قفزت واقفاً: «ميـ ـيـ ـيـ ـيـ ـيـ رو». وأُغْمِيَ عَلَيَّ.

حينَ أَفَقْتُ كُنْتُ مُلْقىً في باحَةِ آلكَهْفِ التُّرابِيِّ. وَقَفْتُ مُسْتَعيداً ما جرى، ثُمَّ بَحَثْتُ عَنِ آلبابِ آلَّذي يُشْرِفُ عَلى السُّهوبِ فَلَمْ أرَهُ. صَرَخْتُ: «ميرو. أيْنَ آلبابُ؟»، لَمْ يُجِبْ أحَدٌ. تَراجَعْتُ إلى وَراءَ فآنْزَلَقْتُ عَلى قِشْرَةِ بَطّيخٍ. رَكَضْتُ

مَذْعوراً صَوْبَ الثُّغْرَةِ في جِدارِ ٱلأُخْدودِ فَٱجْتَزْتُها في قَفْزَتَيْنِ، وفي قَفْزَتَيْنِ كُنْتُ عَلى الطَّريقِ.

كانَ فَوْزي عارِياً أمامَ بِئْرِ هرم شيخو. لَقَدِ ٱنْتَهى، تَوّاً، مِنْ غَسْلِ مَلابِسِهِ وَنَشْرِها عَلى شُجَيْراتِ الشَّوْكِ، وَها هُوَ يَدْلُقُ دِلاءً مِنَ ٱلماءِ البارِدِ عَلى جَسَدِه. هَتَفَ بي مِنْ تَحْتِ ٱلخُيوطِ ٱلفِضِّيَّةِ ٱلمُنْسابَةِ عَلى وَجْهِهِ: «أيْنَ كُنْتَ؟ أَجَعَلَكَ ٱلبَطّيخُ تَبولُ ساعَةً كامِلَةً؟». أَطْرَقْتُ، ثُمَّ نَظَرْتُ إلَيْهِ في ٱنْكِسارٍ: «كُلُّهُمْ مَعَ ميرو يا فَوْزي، وَٱلأَكْباشُ تَتَكَلَّمُ». تَفَحَّصَني في ٱسْتِخْفافٍ، مُغَمْغِماً: «تَعالَ»، وَرشَّني بقَليلٍ مِنَ ٱلماءِ.

حينَ عُدْنا مِنْ زِيارَةِ أقارِبِ فَوْزي، وإذْ أصْبَحْنا في مُوازاةِ الثُّغْرَةِ ٱبْتَعَدْتُ وَلَمْ أَلْتَفِتْ، بَلْ قُلْتُ لِفَوْزي: «أُنْظُرْ إلى يسارِكَ. أتَرى شَيْئاً؟»، أجابَ: «ٱلأُخْدود». وَقَفْتُ سائِلاً مِنْ جَديدٍ: «أتَرى ثُغْرَةً؟»، ٱقْتَرَبَ فَوزي مِنَ ٱلأُخْدودِ وَٱنْحَنى: «أيُّ ثُغْرَةٍ؟ لا شَيْءَ هُنا». إقْتَرَبْتُ، بِدَوْري مِنَ ٱلأُخْدودِ فَلَمْ أجِدْ شَيْئاً. صَرَخْتُ: «ميييييرو»، فَقَهْقَهَ ٱلعَراءُ.

النَّفير الثّالث

بَيْنَ ٱلقامِشْلي وبَيْنَ عامودا ثَلاثونَ كيلو مِتْراً، وعَويلٌ مُدَمِّرٌ لِصَفّاراتِ ٱلإطْفاءِ. تَمْضي سَيّارَةٌ وتَرْجِعُ سَيّارَةٌ. قَدَرُ عامودا، وَهِيَ بَلْدَةٌ كَبيرةٌ، أنْ لا يَكونَ فيها سَيّارَةُ إطْفاءٍ واحِدَةٌ. وَها هِيَ لامدينَتُنا تَمُدُّها، كُلَّ ساعَةٍ، بِغولٍ أحْمَرَ ذي صَفيرٍ، يَنْفُثُ ٱلماءَ مِنْ خَراطيمِهِ. لكِنْ... هَيْهاتَ. النَّجْدَةُ مُتَأَخِّرَةٌ كَكُلِّ شَأْنٍ حُكومِيٍّ، ولَيْسَ عَلى سُكّانِ عامودا إلّا أنْ يُطْفِئوا ٱلحَريقَ بالتُّرابِ، وبالأيْدي، وبالأَكْبادِ.

لَقَدِ ٱنْشَطَرَ التّاريخُ بَعْدَ ذلِكَ ٱلحَريقِ كَفَلْقَتَيْ مِشْمِشَةٍ. فإنْ سَرَدَ أحَدٌ أمْراً سَنَدَ ٱلكَلامَ بجُمْلَةِ «ما قَبْلَ ٱلحريقِ» أوْ «ما بَعْدَ حَريقِ السّينَما». نَعَمْ، خَبَرٌ مُبْتَدَأُهُ ٱلأطْفالُ. جَمَعوا خَمْسَمائَةِ طِفْلٍ مِنْ مَدارِسِ الطّينِ، بالعِصِيِّ، وقالوا لَهُمْ: «فَلْيَجْلُبْ كُلٌّ مِنْكُمْ رُبْعَ ليرَةٍ غَداً». وسُكّانُ عامودا لا يَمْلِكونَ إلّا ٱلقَليلَ ٱلقَليلَ مِنَ النُّقودِ، لِذلِكَ يُقايِضونَ الدَّجاجَ بالسُّكَّرِ، وَٱلبَيْضَ

بالتَّبْغِ، وآلحِنْطَةَ بِالخِيارِ، وَالشَّعيرَ بِالشّايِ، وَآلخِرافَ بالطَّحينِ، وَالسِّنَّ بالسِّنِّ، وَالعالَمُ أَظْلَمُ.

عَلى أيَّةِ حالٍ، عادَ آلأطْفالُ إلى مَدارِسِهِمْ في آليَوْمِ الثّاني. مُعْتَصِرينَ في قَبَضاتِهِمُ الصَّغيرَةِ قِطَعاً مَعْدِنِيَّةً خِشْيَةَ أنْ تَضيعَ إذا وَضَعوها في جُيوبِهِمُ آلمَثْقوبَةِ مِنْ كَثْرَةِ ما يَحْشُرونَ فيها مِنَ آلحِجارَةِ لِلْعِراكِ. وَهكَذا ساقَهُمُ آلمُعَلِّمونَ آلمُتَأَفِّفونَ، الَّذينَ يَقْضونَ سَنَةَ خِدْمَتِهِمُ آلأولى في التَّدْريسِ في هَذهِ آلبَلْدَةِ ـ المُخْتَبَرِ، على أنْ يَعودوا، بَعْدَها، إلى آلمُدُنِ، لِتَعْليمِ آلأطْفالِ آلأنيقينَ.

ساقوهُمْ في طُرُقاتِ آلبَلْدَةِ كالدَّجاجِ، وَكانَ آلأهْلونَ فَرِحينَ، يُشيرُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ في آعْتِزازٍ ساحِرٍ: «هذا وَلَدي». وإذْ وَصَلَ آلمَوْكِبُ إلى دارِ السّينَما، حَشَروهُمْ حَشْراً في آلمَبْنى آللَّبِنيِّ آلمُسْتَطيلِ، ذي البابِ الواحِدِ؛ آلمَبْنى آلأصَمِّ الَّذي لا نَوافِذَ فيهِ، حَيْثُ تَتَدَلّى أسْلاكٌ كَهْرَبائِيَّةٌ مِنْ كُلِّ آلجِهاتِ، في فَوْضى لا تَعْدِلُها فَوْضى، وحَيْثُ آلمَقاعِدُ آلخَشَبِيَّةُ، وَصَناديقُ آلخُضارِ آلفارِغَةُ، تُسْتَعْمَلُ لِجُلوسِ آلمُشاهِدينَ. حَشَروهُمْ وُقوفاً وجُلوساً، خَمْسُمائَةِ طِفْلٍ، مِنْ

أجْلِ مُشاهَدَةِ فيلْمٍ يَتَحَدَّثُ عَنْ طَرْدِ ٱلعَرَبِ لِلاّسْتِعْمارِ ٱلفَرَنْسِيِّ. وَلَمْ تَمْضِ نِصْفُ ساعَةٍ حتّى دَوّى ٱنْفِجارٌ مُريعٌ، إذْ لَمْ يَحْتَمِلِ ٱلمُوَلِّدُ ٱلكَهْرَبائِيُّ ٱلبالي عَرْضَيْنِ مُتَواصِلَيْنِ. تَطايَرَ شَظايا فتَطايَرَ بَرْميلا ٱلمازوتِ ٱلمَوْضوعانِ عَلى السَّقيفَةِ، قُرْبَ ٱلمُوَلِّدِ. إشْتَعَلَتِ الدّارُ دُفْعَةً واحِدَةً، والبابُ لا يَتَّسِعُ لمُرورِ شَخْصَيْنِ. حَشَرَ ٱلأطْفالُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، فَفَوَّتوا عَلى أنْفُسِهِمْ فُرَصَ ٱلهَرَبِ. صاروا يَتَوَهَّجونَ كَٱلبَرْقوقِ ٱلأحْمَرِ، وتَتَفَجَّرُ جَماجِمُهُمْ. مَنِ ٱحْتَرَقَ ٱحْتَرَقَ، وَمَنْ لَمْ يَحْتَرِقْ خَنَقَهُ الدُّخانُ، وَمَنْ لَمْ يَخْنُقْهُ الدُّخانُ صَعَقَتْهُ أسْلاكُ ٱلكَهْرَباءِ. وَصَفَ النّاجونَ لنَا الأمْرَ فَلَمْ نُصَدِّقْ: «كانوا إذا مَسَّتْهُمُ ٱلأسْلاكُ تَتَضاءَلُ أجْسادُهُمْ حتّى تُصْبِحَ في حَجْمِ بَطّيخَةٍ صَغيرَةٍ». وَالنّاجونَ ٱحْتَرَقَتْ سيقانُهُمْ، أَوْ أيْديهِمْ، أوْ وُجوهُهُمْ، أوِ ٱلأطْرافُ كُلُّها مَعاً. وَقَدْ غُصَّ مُسْتَشْفى ٱلقامِشْلي بِمائَتَيْنِ مِنْهم، يَئِنّونَ طَوالَ ٱلوَقْتِ، ويَتَقَيّأونَ الدُّخانَ. وَقالَ النّاجونَ، أيْضاً، إنَّ ٱلبَسالاتِ أنْقَذَتِ ٱلكَثيرينَ. هَجَمَ الرِّجالُ يَسْتَحِثُّ بَعْضُهُمْ حَماسَةَ بَعْضٍ: «أنا أبو فلان»، ويَرُدُّ الآخَرُ بعُواءِ المُتَهَوِّرِ: «وأنا أبو فلان»، ثُمّ يَنْهالونَ على حائِطِ السينَما بٱلقَبَضاتِ، وبٱلأرْجُلِ،

وبآلقُضْبانِ آلحديدِيَّةِ، حَتّى يَتَهاوى بَعْضُه، فَيَدْخُلونَ وَقَدْ تَقَنَّعوا بحَطّاتِهِمْ، ثُمّ يَخْرُجونَ مُتَأَبِّطينَ أطفالاً ذاهِلي آلأعْيُنِ. ويُضيفُ النّاجونَ مُتَحَدِّثينَ: «في هذهِ آلأثْناءِ جاءَتْ مَفْرَزَةُ الشُّرْطَةِ، وبَدَلَ أنْ تُسْهِمَ في آلإنْقاذِ صارَتْ تَرُدُّ الرِّجالَ عَنِ الدُّخولِ إلى الدّارِ آلمُحْتَرِقَةِ». ويَسْتَرْسِلُ النّاجونَ: «فَكَّ رِجالُ الشُّرْطَةِ أحْزِمَتُهُم آلجِلْدِيَّةَ آلقاسِيَةَ، وهَوَوْا بِها عَلى الرُّؤوسِ، صارِخينَ: آبْتَعِدوا أيُّها آلحَميرُ». وَظَلَّ آلأمْرُ بَيْنَ كَرٍّ وفَرٍّ: يَهْجُمُ النّاسُ وَهُمْ يَسْمَعونَ عَويلَ أكْبادِهِمْ، وتَهْجُمُ الشُّرْطَةُ فَتُشَتِّتُهُمْ، حَتّى جاءَ آبْنُ حَميد آغا، شاهِراً مُسَدَّسَهُ، مُطْلِقاً طَلْقَةَ تَحْذيرٍ: «إمّا نَحْنُ، وإمّا أنْتُمْ»، قالَ لِلشُّرْطَةِ، وَصَفَعَ أوَّلَ مَنْ رَآهُ مِنْهُمْ فَأَدْبَرَ مُتَرَنِّحاً. دَخَلَ آبْنُ حَميدٍ مِنْ الثُّغْرَةِ آلَّتي آسْتَحْدَثَها الرِّجالُ، وَصارَ يُلْقي بآلأطْفالِ مِنْها فَيَتَلَقَّفُهُمْ مَنْ في آلخارِجِ. آهٍ آبنَ حَميد. هَوَتْ عَلَيْهِ دِعامَةٌ مِنْ دِعاماتِ السَّقْفِ آلحَديدِيَّةِ.

لَمْ يَبْقَ بَيْتٌ في عامودا لَيْسَ فيهِ مَأْتَمٌ، أو شَراكَةٌ في مَأْتَمٍ، وتَجَدَّدَتِ آلمَقْبَرَةُ آلقَديمَةُ بشَواهِدِ آلوافِدينَ.

كانَ لنا أوْلادُ أعْمامٍ وخالاتٍ بَيْنَ النّاجينَ، نَزورُهُمْ في

آلمُسْتَشْفى لِنُقاسِمَهُمْ سَكاكِرَهُمْ وفاكِهَتَهُمْ؛ لِنُقاسِمَهُمْ هَدايا لا تَجيئُنا إلّا بَعْدَ فاجِعَةٍ أوْ مَرَضٍ. تبّاً لِطُفولَتِنا ولِصِبانا. تَبّاً لحسن مصروع، آلَّذي يَذْرَعُ رَدَهاتِ آلمُسْتَشْفى في صَخَبٍ، فَخوراً بهَداياهُ وبِهِباتِهِ. لَقَدِ آرْتأى أنْ يَظْهَرَ كَبَطَلٍ وَلَوْ لِمَرَّةٍ في حَياتِهِ. حَسَن مصروع آلَّذي يَمْلِكُ ثُلُثَ أراضي اللّامَدينَةِ هذِهِ، ويَظَلُّ مُهَرْوِلاً حَوْلَ تُخومِها بطَربوشِهِ وخَيْزُرانَتِهِ، يُراقِبُ آلَّذينَ يَبْنونَ بُيوتَهُمْ قُرْبَ تِلْكَ التُّخومِ، خِشْيَةَ أنْ يَسْرِقوا بوصَةً مِنْها، أو يُطْلِقوا خِرافَهَمْ لِتَرْعى أعْشابَها. حَسَن مصروع آلأكْثَرُ بُخْلاً في آلأرْضِ، آلأكْثَرُ صُراخاً وَخِسَّةً، آلأكْثَرُ تَلَفُّتاً كَآلمُخْبرينَ، هُوَ بذاتِهِ، يَدْخُلُ المُسْتَشْفى بهَدايا لا تُحْصى، ضاحِكاً، تَهْتَزُّ شَراريبُ طَرْبوشِهِ. يا أللَّهُ.

ولِماذا نَلْتَفِتُ إلى كَرَمِ حَسَن مصروع الفُجائيِّ؟ «إلهامٌ مَحْضٌ» يَقولُ آلكِبارُ. «إلْهامٌ إلهِيٌّ يُلَمْلِمُ النَّجِسونَ بِهِ شَتاتَ أرْواحِهِم». وأيُّ إلْهامٍ هذا؟ نَسْأَلُ أنْفُسَنا. هذِهِ جارَتُنا. قَهْرَمانَةُ آلعاهِراتِ، لا تَبْخَلُ عَلى أحَدٍ. إسْمُها أمينة، ولَقَبُها آلحاجَّةُ. حَجَّت إلى أيْنَ؟ إنَّها حاجَّةٌ وَكَفى. إمْرَأَةٌ ضامِرَةٌ، داكِنَةُ البَشَرَةِ، في السِّتّينَ مِنْ عُمْرِها. حاوَلَ أهْلونا إجْلاءَها عَنِ

ٱلحَيِّ فَما ٱسْتَطاعوا، لِسَعَةِ نُفوذِها بَيْنَ الشُّرْطَةِ، فاقْتُصِرَ ٱحْتِجاجُهُمْ عَلى مُقاطَعَتِها تَماماً، وعَلى مُقاطَعَةِ بَيْتِ ٱلحاجِّ حَسَن، ٱلَّذي تَقومُ بَناتُهُ، وَزَوْجُهُ، بخِدْمَةِ ٱلقَهْرَمانَةِ لَيْلَ نَهارَ، مُقابِلَ هِباتٍ هائِلَةٍ مِنَ ٱلأَطْعِمَةِ وَالأَلْبِسَةِ.

كانَ نَشازاً أنْ تُرى سَيّارَةٌ في ذٰلِكَ ٱلحَيِّ ٱلغُبارِيِّ، ٱلَّذي ٱحْتَكَرتِ الدَّجاجاتُ سُطوحَ بُيوتِهِ وطُرُقاتِهِ. غَيْرَ أنَّ ٱلقَهْرَمانَةَ مَلأَتْهُ ضَجيجاً؛ تَأْخُذُها سَيّارَةٌ صَباحاً، وتُعيدُها سَيّارَةٌ بَعْدَ مُنْتَصَفِ ٱللَّيْلِ.

القَهْرَمانَةُ مَلِكَةٌ حَقيقِيّةٌ، تُناديها ٱلعاهِراتُ «ماما»، ويَسْتَجْدينَ رِضاها. ويَسْتَجْدي رِضاها ٱلأَكابِرُ، أيْضاً. فَفي وُسْعِها، وَحْدَها، أنْ تَأْمُرَ إحْداهُنَّ بٱلمَبيتِ خارِجَ ٱلمَبْغى مَعَ رَجُلٍ تَخْتارُهُ. وَفي وُسْعِها أنْ تَطْرُقَ بابَ آمِرِ الثُّكْنَةِ ٱلعَسْكَرِيَّةِ لِتَشْكوَ إلَيْهِ خُروجَ أحَدِ ٱلعَساكِرِ عَنِ ٱللَّياقَةِ، وأنْ تَكْفُلَ عاهِرَةً ما، إذا أرادَتْ تَرْكَ ٱلمَبْغى مِنْ أجْلِ الزَّواجِ.

وَمَنْصِبُ ٱلقَهْرَمانَةِ تَرِثُهُ الطّاعِناتُ في السِّنِّ، فإنْ ماتَتْ قَهْرَمانَةٌ خَلَفَتْها ٱلأَكْبَرُ سِنّاً بَيْنَ ٱلعاهِراتِ. ومَهْما كانَتِ ٱلجَديدةُ وَضيعَةً قَدَّمَتِ ٱلأُخْرَياتُ لَها ٱلوَلاءَ والطّاعَةَ. هذا

عُرْفٌ لا يَحيدُ ٱلمَبْغى عَنْهُ، كَما لا تَحيدُ ٱلعاهِراتُ عَنْ شَرَفِ مُؤَخّراتِهِنَّ، فَهُنَّ لا يَقْبَلْنَ مُضاجَعَةً مِنَ ٱلخَلْفِ، وَيَتَباهَيْنَ: «لَوْ أُعْطينا زِنَةَ وَزْنِنا ذَهَباً لَما فَعَلْنا». هذا آخِرُ ما تَبَقّى لَهُنَّ لِيَتَشَبَّهْنَ بِٱلآدَميِّ ٱلمَفْقودِ.

وٱلقَهْرَمانَةُ أمينَةُ ـ جارَتُنا ـ تَمْلِكُ ثَلاثينَ قِطَّةً، وَكَلْباً واحِداً، تُطْعِمُهُنَّ بَناتُ ٱلحاجِّ حَسَن في غِيابِها. قِطَطٌ مُدَلَّلَةٌ، وكَلْبٌ أشَدُّ دَلالاً. يَأْكُلْنَ مِنَ ٱللَّحْمِ ٱلأنْقى، وما يَعْجِزْنَ عَنِ ٱلتِهامِهِ تَسْرِقْهُ مُرْضِعاتُهُنَّ ـ بَناتُ ٱلحاجِّ.

القِطَطُ لا تُغادِرُ ٱلمَنْزِلَ، ولَهُنَّ رَهافَةُ حَدْسٍ يَسْتَطِعْنَ بِها تَخْمينَ مَوْعِدِ وُصولِ ٱلقَهْرَمانَةِ، فَيُنَطْنِطْنَ ويَمُؤْنَ في صَخَبٍ. أمّا ٱلكَلْبُ فَيَشْرُدُ حينَ تَسْنَحُ ٱلفُرْصَةُ، وهيَ لَيْسَتْ فُرْصَتَهُ، بَلْ فُرْصَتُنا. نَرُشُّهُ برَمادِ الرَّوْثِ، أوْ نَسْتَدْرِجُهُ فَنَبولُ عَلَيْهِ. وبَعْدَ مُنْتَصَفِ ٱللَّيْلِ نَسْمَعُ عَويلَ ٱلقَهْرَمانَةِ: «ماذا فَعَلوا بِكَ يا بوبو، بونجي؟ ماذا فَعَلْتُمْ بِهِ يا أَبْناءَ الشَّوارِعِ؟»، ثُمَّ يَخْفُتُ صَوْتُها مُدَلِّلَةً: «حَبيبي بونجي. كَمْ مَرَّةٍ نَهَيْتُكَ عَنِ ٱلخُروجِ! هؤلاءِ أوْباشٌ، يَأْكُلونَ ٱلبَشَرَ يا حَبيبي. عَيْناي فِداكَ...».

مَرَّ وَقْتٌ طَويلٌ قَبْلَ أنْ تُقاطِعَها بَناتُ ٱلحاجِّ حَسَن أيْضاً،

تَحْتَ وَطْأَةِ أنْ يَصْفَعَ إمامُ ٱلمَسْجِدِ ٱلحاجَّ، صارِخاً بِهِ: «بَطْنُكَ مَلأى بِالنّارِ. لا تَدْخُلْ مَسْجِدَنا».

بَقِيَتِ ٱلقَهْرَمانَةُ وَحيدَةً مَعَ أُبَّهَةِ مُحَرِّكاتِ السَّيّاراتِ ٱلَّتي تُقْلِقُ النّائِمينَ لَيْلاً، حتّى أنَّ الدِّيَكَةَ كانَتْ تَصيحُ ظَنّاً مِنْها أنَّهُ الصَّباحُ. ثُمَّ ٱخْتَفَتِ ٱلمُحَرِّكاتُ وَضَجيجُها، وباتَتِ ٱلقَهْرَمانَةُ تُلازِمُ ٱلبَيْتَ مُحْدَوْدِبَةً كَعودٍ يابِسٍ. وكانَتْ تَزورُها بَيْنَ ٱلحينِ وٱلحينِ عاهِرَةٌ تَمْلأُ ٱلحَيَّ بِعِطْرِها الرَّخيصِ، ثُمَّ تَمْضي فَتَخْرُجُ ٱلقَهْرَمانَةُ لِتَجْلِسَ، في وَهَنٍ، عَلى كُرْسِيٍّ صَغيرٍ أمامَ بابِها، غَيْرَ قادِرَةٍ على رَدِّ القِطَطِ ٱلَّتي بَدَأَتْ تَشْرُدُ مِنْ حَوْلِها، ثُمَّ صارَتْ تَحومُ حَوْلَ ٱلمَزابِلِ، ثُمَّ ٱبْتَعَدَتْ إلى ٱلأزِقَّةِ وٱلأحْياءِ، وَلَمْ تَعُدْ.

الكَلْبُ، وَحْدَه، ظَلَّ أميناً لأمينَةَ. يُقْعي قُرْبَ كُرْسِيِّها وَيَنامُ. غَيْرَ أنَّ أعْيُنَنا كانَتْ على ٱلكَلْبِ الصَّغيرِ، ذاكَ، ذي الشَّعْرِ النّاعِمِ، فَٱسْتَدْرَجْناهُ وَحَمَلْناهُ في كيسٍ إلى حَيْثُ مِدْحَلَةُ ٱلبَلَدِيَّةِ ٱلَّتي تُسَوّي الطُّرُقَ فَتَسْتَوي كَوَرَقَةِ الدَّفْتَرِ. رَمَيْناهُ في غَفْلَةٍ مِنَ السّائِقِ تَحْتَ عَجَلَتِها ٱلحَديديَّةِ الضَّخْمَةِ، فَٱخْتَلَطَتْ طَقْطَقَةُ ٱلعِظامِ بِقَعْقَعَةِ ٱلحَجَرِ ٱلمُتَهَشِّمِ.

«فِداكَ عَيْنايَ»، نَقولُ الكَلِمَةَ وَنَحْنُ نَعْبُرُ بِقُرْبِ ٱلقَهْرَمانَةِ

ٱلغائِصَةِ كَجُثَّةٍ قَديمَةٍ في كُرْسِيِّها، فَتَرْفَعُ عَيْنَيْها إلَيْنا، ولا تَرُدُّ.

تَبّاً لَنا، فَلْنُلْقِ بِٱلقَهْرَمانَةِ أيْضاً تَحْتَ عَجَلاتِ ٱلمِدْحَلَةِ. فَلْنُلْقِ بِها، وبالثُّكْنَةِ، وبِٱلبَلَدِيَّةِ، وبِٱلمُسْتَشْفى ٱلَّذي تَؤُمُّه ٱلعاهِراتُ، أُسْبوعِيّاً، لِبَسْطِ فُروجِهِنَّ تَحْتَ ٱلمُجْهِرِ. فَلْنُلْقِ بالشِّمالِ. لكِنَّ الشِّمالَ كالزِّئْبَقِ، يَتَشَظّى كُراتٍ ثُمّ يَلْتَحِمُ، فَيُلْقي بَعْضُنا بِبَعْضٍ في بَسالاتٍ لا طائِلَ تَحْتَها.

هكَذا، كَٱسْتِعْراضٍ لِلْبَسالَةِ ٱليَوْمِيَّةِ، وكَمُناوَرَةٍ مِنْ مُناوَراتِ ٱلكائِنِ الشِّماليِّ لِلاَحْتِيالِ عَلى أعْماقِهِ، ٱنْدَفَعَ الكولِيّونَ بِخُطّافاتِهِمْ، وبِٱلهِراواتِ، وبِسَكاكينِ ٱلجَيْبِ، عَلى أحْمَدَ ٱبْنِ ٱلقَصّابِ.

كانَ سَيِّىءَ ٱلحَظِّ ٱبْنُ ٱلقَصّابِ هَذا. فَمُنْذُ أُسْبوعٍ فَقَطْ دَخَلَ رَجُلُ مُخابَراتٍ إلى ٱلمَحَلِّ؛ رَجُلٌ فَظٌّ كَعادَةِ هذا الصِّنْفِ، وحَصَلَتْ مُشادَّةٌ بَيْنَ ٱلاثْنَيْنِ، شَهَرَ فيها ٱلأخيرُ مُسَدَّسَهُ وَضَرَبَ أحْمَدَ عَلى رَأْسِهِ فَتَسَرْبَلَ بالدَّمِ. ثُمَّ جاءَتِ الشُّرْطَةِ وَأَخَذَتِ ٱبْنَ ٱلقَصّابِ فأمْضى أُسْبوعاً في السِّجْنِ مِنْ غَيْرِ ما سَبَبٍ. وَها هُوَ، في ٱليَوْمِ ٱلأوَّلِ مِنْ إطْلاقِ سَراحِهِ، يَتَشاجَرُ مَعَ ٱبْنِ أحَدِ ٱلكوليّينَ، وفي هَذِهِ ٱلمَرَّةِ ضَرَبَ أحْمَدُ

الشّابَّ بسِكّينٍ، فَسَلَخَ بَعْضاً مِنْ فَرْوَتِه، خَلْفَ ٱلأُذُنِ. وَما إنْ تَناهى ٱلـخَبَرُ إلى الرِّجالِ ٱلقُساةِ حَتّى طَوَّقوا مَحَلَّ ٱلقَصّابِ، وٱنْدَفعوا مُحاوِلينَ جَرَّ ٱلفَتى خارِجاً، لكِنَّهُ رَفَعَ ساطوراً ضَخْماً، ولَوَّحَ بِهِ في ٱلوُجوهِ فٱضْطُرّوا إلى ٱلاٱبْتِعادِ قَليلاً. وكانَتْ تِلْكَ فُرْصَةُ ٱلفَتى، فَأَسْدَلَ ٱلبابَ الصَّفيحِيَّ عَلى نَفْسِه، رَيْثَما يَتَدَخَّلُ أحَدٌ ما لِفَضِّ ٱلمُشْكِلِ.

كانَ تَقْديرُ الفَتى، ٱلَّذي تَنْتابُهُ بَيْنَ ٱلحينِ وٱلحينِ نَوْباتٌ مِنَ الصَّرَعِ، خاطِئاً، فَما مِنْ بابٍ موصَدٍ يَرُدُّ كوليّاً غاضِباً.

وَقَفَتِ النِّساءُ مِنْ خَلْفِ الرِّجالِ هاتِفاتٍ: «أيَتَجَرَّأُ أَحَدٌ عَلَيْنا؟»، فَيَرُدُّ الرِّجالُ بدَمْدَمَةٍ: «خَسِئوا»، ثُمَّ يَصْدِمونَ بأجْسادِهِمُ ٱلبابَ كَما يَصْدِمُ ٱلجَرادُ نَوافِذَ ٱلبُيوتِ صَيْفاً، في طَيَرانِهِ ٱلبَليدِ. بَلْ جاءَ بَعْضُهُم بعَمودٍ طَويلٍ. أَبْعَدوا ٱلآخَرينَ وأهْوَوْا عَلى الصَّفيحِ قَرْعاً حَتّى ٱهْتَزَّ ٱلمَحَلُّ مِنْ أساسِاتِه، وَكانوا كُلَّما أوْشَكوا أنْ يَدْفَعوا السِّتارَةَ الصّفيحِيَّةَ إلى الدّاخِلِ قَليلاً، خَرَجَتْ مِنْ تَحْتِ ٱلبابِ شَفْرَةٌ مُضيئَةٌ، في حَرَكَةٍ دائرِيَّةٍ تَكادُ تَحْصُدُ ٱلأقْدامَ.

يَأْسٌ وَراءَ ٱلبابِ، وَغَضَبٌ أمامَهُ. يَأْسٌ مُضَمَّخٌ برائِحَةِ ٱللَّحْمِ

النَّيْءِ، وَغَضَبٌ مُكابِرٌ. وَلَمْ يَكُنِ الصِّراعُ صِراعاً بَيْنَ فَتىً ورِجالٍ. الفَتى يَشْحَذُ مَهاراتِهِ في جَعْلِ السّاطورِ طَيِّعاً، رَخيماً كَصَفيرِ ريحٍ تَعْبُرُ الشُّقوقَ ٱلَّتي تَتَدافَعُ مِنْها الأَيْدي. والرِّجالُ عاكِفونَ على تَقْديرِ ٱلوَقْتِ ٱلَّذي يَسْتَسْلِمُ فيهِ بابٌ كَهذا. غَيْرَ أَنَّ كُلّاً مِنْهُما، حينَ يُنْجِزُ ما عَلَيْه، سَيَقِفُ أمامَ ٱلآخَرِ وَجْهاً لِوَجْهٍ، وَلَيْسَ في وُسْعِهِ، بَعْدَ ذا إِلّا أَنْ يَجْعَلَ ٱليَأْسَ يَأْساً، وٱلغَضَبَ غَضَباً.

في تِلْكَ الأَثْناءِ ٱلَّتي ٱخْتَلَطَ ٱلغُبارُ فيها بٱلقَرْعِ، حَضَرَ عَمُّ ٱلجَريحِ، وَهُوَ وَجيهٌ مِنْ وُجَهاءِ ٱلكولِيِّينَ، ٱجْتَمَعَتْ لَهُ حِكْمَةُ السَّيِّدِ. دَفَعَ الرِّجالَ بِيَدَيْهِ عَنِ ٱلبابِ، صارِخاً: «تَرْتَكِبونَ مَجْزَرَةً مِنْ أَجْلِ جُرْحٍ بَسيطٍ؟ تَبّاً لَكُمْ»، فٱرْتَخَتِ ٱلأَيْدي عَلى مَقابِضِ ٱلخُطّافاتِ، وٱلسَّكاكينِ، وٱلأَسْلِحَةِ ٱلخَشَبِيَّةِ. وإِذْ شَعَرَ الفَتى بِبَعْضِ ٱلاطْمِئنانِ، رَفَعَ ٱلبابَ الصَّفيحِيَّ ٱلَّذي يَلْتَفُّ عَلى بَكَرَةٍ في ٱلأَعْلى، وَوَقَفَ يَرْقُبُ ٱلآخَرينَ كَٱلمُحارِبِ، وفي يَدِهِ ساطورُه، وَحَوْلَ فَمِهِ زَبَدٌ وَعَرَقٌ.

كانَ عارِفاً أَنَّه نَجا بِحِكْمَةِ أَحَدِهِمْ، لا بِبَأْسِهِ، وَمَعَ ذلكَ لَمْ تَطْرِفْ لَهُ عَيْنٌ، في حينِ جالَتْ نَظَراتٌ ذاتُ أَنْيابٍ

ومَخالِبَ عَلى مَعالِمِ وَجْهِهِ، مِنَ ٱلجِهَةِ ٱلمُقابِلَةِ لِلْمَحَلِّ؛ الجِهَةِ ٱلَّتي تَحَلَّقَ فيها الرِّجالُ يَعَضُّونَ أعْماقَهُمْ، وحِكْمَةَ ٱلحُكَماءِ.

وَنَحْنُ نَعَضُّ أعْماقَنا أيْضاً، نَحْنُ ٱلفِتْيَةَ ٱلَّذينَ نَقْضي أيّامَ ٱلعُطْلَةِ الصَّيْفِيّةِ في مُسْتَنْقَعٍ، أو عَلى ضِفَّةِ نَهْرٍ جافٍّ. نَسْرِقُ ٱلبَطّيخَ ٱلأحْمَرَ مِنَ ٱلعَرَباتِ، وَأسْلاكَ النُّحاسِ، وَالصَّفائِحَ ٱلفارِغَةَ، وأكْياسَ ٱلخَيْشِ، وأحْياناً كَثيرةً جُيوبَ آبائِنا. مُهْمَلونَ، والفَرْقُ كَبيرٌ بَيْنَنا وَبَيْنَ الدَّجاجِ ٱلَّذي يُدَلِّلونَهُ. فَلْيَسْقُطِ الدَّجاجُ.

وَلكِنَّ هَذِهِ السَّنَةَ مِنْ سَنَواتِ صِبايَ هِيَ أوّلُ مَدْخَلٍ لي إلى كَسْبِ نُقودٍ لا أُضْطَرُّ إلى سَرِقَتِها. فَقَدْ أخَذَني أبي إلى مَكْتَبِ تاجِرِ حُبوبٍ. سَلَّمَني كأمانَةٍ يَرُدُّها إلى أصْحابِها، وَمَضى.

كانَ التّاجِرُ، هذا، كاتِباً عَدْلاً سابِقاً. يَمْلِكُ مَحَطَّةَ بَنْزينٍ، وحُقولَ بَطّيخٍ وقَمْحٍ، وسَيّاراتٍ، وَأشْياءَ أُخْرى كَثيرةً. رَجُلٌ قَصيرُ ٱلقامَةِ، عَصَبِيُّ ٱلمِزاجِ. يَصْرُخُ فَيَخْرُجُ الصُّراخُ مِنْ حَنْجَرَتِهِ، وجُيوبِهِ أيْضاً. وَقَدْ بادَرَني فَوْرَ خُروجِ أبي قائِلاً: «هاتِ كوبَ ماءٍ». رَكَضْتُ إلى ٱلمَقْهى ٱلَّذي لا يَبْعُدُ أرْبَعَةَ

أمْتارٍ، وأَتَيْتُهُ بكوبِ ماءٍ. شَرِبَ مِنْه وَهُوَ يَرْمُقُني. بَعْدَ قَليلٍ جاءَ سائِقُه، أعْطاني ليرةً وَقالَ: «هاتِ سندويش كَباب»، رَكَضْتُ إلى ٱلمَطْعَمِ وأتَيْتُهُ بالطَّعامِ. ثُمَّ جاءَ عامِلُ مَحَطَّةِ ٱلبَنْزينِ، بادَرَني: «أتَشْتَغِلُ هُنا؟»، قُلْتُ: «نَعَمْ». قالَ: «هاتِ ٱلبَطّيخَ ٱلَّذي في ٱللّاندروڤر». رَكَضْتُ وَجِئْتُ بِٱلبَطّيخِ إلى ٱلمَكْتَبِ، على ثَلاثِ دُفُعاتٍ. ثُمّ ناداني الطّابِعُ على ٱلآلَةِ ٱلكاتِبَةِ، قائِلاً: «هاتِ عُلْبَةَ تَبْغٍ»، رَكَضْتُ وَجِئْتُهُ بِعُلْبَةِ التَّبْغِ. دَخَلَ ٱبْنُ ٱلمُعَلِّمِ الصَّغيرُ، تَفَحَّصَني وَقالَ: «ٱنْحَنِ، أُريدُ أنْ تَنْحَنِيَ لِأَرْكَبَ ظَهْرَكَ»، فَنَهَرَهُ والِدُهُ: «هذا لَيْسَ حِماراً»، فَسَكَتَ الصَّغيرُ، لكنّه حاذاني وَرَكَلَني عَلى ساقي فَتَرَقْرَقَ ٱلألَمُ في ٱلعَظْمِ. ثُمَّ دَخَلَ ضَيْفانِ. غَمْغَمَ ٱلمُعَلِّمُ: «هاتِ قَهْوَةً». رَكَضْتُ إلى ٱلمَقْهى فَجاءَتِ ٱلقَهْوَةُ. غَمْغَمَ ٱلمُعَلِّمُ ثانِيَةً: «سَأَخْرُجُ ٱلآنَ، وحينَ أعودُ فَلْيَكُنِ ٱلمَكْتَبُ نَظيفاً». خَرَجَ ٱلمُعَلِّمُ وَدَخَلَتِ المِكْنَسَةُ. كانَتْ أَطْوَلَ مِنّي، فَبَذَلْتُ جُهْداً كَبيراً في ٱسْتِعْمالِها، وَكانَ الطّابِعُ عَلى ٱلآلَةِ ٱلكاتِبَةِ يُرْشِدُني: «هكَذا... هكَذا...»، وَتَبِعْتُ التَّعْليماتِ حتّى فَرَغْتُ مِنَ ٱلمَكْتَبِ، وَلَمْ أكَدْ ألْتَقِطُ أنْفاسي حَتّى دَخَلَ سائِقُ ٱلمُعَلِّمِ مِنْ

جَديدٍ قائِلاً: «آحْمِلْ هذِهِ آلأَغْراضَ إلى بَيْتِ آلمُعَلِّمِ»، حَمَلْتُها عَلى ظَهْري مُتَرَنِّحاً، وآجْتَزْتُ بِها كيلومِتْرَيْنِ.

هذِهِ أوَّلُ مَرَّةٍ أدْخُلُ بَيْتاً كَهذا، فيهِ أراجيحُ لِلأَطْفالِ، وبَرّادٌ، وغَسّالَةٌ، وغُرَفٌ لا تُحصى. وفيهِ خادِمَةٌ هَرْوَلَتْ صَوْبي، وَأَنْزَلَتِ آلحِمْلَ. نَظَرَتْ إلَيَّ في تَعاطُفٍ واضِحٍ: «أَأَنْتَ جَديدٌ؟»، أوْمَأْتُ بِرَأْسي إيجاباً. عِنْدَئِذٍ آقْتَرَبَتِ آبْنَتا آلمُعَلِّمِ، وَآبْنُهُ الصَّبِيُّ. تَفَحَّصوني بِدِقَّةٍ، وتَبادلوا نَظَراتِ الرِّضا.

قالَتْ إحْدى آلفَتاتَيْنِ: «أَتَذْهَبُ إلى آلمَدْرَسَةِ؟»، أجَبْتُ: «نَعَمْ». قالَتْ: «تَعْرِفُ آلقِراءَةَ إذاً»، أوْمَأْتُ: «نَعَمْ». قالَتْ: «هاتِ مَجَلَّةَ سمير مِنَ آلمَكْتَبَةِ»، وَنَقَدَتْني نِصْفَ ليرَةٍ. رَكَضْتُ عائِداً إلى سوقِ آلمَدينةِ، فَآشْتَرَيْتُ مَجَلَّةً وَعُدْتُ إلى بَيْتِ آلمُعَلِّمِ، وَمِنْ هُناكَ عُدْتُ، ثانِيَةً، إلى آلمَكْتَبِ. قالَ آلمُعَلِّمُ: «أيْنَ كُنْتَ؟»، قُلْتُ: «آشْتَرَيْتُ مَجَلَّةً لِبَناتِكَ»، رَمَقَني في آزْدِراءٍ: «هاتِ قَهْوَةً»، رَكَضْتُ إلى آلمَقْهى.

راكِضاً أُنْجِزُ آلأُمورَ. سَريعٌ أنا، سريعٌ كَسَيّارةِ آلمُعَلِّمِ. سَريعٌ حتّى الإعْياءِ، وَالزّائرونُ كُثُرٌ، والطَّلَباتُ أكْثَرُ، كُلُّهُمْ

يَدْخُلونَ وفي أفواهِهِم كَلِمَةُ «هاتِ». قُلْتُ لِنَفْسي: «لا. سَأَخْتَلِقُ أيَّ أمْرٍ يُسَبِّبُ طَرْدي. لا. لَنْ أصْبِرَ هُنا».

بَعْدَ أُسْبوعٍ مِنْ بَدْءِ ٱلعَمَلِ نَفَّذْتُ تَهْديدي تجاهَ ٱلـمَكْتَبِ ٱلـمَقيتِ. دَخَلَ ٱبْنُ الـمُعَلِّمِ الصَّغيرُ وَرَكَلَني كَعادَتِه، فَرَكَلْتُهُ، بِدَوْري، فَٱرْتَفَعَ عَنِ ٱلأرضِ نِصْفَ مِتْرٍ وَهَوى. قامَ وشَكاني إلى أبيهِ ٱلَّذي ٱكْتَفى بِتَهْدِئَتِهِ. لَمْ يَطْرُدْني. آآه. سَأُخَفِّفُ عَنْ نَفْسِيَ ٱلكَثيرَ إذاً. لَنْ أَشْتَرِيَ شَيْئاً، بَعْدَ ٱليَوْمِ، لِسائقِهِ؛ وفِعْلاً حينَ جاءَني السّائقُ طالِباً شِراءَ عُلْبَةِ تَبْغٍ، قُلْتُ: «إذْهَبْ أنْتَ». ذَهَبَ السّائِقُ وشَكاني إلى ٱلـمُعَلِّمِ. ناداني ٱلـمُعَلَّمُ صارِخاً: «إذْهَبْ إلى بَيْتِكَ. لا نُريدُ آغا».

وفي ٱليَوْمِ الثّاني جَرَّني أبي جَرّاً إلى ٱلـمَكتَبِ. وَشْوَشَ الـمُعَلِّمَ، وَكانَ واضِحاً أنَّ ٱلأخيرَ يَحْتَرِمُ أبي عَلى مَجْدٍ مَضى، فَوافَقَ على ٱسْتِبْقائي.

وَعادَتِ الطَّلَباتُ مِنْ جَديدٍ، لكِنَّ عَزائِي كانَ في التَّعَلُّمِ عَلى ٱلآلَةِ ٱلكاتِبَةِ. فَالطّابِعُ الشّابُّ دَمِثٌ، مَنَحَني أسْرارَ الضَّرْبِ عَلى ٱلآلَةِ مُغْمَضَ ٱلعَيْنَيْنِ. وَكانَ يَسْأَلُني بَيْنَ ٱلحينِ وَٱلحينِ عَنْ فَتَياتِ حَيِّنا.

لَمْ أعْرِفْ في ٱلبِدايَةِ سَبَبَ أسْئِلَتِهِ تِلْكَ، لكِنَّهُ أوْضَحَ ٱلأمْرَ بِنَفْسِهِ. فَهُوَ مُتَزَوِّجٌ، حَديثاً، مِنِ ٱبْنَةِ ٱلحاجّ حَمْزَةَ، ويُريدُ بَعْضَ ما أَعْرِفُهُ عَنْ سيرَةِ ٱلفَتاةِ ٱلَّتي يَفْصِلُ بَيْتَ أبيها عَنْ بَيْتِنا شارِعانِ. وأَجَبْتُهُ أنَّني لا أعْرِفُ ٱلكَثيرَ عَنْها، غَيْرَ أنَّني لَمَحْتُها، مِراراً، تَحْمِلُ صَفيحَةً فارِغَةً لِجَمْعِ الرَّوْثِ. كُنْتُ مُتَأَكِّداً أنْ لَيْسَ في ذَلِكَ ما يُريبُ، فَٱلأمْرُ طَبيعِيٌّ، مُتَوارَثٌ بَيْنَ هؤلاءِ ٱلفُقَراءِ. لكِنَّ الطّابِعَ بوغِتَ بِٱلخَبَرِ.

قالَ لي: «تَزَوَّجْتُها عَلى أنَّها لَمْ تَخْرُجْ مِنْ بَيْتِ أبيها قَطُّ»، وَأضافَ: «أبوها كَذّابٌ. أخَذَ مِنّي مَهْراً لا تَسْتَأْهِلُهُ فَتاةٌ تَجْمَعُ الرَّوْثَ».

لَمْ يَعْنِني أمْرُ زَوْجَتِهِ، ولا أمْرُ والِدِها. أُريدُ، فَقَطْ، أنْ تَنْقَضِيَ أشْهُرُ الصَّيْفِ هذِهِ. فَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتي أتَمَنّى ٱلعَوْدَةَ إلى ٱلمَدْرَسَةِ، لأنْجُوَ مِنْ مَكْتَبِ المُعَلِّمِ ٱلقَصيرِ، ٱلَّذي أقِفُ أمامَهُ في نِهايَةِ كُلِّ أُسْبوعٍ لِيُعْطِيَني خَمْسَ ليراتٍ، وأحْياناً يَرُدُّني قائِلاً: «سَأُعْطيكَ فيما بَعْدُ». وَقَدِ ٱمْتَدَّتْ كَلِمَةُ «فيما بَعْدُ» حتّى نِهايَةِ الصَّيْفِ، وإذْ طالَبْتُهُ بِأَجْري صَرَخَ: «لَمْلَمْتُكَ حَتّى لا تَشْرُدَ في الشَّوارِعِ صَيْفاً، فَلْيَشْكُرْني أهْلُكَ على هذِهِ

النِّعْمَةِ»، فَعُدْتُ إلى آلبَيْتِ مُخْتَنِقاً. سَرَدْتُ آلأمْرَ عَلى أبي فَغَمْغَمَ: «سَأُريهِ»، لكِنَّهُ كانَ أقَلَّ سُلْطَةً مِنْ أنْ يَسْحَلَ آلـمُعَلِّمَ في سوقِ التُّجّارِ، بإشارَةٍ من إصْبَعِهِ، مِثْلَما كانَ يَفْعَلُ، في آلماضي، برِجالٍ أكْبَرَ شَأْناً.

مَضى زَمَنُ أبي. مَضى أنْ يَجْتَمِعَ مِنْ حَوْلِهِ مائَةُ عَتّالٍ بخُطّافاتِهِمْ، صارِخينَ: «مَنْ نُؤَدِّبُ يا سَيِّدَنا آلـمَلّا؟»، وَها هُوَ يَجْلِسُ، كُلَّ يَوْمٍ على طاوِلةٍ في آلمَقْهى، مُرْتَشِفاً شاياً داكِناً، كأنَّما يَنْتَظِرُ النَّفيرَ آلَّذي يوقِظُ القُرى فَتَهْتِفُ: «لَبَّيْكَ»، ويوقِظُ السُّهولَ فَتَنْحَني لِقامَتِهِ السَّنابِلُ.

مَضى زَمَنُكَ أبي، وباتَ كاتِبٌ عَدْلٌ سابِقٌ يَأْكُلُ عَرَقَ طِفْلِكَ أنْتَ!! تبّاً، لكِنَّ زَمَنَ آلـمُعَلِّمِ مَضى أيْضاً. فَآلأرْضُ تَبْتَلِعُ بُذورَها سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ، وَيَبْسُطُ آلجَفافُ ظِلَّه الصِّئْبانِيَّ عَلى السُّهولِ. ومِنْ أجْلِ أنْ تَكْتَمِلَ حَلْقَةُ حِقْدي، هَوى آبْنُ آلـمُعَلِّمِ آلأكْبَرُ مِنْ سورِ آلمَدْرَسَةِ على رَأْسِهِ. دارَ بِهِ آلـمُعَلِّمُ مِنْ طَبيبٍ إلى طَبيبٍ، ومِنْ مَدينَةٍ إلى مَدينَةٍ، ثُمَّ عادَ راضِياً، عَلى مَضَضٍ، بآبْنٍ يَهُزُّهُ صُداعٌ دائِمٌ، وتَشَنُّجاتٌ تُخَلْخِلُ آلعُروقَ. وَلَمْ يَقِفِ آلأمْرُ عِنْدَ هَذا آلحَدِّ، فَقَدْ تَشَرَّدَ مُوَظَّفو آلـمُعَلِّمِ

وَعُمّالُهُ، كَأَنَّما أصابَتْهُم لَعْنَةٌ. فالطّابِعُ عَلى ٱلآلَةِ ٱلكاتِبَةِ ٱبْتُلِيَ بنُكافٍ تَحْتَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ، والنُّكافُ يَقْطَعُ النَّسْلَ. ثُمَّ كَبُرَتِ الدُّمَّلَةُ ٱلحَمْراءُ حَتّى ٱلْتَوى فَمُهُ. وكانَ آخِرُ عَهْدِنا بِهِ يُعَلِّمُ الضَّرْبَ عَلى ٱلآلَةِ ٱلكاتِبَةِ في ٱلمَرْكَزِ الثَّقافِيِّ لمَدينَةِ ٱلقامِشْلي، مُعْتَمِراً حَطَّةً بَيْضاءَ عَلى رَأْسِهِ يَتَقَنَّعُ بِها مِنْ فَداحَةِ التَّشْويهِ ٱلَّذي أصابَ وَجْهَهُ. أمّا سائِقُهُ فَباتَ يَتَنَقَّلُ مِنْ سِجْنٍ إلى سِجْنٍ، وَكُلَّما خَرَجَ ٱرْتَدى ثِياباً كَثِيابِ رِجالِ النِّفْطِ ٱلعَرَبِ السّائِحينَ، حامِلاً حَقيبَةً سَوْداءَ ضَخْمَةً، يَشُدُّ بها غَبِيّاً مِنَ الأغْبِياءِ إلى عَمَلِيَّةِ نَصْبٍ لا تَلْبَثُ أنْ تَكْشِفَها الشُّرْطَةُ.

لَمْ يُغَيِّرِ الرَّجُلُ دَوْرَهُ قَطُّ، وَلَمْ يُغَيِّرْ في أساليبِهِ، أمّا مُتَعَهِّدُ حُقولِ ٱلبَطّيخِ، ذو ٱليَدِ ٱلمَفْلوجَةِ، فَقَدِ ٱرْتَضى بِمَحَطَّةِ ٱلبنزينِ نَصيباً مِمّا لَهُ في ذِمَّةِ المُعَلِّم. لكِنَّ ٱلمَحَطَّةَ النّائِيَةَ عَلى التُّخومِ لَمْ تَكُنْ تَمُرُّ بِها سَيّارَةٌ في ٱلأُسبوعِ، فَأُقْفِلَتْ. وحينَ ضاقَ بِهِ ٱلأمْرُ دَفَعَ زَوْجَةَ ٱبْنِهِ إلى ٱمْتِهانِ ٱلبَغاءِ، فذاعَ صيتُها، وتَمَرَّغَ صيتُه، وقِسْ على ذلِكَ خادِمَتَهُ ٱلَّتي طَلَّقَها زَوْجُها، وعُمّالَ نَقْلِ قَمْحِهِ، ٱلَّذينَ باتوا يَبيعونَ ٱلكازَ على طَنابِرَ تَقودُها ٱلبِغالُ بَيْنَ ٱلحاراتِ، فَلا يُصيبونَ مِنَ الرِّزْقِ إلّا نَزْراً يَسيراً.

هَيْتَ لكَ يا مُعَلِّمُ. هَيْتَ لَكَ، خُذ ما يَمْلِكُ الشِّمالُ مِنْ

هَباءٍ. كاتِبٌ عَدْلٌ كُنْتَ، ونَحْنُ كَتَبَةٌ عُدولٌ عَلى طَريقَتِنا، نُزَوِّقُ النَّصَّ ونَمْهَرُهُ بحافِرِ ٱلحِمارِ، ونُحَرِّضُ ٱلفَجيعَةَ عَلى ٱلفَجيعَةِ. فَهذا دينو الشّابُّ يَجْلِسُ ٱلقُرْفُصاءَ أمامَ بابِ بَيْتِهِ، مَطْعوناً في صَميمِ قَلْبِهِ؛ وها نَحْنُ مُقْتَرِبونَ مِنْه: «هاتِ رِسالَةً دينو. هاتِ رِسالَةً، وسَنَتَدَبَّرُ أمْرَ إيصالِها»، فَيَكْتُبُ دينو: «حَبيبَتي سَأَموتُ. أبوكِ بَغْلٌ وَٱبْنُ بَغْلٍ»، وَنَأْخُذُ الرِّسالَةَ إلى حَبيبَتِهِ، وَهِيَ مُعَلِّمَةٌ ٱبْتِدائِيَّةٌ، وٱبْنَةُ شاعِرٍ كُرْدِيٍّ مَشْهورٍ، فَتَرُدُّ: «حَبيبي إذا أرَدْتَ أنْ تَخْتَطِفَني فَٱفْعَلْ، لكِنَّني أخافُ عَلَيْكَ». ويَغيبُ دينو مِنَ ٱلحَنَقِ عَلى أحْوالِهِ. لَقَدْ بَذَلَ ٱلمُسْتَحيلَ لِيُقْنِعَ أباها بِتَزْويجِها مِنْه، فَرَفَضَ. عَلَّلَ دينو ٱلمَسْأَلَةَ بِسوءِ أحْوالِهِ ٱلمادِّيَّةِ، فَسَهِرَ سَنَتَيْنِ حتّى نالَ شَهادَةَ دارِ ٱلمُعَلِّمينَ، وَصارَ مُعَلِّماً في مَدْرَسَةٍ ٱبْتِدائِيَّةٍ. غَيْرَ أنَّ ٱلأبَ ظَلَّ عَلى مَوْقِفِهِ.

«ضاعَ دينو»، كُنّا نَقولُها في إشْفاقٍ. لَقَدْ بَدَأَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ ماشِياً. يَقِفُ في ٱلمُنْعَطَفاتِ وَيَحْتَدِمُ، كَأَنَّما يُجادِلُ أشْخاصاً حَقيقِيّينَ. أمّا حالُهُ، في ٱلمَدْرَسَةِ، فَكانَتْ أدْهى، يَجْلِسُ وَراءَ طاوِلَتِهِ وَيَشْرُدُ بِفِكْرِهِ بَعيداً، بَيْنَما يُحَوِّلُ التَّلامِذَةُ ٱلغُرْفَةَ إلى زَريبَةٍ. يَكْتُبونَ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ، ويَنْفُخونَ في دَقيقِ الطَّباشيرِ

فَتَتَبَقَّعُ بِذْلَتُهُ السَّوْداءُ ٱلْمُخَطَّطَةُ، وَيَبْيَضُّ شارِباهُ الدَّقيقانِ. وَأخيراً رَفَعَ ٱلْمُديرُ تَوْصِيَةً بِفَصْلِ «ٱلْمُخْتَلِّ عَقْلِيّاً»، فَفَصَلَتْهُ وِزارَةُ التَّربيَةِ. وها هُوَ يَجْلِسُ ٱلْقُرْفُصاءَ أمامَ بابِ بَيْتِهِ، بَيْنَما نُحَرِّضُهُ ـ نَحْنُ الصِّبْيَةَ ـ عَلى آخِرِ قُفْلٍ سَرَقَ مِفْتاحَهُ ٱلْجُنونُ.

لَمْ نَيْأَسْ، وَلَمْ يَيْأَسْ دينو. نَأْخُذُ رَسائِلَهُ وَنَأْتيهِ بِرَسائِلِها، وَكِلاهُما قانِعانِ بِٱلَّذي تَبَقّى لَهُما.

تَزَوَّجَتِ ٱلْفَتاةُ مِنْ شَخْصٍ آخَرَ، وَظَلَلْنا نَنْقُلُ رَسائِلَ دينو. إنْتَقَلَتِ ٱلْفَتاةُ مِنَ ٱلْمَدينَةِ إلى مَدينَةٍ أُخْرى، وَظَلَلْنا نَنْقُلُ رَسائِلَ دينو. لكِنَّنا كُنّا نَعودُ إلَيْهِ، هذِهِ ٱلْمَرَّةَ، بِرَسائِلَ أشَدَّ حَماسَةً، ذاتِ حُروفٍ وَخَطٍّ رَكيكَيْنِ: «حَبيبي، إنَّني في ٱنْتِظارِكَ بَيْنَ أشْجارِ ٱلْهِلالِيَّةِ». «حَبيبي، سَأَقْتُلُ أبي ٱلْيَوْمَ. تَجَهَّزْ لِنَهْرُبَ إلى تُركيا». «حَبيبي، أعْطِ حامِلَ الرِّسالَةِ ليرَتَيْنِ لِشِراءِ غَرَضٍ لي». «حَبيبي، أنْتَ أجْمَلُ شابٍّ في العالَمِ»، وَيُنَفِّذُ دينو ما تَطْلُبُهُ الرَّسائِلُ.

ودينو لَيْسَ وَحْدَه في ٱلْهَمِّ، فَهَذا ٱبْنُ عَمِّنا، أيْضاً، تَكادُ تَأْخُذُهُ غَمامَةُ قَلْبِهِ السّارِحَةُ. يَشُقُّ قَميصَهُ غَضَباً، ويَعَضُّ على ٱلأبْوابِ: «بِحَقِّ الشَّيْطانِ، مِنْ أيْنَ وَجَدوا هذِهِ الصِّلَةَ؟».

كانَ آبْنُ عَمِّنا يُحِبُّ آبْنَةَ عَمِّهِ، وآلعُرْفُ يُقِرُّ له أنَّهُ أَوْلى مِنْ أيِّ آخَرَ بالزَّواجِ مِنْها. لكِنَّ أُمَّ آلفَتاةِ صَرَخَتْ، في لَحْظَةٍ مِنْ لَحَظاتِ التَّجَلّي: «آلفَتاةُ حَرامٌ عَلَيْهِ. إنّها أُخْتُهُ في الرِّضاعَةِ». وَتَدْعَمُ أقْوالَها بِآلكَثيرِ مِنَ آلوَقائِعِ: «ذَهَبَتْ أُمُّهُ لِجَمْعِ آلقَشِّ مِنَ آلبَيادِرِ، وَتَرَكَتْهُ عِنْدي، حينَ كانَ وَليداً، فأرْضَعْتُهُ». وَتُضيفُ، سائِلَةً زَوْجَةَ عَمِّنا آلأُخْرى: «أتَذْكُرينَ يَوْمَ خِتانِ آبْنِ حَمّو آلأكْبَرِ؟ يَوْمَ ذَبَحْتِ دَجاجَتَكِ آلمِبْياضَةَ فَوَجَدْتِ في بَطْنِها بَيْضَةً بثَلاثَةِ صَفاراتٍ؟ يَوْمَ تَدَحْرَجَتْ عَرَبَةُ حاموش في وادي آلخَنازيرِ؟ يَوْمَ... يَوْمَ». إلخ. وَتَتَذَكَّرُ أُمُّ الشّابِّ الواقِعَةَ فَتُوافِقُها، ويَضيعُ آلأمْرُ على آبْنِ عَمِّنا، فَيَقْتَلِعُ شُجَيْراتِ آللّيفِ مِنْ ساحَةِ آلبَيْتِ في نَوْبَةٍ مَريرةٍ، صارِخاً: «ما هَمَّ؟ فَلْتَكُنْ أُخْتي في الرِّضاعَةِ... أُحِبُّها يا أللَّهُ». وَمَنْ يَجْرُؤُ على قَوْلِ كَلامٍ كَهذا؟ أُخْتُكَ في الرِّضاعَةِ هِيَ أُخْتُكَ. مَنْ أرْضَعَتْهُ آمْرَأَةٌ قَريبَةٌ، أوْ غَريبَةٌ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بناتِها. «أَنُغَيِّرُ الدّينَ؟» يَصْرُخونَ بِهِ. «إهْدَأْ وَآصْبِرْ، فأمامَكَ بَناتُ أعْمامٍ كُثُرٍ غَيْرِ عَمِّكَ هذا... إهْدَأْ»، وَلا يَهْدَأُ آلعاشِقُ.

كانا يَلْتَقِيانِ، كُلَّ صَباحٍ، في آلبَيادِرِ، يَجْمَعُ آلعاشِقُ

لِلْعاشِقَةِ وَلِأُخْتِهِ حُزَمُ ٱلقَشِّ. وَكانَ ٱلأَهْلونَ يَغُضّونَ الطَّرْفَ: «إنّه ٱبْنُ عَمِّها. سَيَتَزَوَّجُها عَلى أيَّةِ حالٍ».

لَقَدِ ٱسْتَغَلَّ العاشِقانِ ذلِكَ الرِّضا ٱلخَفِيَّ، وذاكَ ٱلإغْضاءَ، فَأَمْعَنا في رَشْقِ عُمْرِهِما بالقُبَلِ وباللُّهاثِ الحُلْوِ. وكانَتْ أُخْتُ ٱلعاشِقِ تُسَوِّرُهُما بحُزَمِ ٱلقَشِّ فَيَغيبانِ عَنْ عُيونِ الحاصِداتِ. سَماءٌ مِنَ ٱلقَشِّ وأرْضٌ مِنَ ٱلقَشِّ، وَحَرَكَةٌ لَيِّنَةٌ كَأَنَّما تَطْوي ٱلعُذوبَةُ جِذْعَها وتَحْصُدُ النَّبْضَ السَّكْرانَ. «الكَلْبَةُ... الكَلْبَةُ» يُتَمْتِمُ ٱبْنُ عَمِّنا. «مِنْ أيْنَ ٱجْتَمَعَ لِسَليلَةِ الشَّيْطانِ هذا المَكْرُ؟... يا زَوْجَةَ عَمّي فَلْيأْكُلْكِ السِّلُّ»، وَنُرَدِّدُ نَحْنُ: «آمين»، ثُمَّ نُحَرِّضُهُ، فَيُصْغي كَطِفْلٍ: «فُضَّها يا أحْمَقُ، وسَيَرْضَخونَ. أَشَدُّ ٱلآباءِ وَالأُمَّهاتِ رَفْضاً يَرْضَخونَ صاغِرينَ أمامَ بَكارَةٍ مَهْدورَةٍ يا أَحْمَقُ. فُضَّها فُضَّها». ويَدورُ ٱبْنُ عَمِّنا بِعَيْنَيْهِ عَلى ٱلهواءِ: «إنّها ٱبْنَةُ عَمّي، أَضِنُّ بِها عَلى أمْرٍ كَهذا». وَنُعيدُ ٱلكَرَّةَ: «ٱخْطَفْها، وٱعْقِدْ قِرانَكَ عَلَيْها عِنْدَ شَيْخٍ لا يَعْرِفُ ٱلمَسْأَلَةَ، يا أحْمَقُ»، وَيَرُدُّ مُسْتَسْلِماً: «وأيُّ دَهاءٍ يَنْفَعُ؟ هِيَ أُخْتي مَهْما أعْماني قَلْبي»، وَتَطِنُّ كَلِمَةُ «أُخْتي» كَدَبّورٍ حَوْلَ رَأْسِهِ. فَيَقْرَعُ ٱلهَواءَ بِيَدَيْنِ

هاذِيَتَيْنِ: «إلهي، لِماذا لَمْ تَأْخُذْ روحَ هذِهِ ٱلحَيْزَبونِ قَبْلَ أنْ تُخْبِرَهُمْ؟».

يَهْدَأُ ٱلعاشِقُ حيناً، ويَثورُ حيناً آخَرَ، وَنَحْنُ نَسْتَغِلُّ ٱلحينَيْنِ في أنْ نَبُثَّهُ حِكْمَتَنا ٱلفَجَّةَ: «تَزَوَّجْ أُخْتَها يا أَحْمَقُ، وَسَيَكونُ ٱلأَمْرُ مُبَرِّراً لِتَزورَكَ كُلَّ يَوْمٍ». ويَنْظُرُ ٱبْنُ عَمِّنا إلَيْنا مُسْتَغْرِباً «مِنْ أيْنَ لَكُمْ، أنْتُمْ أيْضاً، هذا الدَّهاءُ يا أوْلادَ ٱلشَّيْطانِ؟ أُخْتُها أُخْتي. ٱبْتَعِدوا عَنّي قَبْلَ أنْ أَرْتَكِبَ حَماقَةً»، وَيَنْهَضُ باحِثاً عَنْ أيِّ شَيْءٍ يَضْرِبُنا بِهِ، فَنُهَرْوِلُ مُبْتَعِدينَ، ثُمَّ نَرْفَعُ خَناصِرَنا في حَرَكَةٍ بَذيئَةٍ: «خُذْ يا عَكْروت... لا تَسْتَأْهِلُ النَّصيحَةَ».

حَرامٌ أنْ تَنْصَحَ عاشِقاً. كُلُّهُمْ يَرْكَبونَ رُؤوسَهُمْ وَلا يُصْغونَ، تَماماً كَٱبْنِ السَّمْكَرِيِّ هذا. وَٱبْنُ السَّمْكَرِيِّ أكْبَرُ مِنّا بِسَنَتَيْنِ، وفيهِ ٱلكَثيرُ مِمّا نَحْسُدُه عَلَيْهِ. غُرَّتُه أوَّلاً؛ غُرَّتُهُ ٱلمُنْسَدِلَةُ عَلى جَبينِه، ٱلَّتي يَرُدُّها حيناً بَعْدَ حينٍ بِيَدِهِ. يا أللَّهُ. أهْلُنا يَمْنعونَنا مِنْ إطالَةِ غُرَرِنا حتّى لا نَبْدوَ مُخَنَّثينَ. وَنَحْسُدُه عَلى تَدْخينِهِ أمامَ والِدِهِ، ثانِياً، بَلْ يُشْعِلُ لَهُ والِدُهُ لفافاتِهِ. يا أللَّهُ. مَنْ يَجْرُؤُ مِنّا عَلى التَّدْخينِ أمامَ والِدِهِ؟، فَآباؤُنا يَشُمّونَ أصابِعَنا وَأفْواهَنا، كُلَّ مَساءٍ، بَحْثاً عَنِ الرّائِحَةِ؛ وفي

كُلِّ مَساءٍ نُضْطَرُّ إلى مَضْغِ ما في الأَرْضِ مِنْ أعْشابٍ، وَأوْراقِ شَجَرٍ، قَبْلَ دُخولِنا إلى بُيوتِنا. وَنَحْسُدُهُ عَلى مِهْنَتِهِ ثالِثاً، وَعَلى مَهارَتِهِ آلَّتي لَنْ نُجارِيَها قَطُّ: يُشْعِلُ مَوْقِدَ آلكازِ، وَيَضَعُ فَوْقَهُ مِطْرَقَةً صَغيرَةً مُسَنَّنَةً حتّى يَحْمى حَديدُها، وإذْ يَتَوَهَّجُ الرَّأْسُ آلحَديدِيُّ يَرْفَعُها بِيَدٍ، مُمْسِكاً بِقَضيبٍ دَقيقٍ مِنَ آلقَصْديرِ في يَدِهِ آلأُخْرى، وَيُقَرِّبُهُما مِنَ آلآلَةِ المُرادِ تَصْليحُها فَيَلْحَمُ الثُّقوبَ والشُّقوقَ، وَبَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ يُمَرِّرُ رَأْسَ آلمِطْرَقَةِ فَوْقَ قِطْعَةٍ مِنْ حَجَرِ النَّشادِرِ فَيَعْلو دُخانٌ أَزْرَقُ ذو رائِحَةٍ كَريهَةٍ. آهٍ، حَجَرُ النَّشادِرِ يُنَظِّفُ آلمِطْرَقَةَ مِنَ آلقَصْديرِ العالِقِ بِها. وَآلأَمْرُ كُلُّهُ مُمْتِعٌ، وَآلأَكْثَرُ مُتْعَةً مُراقَبَتُنا لَهُ، وَهُوَ يَمُدُّ بِرَأْسِهِ مِنْ بابِ بَسْطَتِهِ آلخَشَبِيَّةِ لِيَرى آبْنَةَ جارِهِ آلمُهَرِّبِ حسّو.

نَقولُ لَهُ: ما لَكَ وَآبْنَةَ حَسّو يا أَحْمَقُ؟ أبوها ماهِرٌ في التَّصْويبِ بِبُنْدُقِيَّتِهِ، وَلا يُخْطِىءُ هَدَفاً عَلى مَبْعَدَةِ مِلْيونِ مِتْرٍ يا أَحْمَقُ»، ويُغْضي آبْنُ السَّمْكَرِيِّ مُتَفَكِّراً. بَيْنَما نُكْمِلُ نَحْنُ: «أخوها يا أَحْمَقُ. أخوها أَمْهَرُ مَنْ يَدْلُقُ آلأَحْشاءَ بِسِكّينِهِ في ثانِيَةٍ واحِدَةٍ يا أَحْمَقُ». ويَزْدادُ آبْنُ السَّمْكَرِيِّ إغْضاءً. لكِنَّ آلإشاراتِ بِآلأَيْدي، وآلغَمْزاتِ بِآلأَعْيُنِ، تَمْلَأُ آلمَسافَةَ بَيْنَ بَسْطَتِهِ

وَبَيْتِ حَسّو، حين تُطِلُّ آلفَتاةُ آلـمُتَوَرِّدَةُ أبَداً. وَكُنّا، كُلَّما آسْتَرْسَلا، قَطَعْنا بَيْنَهُما ذلِكَ السِّلْكَ الرّوحانِيَّ آلـمُتَوَهِّجَ بِصَخَبِنا: «عَوافي... عَوافي. يَلّلا يا حِمارَ آلـحُبِّ، يا منديلي»، خالِطينَ كَلِماتِ آلأغاني، آلَّتي لا نُتْقِنُها، بالنَّهيقِ والنُّباحِ، فَيُضْطَرّانِ إلى التَّراجُعِ، كُلٌّ إلى مَمْلَكَةِ شجووونه.

غَيْرَ أنَّ زَميلَنا أوسمان آلأعْرَجَ لَمْ يَكُنْ يُشارِكُنا التَّفَكُّهَ بِآلعاشِقَيْنِ. يُراقِبُ آلأَمْرَ كُلَّهُ في آنْطِواءٍ، وَيَتَنَهَّدُ عالِياً. «ما دَهاكَ أوسمان؟ هَيّا آنْهَقْ»، نَصْرُخ بِهِ، ويَظَلُّ صامِتاً. «أُرْقُصْ عَلى رِجْلِكَ آلعَرْجاءِ أوسمان»، وَيَظَلُّ صامِتاً. «صَفِّرْ أوسمان»، وَيَظَلُّ صامِتاً.

«إنّه يُحِبُّها» يَقولُ لَنا آبْنُ السَّمْكَرِيِّ، فَتُباغِتُنا كَلِماتُهُ. وَيُضيفُ شارِحاً: «يَدْخُلُ إلى بَيْتِ حَسّو بِحُجَّةِ مُساعَدَةِ آبْنِهِ في دُروسِ آلـحِسابِ، وَيَتَوَدَّدُ إلى آبْنَتِه. آسْأَلوني، أنا أعْرِف». يا أللَّهُ، كَيْفَ كَبُرَ أوسمان فَجْأَةً؟ أوسمان مِنْ عُمْرِنا، وها نَحْنُ نَبْحَثُ أمامَ بَوّاباتِ قُلوبِنا عَنْ أثَرٍ لِفَتاةٍ، فَلا نَجِدُ شَيْئاً. لَمْ تَقْتَرِبْ أُنْثى بَعْدُ؛ أمّا أوسمان!!! يا أللَّهُ، سَبَقَنا آلأَحْمَقُ، سَبَقَتْنا آلـحَرْبُ الصّامِتَةُ آللاّمُتَكافِئَةُ بَيْنَ آلغَريمَيْنِ: آلأعْرَجِ، وَآبْنِ السَّمْكَرِيِّ.

بِرَغْمِ إعْجابنا بِآبْنِ السَّمْكَرِيِّ نَأْخُذُ جانِبَ آلأعْرَجِ، لكِنْ ما آلحيلَةُ؟ الفَتاةُ لا تُحِبُّ آلأعْرَجَ. نَقِفُ، وَقِحينَ، أمامَ بابِ مَدْرَسَةِ آلبَناتِ، وَنَدْفَعُ بِرِسالَةٍ إلَيْها فَتَرُدُّها إلَيْنا في حَياءٍ. نَتْبَعُها هامِسينَ: «الرِّسالَةُ مِنْ أوسمان»، فَتَلْتَفِتُ هامِسَةً بِدَوْرِها: «فَلْيَأْكُلْ رِسالَتَهُ».

عِنْدَئِذٍ نَتَوَعَّدُها: «سَنَلْحِمُ مُؤَخَّرَةَ آبْنِ السَّمْكَرِيِّ بِقَصْديرِهِ».

نَتْرُكُ آلفَتاةَ لِحالِها بَعْدَ التَّهْديدِ، مُلْتَفِتينَ حَوْلَنا، كَأَنَّما باغَتَتْنا سُحُبٌ في غَيْرِ أوانِها: «يا لَلسِّرْبِ آلجَميلِ»، فَتَياتٌ مِنْ أعْمارِنا، وَفَتَياتٌ أكْبَرُ قَليلاً، أوْ أصْغَرُ. مُذَنَّبٌ ساحِرٌ مِنَ الشُّعورِ السَّوْداءِ وآلمَراويلِ. مُذَنَّبٌ آخْتَرَقَ مَجالاتِ أرْواحِنا فَجْأَةً، وَمَرايا تَطايَرَتْ فَرَأَيْنا صُوَرَنا. يا لَلْهَوْلِ. رَكَضْنا نَشْتَري أمْشاطاً، وَدِهاناتٍ لِلشَّعْرِ ولِلأَحْذِيَةِ: «فَلْنَكُنْ لائِقينَ بأعْمارِنا بَعْدَ آليَوْمِ».

هكَذا بَدَأَتِ الدَّوْرَةُ آلمُخْمَلِيَّةُ لإجّاصاتِ دَمِنا، وَصِرْنا نَقِفُ أمامَ أبْوابِ مَدارِسِ آلبَناتِ بِبَناطيلِنا آلَّتي نَضَعُ فَوْقَها آلفُرُشَ، لَيْلاً، لِتُحافِظَ عَلى طَيّاتِ أناقَتِها، وَبِشُعورِنا آلَّتي لا تَقِلُّ آلْتِماعاً عَنْ أحْذِيَتِنا. وَرَأَيْنا، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، كَمْ سَبَقَنا آلآخَرونَ: فِتْيانٌ عَلى الدَّرّاجاتِ. فِتْيانٌ بِقُبَّعاتٍ تُرْكِيَّةٍ لِلَفْتِ آلأنْظارِ. فِتْيانٌ بِبَناطيلَ

واسِعَةٍ مِنَ ٱلأسْفَلِ، وبِأَحْزِمَةٍ مُرَقَّطَةٍ. فِتْيانٌ في قُمْصانٍ نارِيَّةٍ. فِتْيانٌ بِشُعورٍ مُمَشَّطَةٍ إلى وَراءَ، وَبِسوالِفَ طويلَةٍ. يا أَللَّهُ، مِنْ أيْنَ نَأْتي بسَوالِفَ؟ لِحانا لَمْ تَنْبُتْ بَعْدُ، فَلْنَصْنَعِ السَّوالِفَ. وَقَدْ صَنَعْناها بدِهانِ ٱلأحْذِيَةِ الأسْوَدِ. فَكانَتْ تَسيلُ عَلى ذُقونِنا حينَ نَعْرَقُ. وكانَ ٱلفِتْيانُ، هؤلاءِ يَكْتَفونَ مِنْ طَرائِدِهِمْ بِٱبْتِسامَةٍ، أوْ تَلْويحَةٍ سِرِّيَّةٍ. وَقَرَّرْنا أنْ نَكْتَفِيَ، نَحْنُ أيْضاً، بِذلِكَ؛ لكِنْ لَمْ يُلَوِّحْ لَنا أحَدٌ.

«إذاً، عَلَيْنا أنْ نَعْرِضَ مَقْدِراتِنا ٱلخاصَّةَ»، يَقولُها واحِدُنا لِلآخَرِ، ثُمّ يَسْتَدْرِكُ: «ما هِيَ مَقْدِراتُنا ٱلخاصَّةُ؟». لَيْسَتْ لَدَيْنا ـ حَقّاً ـ أيَّةُ مَقْدِرَةٍ مُهَذَّبَةٍ لِلَفْتِ أنْظارِ ٱلفَتَياتِ. سَكاكينُنا ٱلَّتي تَحْتَ ٱلقُمْصانِ؟ لا، لَيْسَتْ لِلعَرْضِ. مَهارَتُنا في ٱسْتِدْراجِ الدَّجاجِ بحُبوبِ ٱلعَدَسِ لِسَرِقَتِها؟ لا، لَيْسَتْ لِلْعَرْضِ. أقْنِعَتُنا ٱلمُخيفَةُ ٱلمَصْنوعَةُ مِنَ الكَتّانِ وٱلخَيْشِ؟ لا، لَيْسَتْ لِلْعَرْضِ. سُرْعَتُنا في خَلْعِ ٱلقِطَعِ النُّحاسِيَّةِ مِنَ السَّيّاراتِ لِبَيْعِها؟ لا، لَيْسَتْ لِلْعَرْضِ. حِيَلُنا في ٱلاخْتِباءِ داخِلَ مَراحيضِ السّينَما، في ٱلأوْقاتِ ٱلفاصِلَةِ بَيْنَ عُروضِها؟ لا. لَيْسَتْ لِلْعَرْضِ. شَفَراتُنا ٱلَّتي نَسْرِقُها مِنْ آبائِنا لِنَقْطَعَ بِها حِبالَ عَرباتِ ٱلبَطّيخِ؟ لا،

لَيْسَتْ لِلْعَرْضِ. جساراتُنا بَيْنَ المَقابِرِ لَيْلاً، وإقْلاقُنا لِلْمَوْتى؟ لا، لَيْسَتْ لِلْعَرْضِ.

وَتَعْتَرينا نَوْبَةٌ تَتَفَتَّحُ فيها فَظاظاتُ أرْواحِنا، فَٱلخاسِرُ خاسِرٌ: عَلَيْنا وَعَلَيْهِنَّ إذاً.

نَصْعَدُ فَوْقَ أسْوارِ ٱلمَدارِسِ، في أوْقاتِ ٱسْتِراحَةِ ٱلفَتَياتِ، مالِئِينَ جُيوبَنا بحَصىً صَغيرٍ فنَرْشُقُهُنَّ بِهِ. وإذْ نُفْرِطُ في لَهْوِنا السَّمِجِ يَذْهَبْنَ إلى ناظِراتِهِنَّ، فَتَخْرُجُ النّاظِراتُ إلَيْنا. بَعْضُهُنَّ عَصَبِيّاتٌ، يَصْرُخْنَ: «أوْلادُ شوارِع. بِئْسَ التَّرْبِيَةُ»، وبَعْضُهُنَّ يُعَنِّفْنَنا في لِينٍ: «أَلَيْسَ لَكُمْ أخَواتٌ؟ ماذا لَوْ رَأَيْتُم شُبّاناً يَقْذِفونَ أخَواتِكُم بِٱلحَصى؟ أتَرْضَوْنَ؟»، فَلا نَجِدُ جَواباً، بَلْ نَنْسَلُّ نازِلينَ في خَجَلٍ، وإمّا ٱخْتَفَتِ النّاظِراتُ في مَكاتِبِهِنَّ المُغْلَقَةِ عُدْنا صاعِدينَ. أمّا خارِجَ ٱلأسْوارِ فالطَّيْشُ عَلى غارِبِهِ. فَفي كُلِّ يَوْمٍ نَخْتارُ ضَحِيَّةً واحِدَةً مِنْ بَيْنِ السِّرْبِ، فَنَتْبَعُها حَتّى بَيْتِها: «تَحَنّي يا حلْوَة». «يسْلم ٱلخَصْرُ». «ٱلبِنْت مِنْ أُمِّها». «حَنانَكَ يا دَلَع». «دلال... أمان»... إلخ. لَقَدْ صِرْنَ، إذا بَدَوْنا في الشّارِعِ، يَنْزِعْنَ، بَعْضُهُنَّ إلى بَعْضٍ، جَماعَةً جَماعَةً. كُلُّ سَبْعِ بَناتٍ يوصِلْنَ واحِدَةً يَكونُ بَيْتُها ٱلأبْعَدَ

بَيْنَهُنَّ، ومِنْ ثَمَّ توصِلُ ٱلبَقِيَّةُ واحِدَةً أُخْرى، وهكَذا. حتّى لا يَتْرُكْنَ لَنا مَجالاً لِلاَسْتِفْرادِ.

لَمْ تَسْتَهْوِنا فَتاةٌ. ٱلأمرُ مَحْضُ عَبَثٍ بَعْدُ. لكِنَّ أعْماقَنا تَسْتَجْدي نَظْرَةَ إعْجابٍ واحِدَةً فَلا تَجِدُها. يا أللَّهُ: حَرَكاتُنا ٱلبَهْلَوانِيَّةُ هَباءٌ، وَهَباءٌ ثِيابُنا ٱلمَكْوِيَّةُ، وأحْذِيَتُنا ٱلمُلْتَمِعَةُ كَعُيونِنا. يا أللَّهُ: ضِحْكَةٌ أو ٱلْتِفاتَةٌ. لا أكْثَرَ. تَبّاً لَهُنَّ. تَبّاً لهذِهِ التِّلْميذَةِ ٱلخَرْساءِ ٱلَّتي لا يَرْفَعُ سُلُو عَيْنَيْهِ عَنْها. ما ٱلَّذي ٱسْتَهْواهُ فيها؟ جَميلَةٌ مُتَوَرِّدَةٌ، كَأنَّها خَرَجَتْ مِنْ تُوَيْجٍ أبْيَضَ، لكِنَّها خَرْساءُ!

باتَ سُلُو يَتَخَلَّفُ عَنِ ٱلآخَرينَ، فَالنّاظِرَةُ هِيَ آخِرُ مَنْ يُغادِرُ ٱلمَدْرَسَةَ، وٱلخَرْساءُ ٱبْنَتُها. تَمْضِيانِ مَعاً. جَميلَتَيْنِ، مِلْءُ مِشْيَتِهِما أُبَّهَةُ ٱلمَلِكاتِ. ويَمْضي سُلُو خَلْفَهُما.

وَبَيْتُ النّاظِرَةِ قَريبٌ مِنَ ٱلمَدْرَسَةِ. بَيْتٌ قِرْميدِيٌّ قَديمٌ، يَعْبَقُ برائِحَةِ سُلْطانٍ ما: بَوّابَةٌ خَشَبِيَّةٌ. وَمَمَرٌّ مِنَ الرُّخامِ يَقْطَعُ ٱلحَديقَةَ نِصْفَيْنِ فَيَنْحَني كُلُّ نِصْفٍ بِزَهَراتِهِ لِلدّاخِلينَ. أمّا داخِلُ ٱلبَيْتِ فَلَمْ نَرَهُ، لكِنّ نَغَماتِ ٱلپيانو تَشي بٱلكَثيرِ.

نَحْنُ لَمْ نَرَ پِيانو إلّا في ٱلأفْلامِ السّينَمائِيَّةِ، وٱلخَرْساءُ

تَمْلِكُ پْيانو. آآه سُلُو. تَقولُ صَديقاتُها إنَّ آلخَرْساءَ راقِصَةٌ بارِعَةٌ، وَعازِفَةٌ، وَأَشَدُّ التِّلْميذاتِ ذَكاءً. لا تُجيدُ النُّطْقَ، وتُخاطِبُ آلأُخْرَياتِ كِتابَةً. آهٍ سُلُو. وَسُلُو لا يُبارِحُ آلحَيَّ ذاكَ؛ الحَيَّ الَّذي آجْتَمَعَتْ فيهِ بُيوتُ النُّخْبَةِ مِنْ مُوَظَّفي الدَّوْلَةِ. وَكَلَّلَهُ آللَّهُ بحَدائِقَ تَهْذي مِنْ فَرْطِ آلهَنْدَسَةِ.

غَريبٌ سُلُو، قابِعٌ كِسِلَّوْرٍ بَرِّيٍّ قُرْبَ آلأَسْوارِ آلمُطَرَّزَةِ بِآللَّبْلابِ، كَأَنَّما أخْطَأَ الطَّريقَ. غَريبٌ كَنَباتِ آلأَرْضِ آلبَعْلِ، تَراهُ آلخَرْساءُ، مِراراً، قُبالَ بَوّابَةِ بَيْتِها، حينَ تَخْرُجُ إلى آلحَديقَةِ، فَتُشيرُ بِيَدِها في آسْتِهْجانٍ: «ماذا تُريدُ؟». حَرَكَةُ يَدٍ تَقولُ لَهُ: «ماذا تُريدُ؟». آهٍ سُلُو. ماذا تُريدُ حَقّاً؟، تُغْضي وَقَدِ آغْرَوْرَقَتْ عَيْناكَ. حَنينَ أَخْرَسَ إلى أخْرَسَ، وَوَحْدَكَ تُعيدُ تَرْتيبَ آلإشاراتِ. ماذا لو أشارَتْ إلَيْكَ: «تَعالَ؟». ماذا لَوْ حَضَنَتْكَ وَقادَتْكَ. عَلى آلمَمَرِّ الرُّخامِيِّ، إلى آلبَيْتِ، قائِلَةً لِأُمِّها: «هذا بَطَلي؟». سَتَجْلِسُ مَزْهُوّاً بِنَفْسِكَ، وَهِيَ تَعْزِفُ عَلى آلبيانو. سَتُدَلِّلُكَ، وَسَيُدَلِّلُكَ أهْلُها. إنْشَقَّ حُلْمُهُم وَخَرَجْتَ أنْتَ، فَريداً بِبَسالَتِكَ وتَعاليكَ، فَريداً بِهُدوئِكَ وَرَزانَةِ حَرَكاتِكَ، فَريداً كَأَكْثَرِ ما يَكونُ آدَمِيٌّ. وَسَتُشيرُ إلَيْكَ

صَديقاتُ ٱلخَرْساءِ في إعْجابٍ. وَسَتَكْتُبُ ٱلخَرْساءُ لصَديقاتِها: «هذا لي» كُلَّما سَأَلْنَها. آآه سُلُو. أَفِقْ أيُّها ٱلأَحْمَقُ. هذا بَيْتُ بازر باشي، سَليلِ بَرْقِ ٱلآسِتانَةِ، فَمَنْ تَكونُ أنْتَ؟

ٱليَوْمَ عيدٌ وَطَنِيٌّ، عيدٌ مِنَ ٱلأعْيادِ ٱلمِلْيونِ لِحادِثَةٍ لَمْ يَرْفَعْ فيها أحَدٌ إصْبَعَ ٱحْتِجاجٍ، وَمَعَ ذلِكَ هُوَ عيدٌ. والتَّرْتيباتُ ٱلاَحْتِفاليَّةُ قائِمَةٌ مُنْذُ عَشْرَةِ أيّامٍ. وَلَسَوْفَ تُتَوَّجُ ٱلآنَ.

سينَما حَدّاد قَدَّمتْ صالَتَها مَجّاناً لِلْحَفْلِ. جاءَ خَطيبٌ وَمَضى خَطيبٌ. جاءَتْ وَصْلَةٌ مَسْرَحِيَّةٌ، وَمَضَتْ وَصْلَةٌ مَسْرَحِيَّةٌ. لَمْ نَكُنْ نَرى شَيْئاً، فالزِّحامُ على أَشُدِّهِ، وَمِثْلُنا لا يَجِدُ مُتَّسَعاً لَهُ بَيْنَ ٱلمَناكِبِ ٱلعَريضَةِ، وَبَيْنَ أحْزِمَةِ الشُّرْطَةِ، لكِنَّنا نَسْمَعُ ما يَجْري عَبْرَ مُكَبِّراتِ الصَّوْتِ ذاتِ ٱلخَشْخَشَةِ والصَّفيرِ وَالرَّنينِ ٱلمُتَّصِلِ كَقَرْعِ الصُّنوجِ.

نَتَدافَعُ وَنَتَراجَعُ. نَصْعَدُ ٱلأكْتافَ وَنَسْقُطُ أرْضاً. أمّا سُلُو فَيَدُهُ عَلى قَلْبِهِ.

هَتَفَ ٱلمُكَبِّرُ: «والآنَ نُقَدِّمُ لَكُمْ جُمانَةَ بازر باشي». يا إلهَ ٱلأَرْضِ. قَفَزَ سُلُو مِنْ فَوْقِ الرُّؤوسِ، وَتَعَلَّقَ بقُضْبانِ بَوّابَةِ السّينَما ٱلخارِجِيَّةِ. جَذَبَتْهُ أيْدٍ كَثيرَةٌ حَتّى تَمَزَّقَ قَميصُهُ مِنَ ٱلكَتِفِ، وَلَمْ

يَنْزِلْ. وَها هُوَ يَراها: جُمانَةُ الخَرْساءُ في ثَوْبٍ أبْيَضَ فَضْفاضٍ، تَنْتَقِلُ كَٱلإوَزَّةِ مِنْ جِهَةٍ إلى جِهَةٍ، مُنْحَنِيَةً، مائِلَةً، مَشْدودَةً، قافِزَةً، مومِئَةً، مُبْتَسِمَةً، غاضِبَةً، رَقيقَةً، قاسِيَةً، بَطيئَةً، مُهَرْوِلَةً. وَصَرَخَ سُلُو: «إنَّها لي. إنَّها لي»، وٱلْتَصَقَ أكْثَرَ بِٱلقُضْبانِ، تَكادُ عَيْناهُ تَحْتَضِنانِ ٱلحُضورَ، وٱلعِمارَةَ، وٱلخَرْساءَ، وٱلأعْلامَ ٱلوَرَقِيَّةَ، وٱلعيدَ ٱلمِلْيونَ للتَّواريخِ الوَطَنِيَّةِ. «جُماااانة، أنا هُنا».

أيُّ نَفيرٍ هذا؟ أيُّ دُروعٍ هذِهِ ٱلَّتي تَخْتَرِقُها الضَّرَباتُ ٱلعَمْياءُ لِقَلْبِ سُلُو؟. بُمْ... بُمْ... الجِيادُ تَعَضُّ ٱلجِيادَ، وٱلحَدائِقُ تَشُقُّ ٱلحَدائِقَ بِمَحاريثَ مِنَ الرُّخامِ، فَتَتَبَدّى ٱلهُوَّةُ ٱلمُعْتِمَةُ نابِضَةً بِسَراطينِها. «هاتِ سُلَّماً سُلُو. هات ٱلمَنْجَنيقَ، وَالزِّئْبَقَ ٱلمَصْهورَ»، تُتَمْتِمُ أعْماقُهُ؛ وَيَحْتَدِمُ فَيَعْوي: «ٱبْتَعِدوا... إنَّها لي».

لا، لَنْ يَبْتَعِدَ أحَدٌ. سَيَبْقى ٱلمُشاهِدونَ حتّى آخِرِ مِصْباحٍ كَهْرَبائِيٍّ يُطْفَأُ في الصّالَةِ. أمّا مَنْجَنيقاتُ أعْماقِ سُلُو فَما مِنْ رُماةٍ يَدُكُّونَ بِها السّورَ ٱلآدَمِيَّ، بَلْ تَتَدَحْرَجُ مِنْ سُفوحِ نَبْضِهِ، وَتَتَحَطَّمُ في هاوِيَةِ ٱلقَلْبِ.

لَقَدِ ٱنْفَضَّ ٱلجَمْعُ ٱلآنَ، حَتّى باعَةُ بُذورِ ٱلبَطّيخِ وٱليَقْطينِ دَفَعوا عَرَباتِهِمْ أمامَهُمْ، وَمَضَوْا. لَمْ يَبْقَ إلّاكَ سُلُو، وأنْتَ

تَدْري، سَتَخْرُجُ ٱلخَرْساءُ، بَعْدَ قَليلٍ، تُمْطِرُها أُمُّها مِنْ خَلْفِها بِالثَّناءِ وَٱبْتِسامات الرِّضا. سَتَقِفانِ قَليلاً دونَما ٱلْتِفاتٍ إلَيْكَ؛ دونَما ٱلْتِفاتٍ إلى عَيْنَيْكَ ٱلمُحْتَضِنَتَيْنِ أعْشاشَ روحِكَ. وَسَيَأْتي ٱلأبُ في سَيّارَتِهِ السَّوْداءِ، يومِىءُ لَهُما فَتَصْعَدانِ. سَتَلْحَقُ بالسَّيّارَةِ عَشْرَ خُطُواتٍ ثُمَّ تَقِفُ. لكِنَّ عَيْنَيْكَ سَتُكْمِلانِ التَّحْقيقَ كَعُصْفورَيْ نِمْنِمَةٍ، وَسَتَرْتَطِمانِ طَويلاً بالزُّجاجِ في مُحاوَلَةٍ أخيرَةٍ لاَسْتِدْراجِ أحَدٍ إلى ٱلاَلْتِفاتِ... هَيْهاتِ سُلُو. سَيُعْشِيكَ بَرْقُ ٱلآسِتانَةِ، فَٱرْجِعْ أيُّها ٱلأحْمَقُ.

وَرَجَعَ سُلُو، تارِكاً خَلْفَهُ حَيَّ مُوَظَّفي الدَّوْلَةِ، تارِكاً سُيوفَهُ ٱللَّبْلابِيَّةَ، وَبَراعِمَهُ، وَغَماماتِ دَمِهِ. رَجَعَ عَنيفاً مُوحِشاً، يُقابِلُ التَّحِيَّةَ بشَتيمَةٍ، وَيُغادِرُ ٱلبَيْتَ لِأتْفَهِ سَبَبٍ، فَلا يَعودُ إلّا بَعْدَ أيّامٍ.

في صَيْفِ تِلْكَ السَّنَةِ ٱلَّتي شَهِدَتْ ميلادَ قَلْبِهِ، ٱسْتَأْجَرَ والِدُهُ قِطْعَةَ أرْضٍ مِنَ ٱلبَلَدِيَّةِ، وَصارَ، هو، حارِساً عَلى أكْياسِ القَمْحِ فيها. وحِراسَةُ ٱلأكْياسِ مِهْنَةٌ مَوْسِمِيَّةٌ، دَرَجَ ٱلكَثيرونَ عَلى ٱمْتِهانِها. فَهِيَ تَدُرُّ ثَرْوَةً أحْياناً، وَتَخْذُلُ في أحايينَ أُخْرى. وٱلمَسْأَلَةُ تَتِمُّ عَلى الوَجْهِ التّالي: يَتَقَدَّمُ شَخْصٌ ما بِطَلَبِ ٱسْتِئْجارِ أرْضٍ مِنْ أراضي ٱلبَلَدِيَّةِ، ٱلَّتي تَقَعُ في ضَواحي

ٱلمَدينَة، مُقابِلَ رَسْمٍ نَقْدِيٍّ بِحَسَبِ ٱلمِساحَةِ ٱلمُسْتَأْجَرَةِ، وإذْ يَحينُ ٱلحَصادُ، يَبْعَثُ ٱلمُزارِعونَ بمَحاصيلِهِم إلى ٱلمَدينَةِ، في شاحِناتٍ كَبيرَةٍ. وَلِأَنَّ البَيْعَ لا يَتِمُّ في ٱلحالِ، فَهُمْ يَسْتَوْدِعونَها في هذهِ ٱلأراضي مُقابِلَ رَسْمٍ عَنْ كُلِّ كيسٍ، بُغْيَةَ ضَمانِ حِراسَتِها. وَكَذلِكَ يَفْعَلُ التُّجّارُ بَيْنَ الصَّفْقَةِ وَالصَّفقةِ، أيْ أنَّ حُرّاسَ ٱلمُسْتَوْدَعاتِ ٱلمَكْشوفَةِ يَتَقاضَوْنَ أُجوراً طَوالَ ٱلمَوْسِمِ، كُلَّما أَفْرَغَتْ شاحِنَةٌ حُمولَتَها، وَكُلَّما ٱسْتَعادَتْ شاحِنَةٌ حُمولَتَها، وَمَضَتْ.

كانَتِ ٱلأَرْضُ ٱلَّتي ٱسْتَأْجَرَها والِدُ سُلُو، قُرْبَ سورِ ٱلمَدْرَسَةِ الثّانَوِيَّةِ، وَمِنْ جِهَةِ ٱلعَراءِ المُطِلِّ على مَقابِرِ السُّرْيانِ، مَلأى بِالشَّوْكِ وَبِجُذوعِ السّوسِ ٱليابِسَةِ الصَّلْبَةِ. وَقَدِ ٱقْتَضى الأَمْرُ مِنْهُ، وَمِنْ أخيهِ الأَصْغَرِ، ثَلاثَةَ أيّامٍ كَدْحاً. يَحْمِلانِ فَأْسَيْهِما وَٱلمِنْكاشَ، وَيَنْكَبّانِ عَلى ٱلأَرْضِ قَرْعاً، ونَقْباً، وتَذْرِيَةً، وَنَكْشاً، وَعَزْقاً، حَتّى ٱسْتَوَتِ ٱلأَخاديدُ وَٱلأَثْلامُ كَصَفْحَةِ دَفْتَرٍ. هكَذا سَتَسْتَقْبِلُ أَرْضُهُما أَوَّلَ شاحِنَةٍ، وحينَ جاءَتِ الشّاحِنَةُ ٱلأولى بِحُمولَتِها، كانَ على سُلُو أَنْ يَبْنِيَ بَرّاكِيَّةً، فَنَصَبَ عَمودَيْنِ قُرْبَ سورِ المَدْرَسَةِ، وَجَعَلَ السَّقْفَ مِنْ كَرْتونٍ

ٱلصَّناديقِ، ثُمَّ مَدَّ عَلى ٱلأَرْضِ كيسَيْنِ مِنَ ٱلخَيْشِ، وَجاءَ بِجَرَّةٍ لِلْماءِ: «جاهِزون».

لَمْ تَكُنْ لَهْواً حِراسَةُ أكْياسِ ٱلقَمْحِ، ٱلَّتي تَراكَمَتْ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، ثلاثَ طَبَقاتٍ عُلُوّاً. حَتّى ٱسْتَحالَتِ ٱلأَرْضُ قَلْعَةً ذاتَ أبْراجٍ، وَأَسْوارٍ، وَمَمَرّاتٍ. «المَوْسِمُ خَيْرٌ» قالَ سُلُو لِأَخيهِ، وَأَضافَ: «حَذارِ نِساءَ النَّوَرِ». فَالمُسْتَوْدَعاتُ، تِلْكَ، يَمْتَزِجُ تُرابُها بِٱلكَثيرِ مِنَ ٱلحِنْطَةِ ٱلمُتَسَرِّبَةِ مِنَ ٱلأَكْياسِ ٱلمَثْقوبَةِ بِفِعْلِ خُطّافاتِ ٱلعَتّالينَ، والحُرّاسُ يَجْمَعونَها عَنِ ٱلأَرْضِ، ثُمَّ يُغَرْبِلونَها فَيَفْصِلونَ التُّرابَ عَنِ ٱلحُبوبِ، وَلَرُبَّما ٱجْتَمَعَ لِواحِدِهِمْ خَمْسونَ كيساً آخِرَ الصَّيفِ، وَثَمَنُها لا يُسْتَهانُ بِهِ. «... وَحَذارِ ٱلحُرّاسَ ٱلآخَرينَ، ٱلَّذين يُجاوِرونَنا. فَبَعْضُهُمْ يَسْرِقُ مِنْ بَعْضٍ. لِتَكُنْ عَيْنُكَ عَلى ٱلجِهَةِ الشِّمالِيَّةِ، حَيْثُ تُتاخِمُنا مُسْتَوْدَعاتٌ أُخْرى».

أمْرٌ واحِدٌ يُنَغِّصُ عَلى سُلُو حَماسَتَهُ في ٱلعِراكِ مِنْ أجْلِ ٱلعَيْشِ، ألا وَهُوَ النَّوْمُ، لَيْلاً، فَوْقَ أكْوامِ ٱلأَكْياسِ، تَحْتَ السَّماءِ ٱلعارِيَةِ، حَيْثُ تَجْتَذِبُ رائِحَةُ ٱلخَيْشِ جَحافِلَ ٱلبَعوضِ الضّاري. يُفيقُ كُلَّ ساعَةٍ. يُفيقُ وَلَوْ تَغَطّى، فَٱلخَراطيمُ الصَّغيرةُ

تَثْقُبُ ٱلأغْطِيَةَ. وَسُلُو، عَلى أيٍّ، يَتَناوَبُ ٱلـحِراسَةَ مَعَ أخيهِ ٱلأصْغَرِ، وذلِكَ ما يُخَفِّفُ عَنْهُ قليلاً، إلى أنْ شارَكَهُما شَخْصٌ ثالِثٌ، لِشَهْرٍ واحِدٍ، ثُمَّ تَرَكَهُما. وكانَ الشَّريكُ، هذا، نَصّاباً بِحَقٍّ، جاءَهُما عَلى أنَّ لَهُ خِبْرَةَ سِنينَ في هذِهِ ٱلـمِهْنَةِ، لكِنَّ خِبْرَتَهُ ٱلـحَقيقِيَّةَ كانَتْ في تَفْريغِ حَفَناتٍ مِنْ كُلِّ كيسٍ، حينَ تَكونُ نَوْبَةُ ٱلـحِراسَةِ لَهُ، فَيَجْمَعُ في ٱللَّيْلةِ ٱلواحِدَةِ سَعَةَ صَفيحَتَيْنِ مِنْ صَفائِحِ الكازِ، ثُمَّ يَأْتي ٱبْنُهُ بِعَرَبَةِ جَرٍّ فَيَنْقُلُها.

لَمْ يَكْتَشِفْ سُلُو الأَمْرَ. بَلْ أخْبَرَهُ أحَدُ الحُرّاسِ المُجاوِرينَ: «أراقَبْتُـمْ شَريكَكُمْ؟»، وَرَدَّ سُلُو: «ما بِهِ»، فَأَرْدَفَ الأَوَّلُ: «راقِبوهُ».

تَصَنَّعَ سُلُو أنَّه مَضى إلى ٱلبَيْتِ، بَعْدَ ٱلعِشاءِ، ثُمَّ قَفَلَ راجِعاً، وَكَمَنَ بَيْنَ مَمَرّاتِ الأَكْياسِ: «ضَبَطْتُكَ» صَرَخَ سُلُو، وأُسْقِطَ في يَدِ الشَّريكِ فَتَلَعْثَمَ. حاوَلَ أنْ يَعْتَذِرَ فَتَلَعْثَمَ. تَمْتَمَ: «لي أطْفالٌ...» وَتَلَعْثَمَ. جاءَ أبو سُلُو، صَباحاً، وَصَفَعَ الشَّريكَ فَتَطايَرَتْ حَطَّتُهُ.

عَادَ سُلُو وأخوه وَحيدَيْنِ، يَتَقاسَمانِ نَوْباتِ النَّهارِ وٱللَّيْلِ.

كانَ سَيِّئاً حَظُّهُما عَلى أيَّةِ حالٍ، فَقَدِ ٱجْتَمَعَتْ، في

أرْضِهِما، أهْراماتٌ مِنْ أكْياسِ ٱلقَمْحِ، لكنَّها لَمْ تُنْقَلْ. الرِّبْحُ أنْ تُنْقَلَ أكْياسٌ وَيَأْتي غَيْرُها. الرِّبْحُ أنْ تَدومَ حَرَكَةُ ٱلآسْتيداعِ وَٱلآسْتِرْجاعِ. فَسِعْرُ حِراسَةِ ٱلكيسِ، عَلى ٱلأرْضِ، هُوَ هُوَ: عَشْرَةُ قُروشٍ، سَواءٌ أبَقِيَ ساعَةً أمْ يَوْماً، أمْ طَوالَ الصَّيْفِ. هذِهِ قاعِدَةٌ وَميثاقٌ.

في آخِرِ الصَّيْفِ بَدَأَ التُّجّارُ يَسْتَرْجِعونَ وَدائِعَهُمْ. فاتَ ٱلأَوانُ عَلى أيٍّ آسْتيداعٍ جَديدٍ. لكِنّ الأَكْثَرَ إثارَةً للغَيْظِ أنْ يَتَبَقّى في أرْضِ سُلُو شُحْنَةٌ صَغيرَةٌ لَمْ يَسْتَرِدَّها صاحِبُها. «القاعِدَةُ قاعِدَةٌ. وٱلميثاقُ ميثاقٌ». عَلَيْهِ أنْ يَحْرُسَ هذه الشُّحْنَةَ إلى ما يَشاءُ ٱللَّهُ.

فَتَحَتِ ٱلمَدارِسُ أبْوابَها وَبَقِيَتِ الشُّحْنَةُ. عَيْنٌ عَلى ٱلأكْياسِ، وَعَيْنٌ عَلى طَريقِ ٱلمَدْرَسَةِ. آآآه سُلُو.

جاءَتْ أوَّلُ عاصِفَةٍ خَريفِيَّةٍ مُحَمَّلَةً بالغُبارِ الأحْمَرِ، وبِقَطَراتٍ مِنَ الطّينِ. آآآه سُلُو.

غَطّى سُلُو الشُّحْنَةَ بشادِرٍ كَبيرٍ خِشْيَةَ أنْ تَبْتَلَّ ٱلأكْياسُ، وهِيَ إنِ آبْتَلَّتْ أَنْتَشَ القَمْحُ في داخِلِها مِنَ الرُّطوبَةِ، وَفَسُدَ... آهِ سُلُو.

لَمْ يَعُدْ يَهُمُّهُ ٱلأَمْرُ. إِنْتَصَفَ ٱلخَريفُ: «فَلْيَذهبْ صاحِبُها إلى فَرْجِ أُمِّهِ».

خَرَجَتْ مِنَ ٱلأَكْياسِ الرَّطْبَةِ سُوَيْقاتٌ خَضْراءُ. إِمْتَدَّتِ السُّوَيْقاتُ مَعَ الشُّهورِ. آهِ سُلُو.

تَشَقَّقَتِ ٱلأَكْياسُ في الرَّبيعِ، ثُمَّ ٱخْتَمَرَتِ السَّنابِلُ قَليلاً قَليلاً، وَلَمْ يَأْتِ صاحِبُها. وحينَ جاءَ الصَّيْفُ الثّاني، كانَتْ كُتْلَةٌ مِنَ الذَّهَبِ تَتَوَهَّجُ بَيْنَ ٱلعَراءِ ٱلمُوَشّى بِرِئاتِ الشَّوْكِ، وَلُهاتِ ٱلجُذوعِ الصَّلْبَةِ لِنَباتِ السوسِ.

كانَ سَيِّئاً حَظُّ سُلُو في الصَّيْفِ ٱلَّذي مَضى، وها هو صِهْرُهُ يَعْرِضُ عَلَيْهِ حَظّاً جَديداً هذا الصَّيْفَ: «إِشْتَغِلْ مَعي مُعاوِناً في شاحِنَتي»، وقَبِلَ ٱلفَتى. «سَأُعَلِّمُكَ تَصْليحَ ٱلمُحَرِّكاتِ»، وَقَبِلَ ٱلفَتى. «سَأُعَلِّمُكَ قِيادَةَ هذا ٱلغولِ»، وَقَبِلَ ٱلفَتى. «سَأَجْعَلُكَ رَجُلاً»، وَقَبِلَ الفَتى. «سَأَمْتَحِنُ صَبْرَكَ غَداً. إِرْتَدِ بِنْطالَكَ ٱلكاكيَّ، وَقَميصَكَ ٱلأَسْوَدَ، وَضَعْ عَلى رَأْسِكَ حَطَّةً»، وَقَبِلَ الفتى.

أَيْقَظَهُ في ٱلفَجْرِ بوقٌ شَيْطانِيٌّ. هَبَّ عَلى عَجَلٍ، ٱرْتَدى ثِيابَهُ وَخَرَجَ. صَعِدَ إلى الشّاحِنَةِ ذاتِ ٱلمُقَدِّمَةِ ٱلعالِيَةِ، وَجَلَسَ

إلى جِوارِ صِهْرِهِ. وَٱلفَجْرُ بارِدٌ عَذْبٌ؛ مَنْ يُصَدِّقُ أنَّ صَباحاً مَصْهوراً كَٱلقارِ يَتَعَقَّبُ أذْيالَهُ؟ الأفْضَلُ أنْ يُصَدِّقَ سُلُو. بَلْ يُصَدِّقُ فِعْلاً، وَيَلْمُسُ الأَمْرَ بِجَبينِهِ. فَٱلعَرَقُ يَنْسابُ خُيوطاً خُيوطاً مِنَ ٱلجِهاتِ كُلِّها، وٱلغِطاءُ الصَّفيحِيُّ لِحُجْرَةِ ٱلقِيادَةِ يَتَلأْلأُ كَٱلحُمّى. وَبَيْنَ ٱلحينِ وَٱلحينِ يَتَطَلَّعُ إلَيْهِ صِهْرُهُ بِطَرْفِ عَيْنِه مُبْتَسِماً: «لُفَّ خِطَّتَكَ حَوْلَ رَأْسِكَ كٱلعَمامَةِ لِتَمْتَصَّ ٱلعَرَقَ، وَشَمِّرْ أكْمامَكَ يا بَطَلُ»، ثُمَّ يَضْغَطُ بِراحَتِهِ عَلى قُرْصِ ٱلبوقِ: طووووطط، مُحَذِّراً ٱلهَواءَ، وَأَشْباحَ ٱلبَراري ٱلمُمْتَدَّةَ على جانِبَيِ ٱلإسْفَلْتِ.

عَرَّجَتِ الشّاحِنَةُ، بَعْدَ خَمَسينَ كيلو مِتْراً، عَلى مَسالِكَ تُرابِيَّةٍ. تَعْلو وَتَهبِطُ بَيْنَ ٱلأحافيرِ. وَعَلى جانِبَيِ ٱلمَسالِكِ كانَتْ قُرىً صَغيرَةٌ تَدورُ عَلى نَفْسِها حينَ تُحاذيها، ثُمَّ تَغيبُ فَيَلوحُ غَيْرُها. «أَجُعْتَ؟» باغَتَهُ صِهْرُهُ. رَدَّ: «نَعَمْ». وَسادَ الصَّمْتُ بَيْنَهُما مِنْ جَديدٍ، غَيْرَ أنَّ أحْشاءَ سُلُو تَتَمَرَّغُ في تَجْويفِها. تَرْتَجُّ وَتَتَلاطَمُ. نَظَرَ إلى صِهْرِهِ بِحَنَقٍ فَٱبْتَسَمَ صِهْرُهُ، وَضَرَبَهُ عَلى فَخْذِهِ: «تَعِبْتَ يا بَطَل؟ نَحْنُ في أَوَّلِ الطَّريقِ، حينَ نَصِلُ سَنَتَناوَلُ إفْطارَنا». تَمْتَمَ سُلُو: «ولِماذا لَيْسَ ٱلآنَ؟»، فَرَدَّ الرَّجُلُ

الصَّلْبُ مِنْ تَحْتِ شارِبَيْهِ الأَشْقَرَيْنِ: «أخافُ أنْ يَنْتابَكَ ٱلغَثَيانُ مِنَ ٱلآرْتِجاجِ. المَعِدَةُ ٱلفارِغَةُ تَحْتَمِلُ، أمّا ٱلمَلأى فَلا». وَٱبْتَلَعَ سُلُو ريقَهُ عَلى مَضَضٍ.

أخيراً وَصَلا. مِساحاتٌ شاسِعَةٌ، وحَصّاداتٌ ذاتُ مَراوِحَ ضَخْمَةٍ، يَتَطايَرُ ٱلقَشُّ مِنْ مُؤَخَّراتِها ٱلمَفْتوحَةِ كَٱلمَداخِنِ، ورِجالٌ يَمْلَؤونَ ٱلأَكْياسَ، وَآخَرونَ يَخيطونَها بِٱلقِنَّبِ. وَهُنا، وَهُناك، رَهْطُ نِساءٍ، يَجْمَعْنَ القَشَّ في حُزَمٍ، وَيَضَعْنَها فَوْقَ ظُهورِ ٱلحَميرِ.

كانَ ثَمَّتَ شاحِنَةٌ أُخْرى تَحْزِمُ حُمولَتَها، وفي ٱنْتِظارِ أنْ يَفْرَغَ ٱلعَتّالونَ مِنْها. نَزَلَ سُلُو وَصِهْرُهُ، حامِلَيْنَ حَبّاتٍ مِنَ ٱلبَنَدورَةِ، وَقُرْصَ جُبْنٍ، ورَغيفَيْ تَنّورٍ. فَرَدا في ظِلِّ شاحِنَتِهِما كيساً فارِغاً، وَجَلَسا يَأْكُلانِ، ثُمّ ٱسْتَلْقَيا لِساعَةٍ أوْ أكْثَرَ.

جاءَ دَوْرُهُما ٱلآنَ. إقْتَرَبَ مِنْهُما ٱلعَتّالونَ وَهَتَفوا: «هَيّا يا شَبابُ»، فَهَتَفَ بِهِ صِهْرُهُ: «إلى ظَهْرِ الشّاحِنَةِ. إصْعَدْ وَصُفَّ ٱلأَكْياسَ». وَسُلُو يَعْرِفُ كَيْفَ يَصُفُّ ٱلأَكْياسَ. يَصْعَدُ ٱلعَتّالونَ إلى الشّاحِنَةِ عَلى سُلَّمٍ، وَيُلْقونَ بِها كَيْفَما ٱتَّفَقَ، وَعَلَيْهِ ـ هُوَ ـ أنْ يُنَضِّدَها هَنْدَسِيّاً. ٱلأمْرُ شاقٌ. ٱلأمْرُ

أمْرُ عَضَلٍ وَسُرْعَةٍ. يُسَوّي سُلُو بخُطّافِهِ زاوِيَةِ آلكيسِ هذا، وُيُدَحْرِجُ ذاكَ، ثُمَّ يَصْعَدُ فَوْقَ كُلِّ كيسٍ، وَيُنَطْنِطُ راقِصاً لِيُثَبِّتَهُ في مَكانِهِ. وَكُلَّما فَتَرَتْ هِمَّتُهُ قَليلاً، صَرَخَ بِهِ صِهْرُهُ: «سُلُو، لَنْ تُصْبِحَ رَجُلاً، هكَذا. خَيَّبْتَ ظَنّي»، فَيُفيقُ سُلُو: «حا. حو. هووو».

آلعَرَقُ في كُلِّ مَكانٍ. عَرَقٌ تَحْتَ آلأقْدامِ، وَفَوْقَ السُلَّمِ وَآلأكْياسِ. عَرَقٌ في شَواريخِ آلعَتّالينَ، وفي بِنْطالِ سُلُو وَفَوْقَ قَدَمَيْهِ آلعارِيَتَيْنِ. عَرَقٌ يَتَطايَرُ مِنَ آلجِباهِ آلَّتي يَحْمِلُ أصْحابُها الأكْياسَ، وَمِنَ آلجِباهِ آلَّتي تَنْحَني فَوْقَ آلأكْياسِ. عَرَقٌ يَتَدَحْرَجُ ضاحِكاً، وَيُرَفْرِفُ، أوْ يَنْقَضُّ، وَيطيرُ. عَرَقٌ كَآلمِهْرَجانِ. خُطَباءُ مِنَ آلعَرَقِ، وَحُضورٌ مِنَ آلعَرَقِ، وأعْلامٌ مِنَ آلعَرَقِ. مَسْرَحٌ وَعِماراتٌ مِنَ آلعَرَقِ. حُكوماتٌ وَشَعْبٌ مِنَ آلعَرَقِ. لُغاتٌ، وَأقْلامٌ. وَحُروبٌ، وَدِيَكَةٌ، مِنَ آلعَرَقِ. عَرَقٌ يَنْشَقُّ عَنِ آلعَرَقِ، وَيَلْهَجُ: «سُبْحانَ اللَّهِ».

«نَعيماً سُلُو» قالَ لَهُ صِهْرُهُ. رَفَعَ سُلُو جَفْنَيْهِ في وَهَنٍ صامِتٍ. لَمْ يَنْتَهِ آلأمْرُ بَعْدُ، عَلَيْهِ أنْ يَحْزِمَ آلحُمولَةَ، آلآنَ، بِحَبْلٍ مَجدولٍ مِنَ آلأسْلاكِ. غَمْغَمَ: «هاتِ آلحَبْلَ»، فَرَدَّ صِهْرُهُ: «إسْتَرِحْ قَليلاً».

لَمْ يَنْتَظِرْ سُلُو. فَتَحَ صُنْدوقَ ٱلعِدَّةِ وَأَخْرَجَ الحَبْلَ الثَّقيلَ: «فَلْنَنْتَهِ». ثُمَّ صَعِدَ إلى سَطْحِ الشّاحِنَةِ. وَعَمَلِيَّةُ ٱلحَزْمِ مُرْهِقَةٌ بِدَوْرِها. يُمَرِّرُ سُلُو ٱلحَبْلَ في ٱلحَلْقاتِ ٱلحَديدِيَّةِ ٱلمَرْصوفَةِ حَوْلَ هَيْكَلِ الشّاحِنَةِ، مُتَنَقِّلاً مِنْ جِهَةٍ إلى جِهَةٍ، باذِلاً جُهْدَهُ لِيَكونَ التَّحْزيمُ مَتيناً. وحينَ فَرَغَ مِنَ الأَمْرِ جَلَسَ إلى جِوارِ صِهْرِهِ، وَقَدْ بَلَغَ مِنْهُ التَّعَبُ مَبْلَغَهُ.

إنَّهما يَعودانِ، وَٱلوَقْتُ عَصْرٌ. القُرى ذاتُها تَدورُ عَلى نَفْسِها وَتَغيبُ، وٱلأَرْضُ تَتَماوَجُ تَحْتَ ٱلحَماوَةِ. نَسِيَ سُلُو جوعَهُ، وَتَذَكَّرَ ٱلغَضَبَ: «تْفو عَلى عُمْرِنا». وإذْ وَصَلا إلى مَحَطَّةِ الميرا في ٱلمَدينَةِ، كانَ المَغيبُ الصّارِمُ يَجْمَعُ تَحْتَ تاجِهِ خُصُلاتِهِ الشَّقْراءَ.

لَيْسَ عَلَيْهِ أنْ يَفْعَلَ شَيْئاً ٱلآنَ. ٱلعَتّالونَ وَحْدَهُمْ، يَتَوَلَّوْنَ ٱلأَمْرَ، فَيُفْرِغونَ الشّاحِناتِ تَحْتَ سُقوفِ تِلْكَ ٱلمَحَطَّةِ ٱلَّتي ٱجْتَمَعَتْ فيها قِطاراتٌ مِنْ عَهْدِ ٱلأَتْراكِ. إيهِ مَحَطَّةَ الميرا. المَكانُ مُزْدَحِمٌ لَيْلَ نَهارَ، وَلا بُيوتَ عَلى مَدى فَرْسَخَيْنِ. مَحَطَّةٌ كَٱلمَدينَةِ، مَسْقوفَةٌ بِٱلكَثيرِ مِنَ الصّاجِ وَٱلحَديدِ، يَأْتي قِطارٌ ويَمْضي قِطارٌ. قِطاراتٌ مُتْعَبَةٌ ذاتُ أنينٍ، وَتُجّارٌ يَبيعونَ

وَيَشْتَرونَ؛ وَغُرَفٌ مِنَ الطّينِ لِمُعامَلاتِ ٱلجمارِكِ، وَأَطْفالٌ يَبيعونَ الطَّوابِعَ ٱلمالِيَّةَ؛ وَميزانٌ أرْضِيٌّ يَزِنُ الشّاحِناتِ ٱلفارِغَةَ وٱلمَلأى؛ وَحُرّاسُ قَمْحٍ؛ ولُصوصٌ يُغَرْبِلونَ التُّرابَ؛ وَعَتّالونَ يَتَشاجَرونَ حيناً، أوْ يَجْلِسونَ في حَلَقاتٍ عَلى أمَلِ رِزْقٍ مُفاجِىءٍ؛ وَدَجاجاتٌ حُكومِيَّةٌ يَمْلِكُها ٱلجُمْرُكِيّونَ وَسائِقو ٱلقِطاراتِ وَمُعاوِنوهُم؛ دَجاجاتٌ تَسْرَحُ وَتَمْرَحُ في أرْضِ ٱلحُبوبِ ٱلوَفيرَةِ؛ دَجاجاتٌ مُوَقَّرَةٌ مُحْتَرَمَةٌ. وَفي ٱلمَحَطَّةِ جِرارٌ كَبيرَةٌ لِلْمِياهِ، مَرْكوزَةٌ عَلى قواعِدَ خَشَبِيَّةٍ، يَشْرَبُ مِنْها النّاسُ، وٱلعَصافيرُ ٱلعَطْشى، وَالدِّيَكَةُ ٱلقادِرَةُ عَلى تَسَلُّقِها. وَثَمَّتَ صَيّادونَ لِلْعصافيرِ. أيْضاً، بِبنادِقِ الضَّغْطِ ٱلهَوائِيِّ، وَنِزاعاتٌ عَلى أوْلَوِيَّةِ الشَّحْنِ أوِ التَّفْريغِ، وَمُلابَساتٌ تَحُلُّها النُّقودُ ٱلَّتي توضَعُ في أيْدي رِجالِ الميرا خِلْسَةً؛ وَخِرافٌ تُهْدى؛ وبَوالِصُ مُزَوَّرَةٌ؛ وأَخْتامٌ يُغْضي ٱلمُوَظَّفونَ عَنْها؛ وَجُباةٌ يَجْبونَ الضَّرائِبَ عَلى ٱلهَواءِ، والظِّلِّ، وَعَلى تَأَخُّرِ الشّاحِناتِ ـ قَسْراً ـ عَنْ تَفْريغِ حُمولاتِها، وَعَلى النَّهارِ وَٱللَّيْلِ. وَثَمَّتَ لُغاتٌ كُرْدِيَّةٌ، وَعَرَبِيَّةٌ، وَتُرْكِيَّةٌ، وَأشورِيَّةٌ، وَسُرْيانِيَّةٌ، وَمُشْتَقّاتُها.

مَحَطَّةُ المَحَطّاتِ هذِهِ. مَحَطَّةُ الرّوحِ وٱلغَضَبِ... وَسُلُو

جائِعٌ لكِنَّ بائِعَ اللَّحْمِ بعجينِ آلكَهْلَ يُنْقِذُهُ. بائِعٌ آرْتَبَطَتْ صورَتُه بصورَةِ آلمَحَطَّةِ. يَحْمِلُ سَلَّةً مَلأى بالرَّقائِقِ الطَّيِّبَةِ، وَكُلَّما فَرَغَتْ عادَ إلى آلمَدينَةِ فَمَلأَها، وَقَفَلَ بِسُرْعَةِ آلبَرْقِ.

في آلفَجْرِ التّالي تَظاهَرَ سُلُو بآسْتِغْراقِهِ في النَّوْمِ، وَظَلَّ بوقُ الشّاحِنَةِ يُعْوِلُ لِأَكْثَرَ مِنْ رُبْعِ ساعَةٍ خارِجَ سورِ بَيْتِهِ. هَزَّهُ والِدُه فَتَناوَمَ. هَزَّتْهُ أُمُّهُ فَتَناوَمَ. أَبْلَغا الصِّهْرَ أنَّ سُلُو مُتْعَبٌ، فَرَدَّ الصِّهْرُ: «لَنْ يُصْبِحَ رَجُلاً»، وَمَضى. ثُمَّ لَمْ يَعُدْ قَطُّ لآصْطِحابِهِ.

سُلُو رَجُلٌ. سُلُو آلَّذي هُو أنا. سلو، سليمو، باقي غزو ـ آبْنُ المَلّا بَرَكات هُوَ أنا. الرَّجُلُ الصَّغيرُ آلهارِبُ، آلمُدَقِّقُ المُتَفَحِّصُ في آلحِساباتِ الكُبْرى للشِّمالِ، هو أنا. وَسُلُو، أيْ أنا، لَمْ يَعُدْ لَدَيْهِ ما يَفْعَلُهُ غَيْرُ آنْتِظارِ مَوْتِ الصّوفي زينو. سَيَموتُ الصّوفي زينو، وَسُلُو يَعْرِفُ ذلِكَ. لَمْ تُنْجِبْ زَوْجَةُ زينو وَلَداً لَهُ، وها هُوَ يَموتُ ميتَتَيْنِ: كُهولَةً وَغَيْظاً. وَغَيْظُهُ غَيْظانِ. واحِدٌ عَلى آبْنٍ لَمْ يَأْتِ، وَثانٍ عَلى بَقَرَتِهِ آلَّتي أَفْلَتَتْ مِنْ زَريبَتِها ذاتَ لَيْلَةٍ، فَظَلَّتْ تَأْكُلُ مِنْ كيسِ النُّخالَةِ حَتّى آنْفَجَرَتْ.

كانَ زينو يَتَمَدَّدُ عَلى فِراشِهِ قُبالَ بابِ الزَّريبَةِ، صارِخاً بَيْنَ

ساعَةٍ وَأُخْرى: «ها هُوَ»، وَتُهَدِّىءُ آمْرَأَتُهُ مِنْ رَوْعِهِ: «لا أحَدَ هُناكَ، زينو»، فَيُتَمْتِمُ: «بَلْ أراهُ كُلَّما فُتِحَ بابُ الزَّريبَةِ». وَيَسْأَلُهُ الزّائِرونَ: «مَنْ تَرى زينو؟»، فَيَرُدُّ: «الشَّخْصَ آلأبْيَضَ آلَّذي قَطَعَ رَسَنَ آلبَقَرَةِ، وَتَرَكَها تَأْكُلُ النُّخالَةَ لِتَموتَ».

بابُ الزَّريبَةِ مُغْلَقٌ أبداً، وَعَيْنُ زينو عَلى آلبابِ. يَتَقَلَّبُ في فِراشِهِ، وَتَتَقَلَّبُ عَيْناهُ في مِحْجَرَيْهِما. عَيْنانِ مِلْؤُهُما آلوَداعُ والتَّشَبُّثُ. وَسُلُو يَأْتيهِ زائِراً كُلَّ يَوْمٍ. لا يَعْرِفُ ما الَّذي شَدَّهُ إلى هذا الرَّجُلِ، لكِنَّهُ يَأْتيهِ كُلَّ يَوْمٍ: «ذَهَبَتِ آلحُكومَةُ يا زينو»، ذَهَبَتِ آلحُكومَةُ الَّتي حَطَّمَتْ مَدينَةَ آلمَلاهي، وَأَتَتْ حُكومَةٌ أُخْرى»، فَيُتَمْتِمُ زينو: «قَلْبي عَلى آلعَصْرِ، وَقَلْبُ آلعَصْرِ عَلى آلحُكومَةِ... آهِ يا بَقَرَةَ آلبَقَراتِ». يَقولُ سُلُو: «أَتَذْكُرُ يَوْمَ وَقَفْتَ في وَجْهِ جَكَرْخُويْن؟»، وَيَرُدُّ زينو: «أَذْكُرُ. مَنَعْتُ زائِريهِ مِنَ الدُّخولِ إلى بَيْتِهِ. بَناتُهُ كَآلعاهِراتِ... تْفو». يَقولُ سُلُو: «جَكَرْخُويْن شاعِرٌ كُرْدِيٌّ، وَلَهُ مُريدونَ وَأَتْباعٌ»، فَيَرُدُّ زينو: «كُرْدِيٌّ؟ لَنْ أكونَ كُرْدِيّاً إذا كانَ جَكَرْخُويْن كُرْدِيّاً. بَيْتٌ كَآلماخورِ. بنَاتُهُ يُمازِحْنَ آلغُرَباءَ، وَيَلْبَسْنَ ثِياباً قَصيرَةً... تْفو».

لَمْ نَفْهَمْ جَكَرْخُويْن الشّاعِرَ في ذلِكَ آلعُمْرِ، وَلَمْ يَفْهَمْهُ

زينو، وَآباؤُنا آلـمُحافِظونَ. لكِنَّ زينو لا يَعْرِفُ آلـمُجامَلَةَ قَطُّ، وَلا يَتَجاهَلُ ما لا يُرْضيهِ. غاضِبٌ أَبَدِيٌّ عَلى زَمَنٍ لا يَتَوَقَّفُ عِنْدَ تُخومِهِ هُوَ. مَضى مُعْظَمُ جيلِهِ، واحِداً وراءَ آلآخَرِ، غِضاباً مِثْلَه، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ عَزاءٍ غَيْرَ أَبْنائِهِمْ. أَمّا زينو فَيَتَعزّى بِمَوْتِهِمْ: «مَنْ يَمُتْ قَبْلي مِنْ جيلي يَكُنْ عَزائي في آلـمَوْتِ، وَمَنْ أمُتْ قَبْلَهُ أَكُنْ عَزاءَهُ في آلـمَوْتِ». مُصيبٌ زينو في نِصْفِ ما يَقولُ، وَعَيْنُه على بابِ الزَّريبَةِ.

يَسْأَلُهُ سُلُو، في اللَّحظاتِ آلَّتي يَصْفو فيها آلكَهْلُ: «مَنْ هُوَ الشَّخْصُ آلأَبْيَضُ زينو؟»، فَيَرُدُّ زينو حاجِباً فَزَعَ أَعْماقِهِ بسُعالٍ مُتَقَطِّعٍ: «لا أَعْرِفُ». «فَلْنَدْخُلْ إلى الزَّريبَةِ، مَعاً» يَقولُ سُلُو، لكِنَّ آلكَهْلَ يَرْفَعُ يَدَهُ آلـمُرْتَجِفَةَ إلى صَدْرِهِ: «أَتَظُنُّني أخافُ؟ لا. فَلْيَبْقَ هُناكَ. نَحْنَ لا نَعْرِفُ ما سَيَفْعَلُ إذا هَرَبَ. لَرُبَّما أَطْلَقَ كُلَّ بَقَرَةٍ، في آلحَيِّ، عَلى أَكْياسِ النُّخالَةِ». وَيَسْأَلُهُ سُلُو مِنْ جَديدٍ: «أَتَظُنُّهُ لا يَسْتَطيعُ آلهَرَبَ؟»، ويَحارُ الكَهْلُ فَلا يَرُدُّ. لا جَوابَ لِسُؤالٍ كَهذا في آلحالِ. الوَقْتُ، وَحْدَهُ، سَيَصوغُه مُتَقَطِّعاً؛ الوَقْتُ آلَّذي يَنْثُرُ زَهَراتِه الذّابِلَةَ في جَدْوَلِ زينو. آاه زينو. إنْتَهى كُلُّ شَيْءٍ.

زينو مُمَدَّدٌ في ٱلغُرْفَةِ، وَقُرْبَ رَأْسِهِ أَرْمَلَتُهُ، مُوهَنَةً، يَخْذُلُها ٱلبُكاءُ فَتُتَمْتِمُ في تَوَسُّلٍ: «ماذا رَأَيْتَ يا رَجُلي؟»، وَتَلْتَفِتُ إلى ٱلباكينَ مِنْ حَوْلِها: «صَرَخَ: خَرَجَ ٱلأَبْيَضُ. هَرْوَلْنا إليه. كانَ بابُ الزَّريبَةِ مَفْتوحاً، وَعَيْنا زينو مُسَمَّرتانِ عَلَيْهِ. هَزَزْتُهُ فَلَمْ يَنْطِقْ. تَرَكَني رَجُلي، أَأَهونُ عَلَيْهِ إلى هذا الحَدِّ؟».

شِمالٌ أَنْتَ يا شِمالُ، تَرَكْنا لَكَ أَنْ تَتَباهى بِنا عَلى مَضَضٍ. كانَتِ ٱلجِهاتُ ٱلأُخْرى قَدِ ٱخْتارَتْ شُعوبَها، فَلَمْ يَرَ ـ كِلانا ـ بُدّاً مِنْ عَقْدِ قِرانِ ٱلمُصادَفَةِ.

رَضينا بِكَ، فَٱرْضَ. ألا تَرانا مَرِحينَ تُنيمُنا ٱلحُكوماتُ، وَتوقِظُنا الدِّيَكَةُ؟، وإذْ نَسْتَيْقِظُ تَتَطايَرُ ثِيابُ راقِصاتِ مَدينَةِ ٱلمَلاهي، وَتَرْكُضُ دَجاجاتُنا خَلْفَنا في ٱلأَعْيادِ ٱلوَطَنِيَّةِ؟، ألا تَرى ٱلعَتّالينَ وَحاصِداتِ الرَّوْثِ، والفُكاهاتِ ٱلأُخْرى ٱلَّتي نُطْلِقُها في بِلاطِكَ فَتُقَهْقِهُ ٱلأَبَدِيَّةُ؟

راضونَ مَرْضِيّونَ. أُنْظُرْ إلى حِمارِ ٱبْنِ الصّوفي؛ الحِمارِ ٱلَّذي يَأْتي إلى ٱلمَدْرَسَةِ، في ٱلمُناسَباتِ، وَقَدْ كُتِبَتْ عَلى بَطْنِهِ، بِدِهانٍ أبْيَضَ، كَلِمَةُ «اسْتِعْمار». نَفْرَحُ بِهِ، وَيَفْرَحُ

آلمُعَلِّمونَ وآلمُدَراءُ وَآلقائِمَّقامُ. فَحينَ تَخْرُجُ التَّظاهراتُ الشَّعْبِيَّةُ آلمُنَظَّمَةُ بمَرْسومٍ، يَخْرُجُ آبْنُ الصّوفيِّ مَحْمود مُرْتَدِياً قَلَنْسُوَةً عَلَيْها نَجْمَةٌ سُداسِيَّةٌ، مُطَرَّزَ آلوَجْهِ بِآلأَصْباغِ كَمُهَرِّجٍ، راكِباً حِمارَه ذاكَ، وَيَسيرُ بَيْنَ الصُّفوفِ فَيَكونُ مَحَطَّ آلأَنْظارِ والضَّحِكِ.

أُنْظُرْ إلى مَرْوانَ ذي آليَدِ آلواحِدَةِ، الَّذي يَقودُ دَرّاجَتَهُ كَأَمْهَرِ مَنْ يَقودُ، وَيُغافِلُ أَكْثَرَ مُراقِبي آلمَدْرَسَةِ سَهَراً وَحيطَةً، فَيُدَخِّنُ في آلباحَةِ، وفَي غُرْفَةِ الدِّراسَةِ. أُنْظُرْ إلَيْهِ يَضْرِبُهُ آلمُعَلِّمُ آلحِزْبِيُّ بِالعَصا، ويَدوسُهُ بِحِذائِهِ، وما يَكادُ يَتْرُكُهُ حَتّى يَنْفِرُ آلأَكْتَعُ ضاحِكاً.

راضونَ مَرْضِيّونَ. لكِنَّنا نَنْفَجِرُ بَيْنَ حينٍ وَآخَرَ، لَيْسَ آحْتِجاجاً عَلى أحَدٍ، بَلْ لِنُؤَجِّلَ مَجيءَ ميرو: العَتّالونَ يُمَزِّقونَ آلعَتّالينَ؛ وَآلأَقارِبُ يَنْقَسِمون بِفِعْلِ ثَرْثَراتِ نِسائِهِمْ؛ وآلمُعَلِّمونَ يَنْتَقِمونَ ـ عَبْرَ تَلامِذَتِهِمْ ـ مِنَ آلماضي، وَمِنَ آلحاضِرِ، وَمِنَ آلمُسْتَقْبَلِ؛ والدَّرَكِيّونَ آلجَوّالَةُ عَلى خُيولِهِمْ يَنْهَبونَ آلقُرى، لِيُعَوِّضوا عَنْ ضَآلَةِ مُرَتَّباتِهِمْ؛ وَآلمُقامِرونَ يَطْعَنونَ بِآلمُدى أشْباهَ آلمُقامِرينَ؛ وَالرِّياضِيّونَ يُحاصِرونَ حاراتٍ بِأَكْمَلِها؛ وَآلعاهِراتُ

آلمُرَخَّصاتُ يَسْتَأْجِرْنَ القَبَضاياتِ لِلْمُضارَبَةِ؛ وَسائِقو الشّاحِناتِ يَدْفَعونَ بِالسَّيّاراتِ الصَّغيرَةِ إلى آلمَهاوي؛ وآلمُتَصَوِّفَةُ يَتَحَزَّبونَ لِهذا، أَوْ لِذاكَ، مِمَّنِ آخْتَلَفوا عَلى حَرْفِ عِلَّةٍ، أَوْ تَفْسيرِ بَدْءِ آلآيةِ بِـ«نون»؛ وَآلبَدْوُ يُطْلِقونَ نِعاجَهُمْ بَيْنَ حُقولِ السَّنابِلِ فَتَتَرُكُها هَشيماً؛ وَآلآباءُ يَحْتَقِرونَ بَناطيلَ آلأبْناءِ؛ وَآلفَلّاحونَ يَمْسَحونَ مُؤَخَّراتِ بِغالِهِمْ بالنَّشادِرِ فَتَظَلُّ راكِضَةً أمامَ آلمَحاريثِ... إلى آخِرِهِ.

كُلُّ شَخْصٍ يُؤَجِّلُ مَجيءَ ميرو عَلى طَريقَتِه؛ يُؤَجِّلُ مَجيءَ آلأَكْباشِ آلَّتي سَتَشُقُّ بِقُرونِها آلغِشاءَ آلأرْضِيَّ، فَتَبينُ، في أَكْثَرِ آلأماكِنِ آلْتِصاقاً بِآلعِماراتِ، وَآلأسْواقِ، بَقايا مَمْلَكَةِ الرُّعاةِ آلأولى، ذاتِ آلأساساتِ آلجيرِ، وآلأحْواضِ النّائِمَةِ كَقُبورٍ مِنْ ذَهَبٍ.

مَنْ تُخومِ الشِّمالِ، إذنْ، تَنْتَظِرُ آلأَرْضُ صاعِقَةَ سِحْرِها، وَأَباطِرَةَ آلمَلْهاةِ.

بيروت، ١٩٨٠

*

هاتِه عالياً، هاتِ النَّفيرَ على آخره
(سيرة الصِّبا)